ملف العدد:
علوم القرآن و تفسيره

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

العدد الثاني والأربعون- السنة الحادية عشرة- ربيع الثاني١٤٣٦هـ- يناير ٢٠١٥ م

- علوم القرآن و تفسيره ... حوار مع سماحة السيد نذير الحسني حفظه الله
- مصطلحات في علوم القرآن
- أسباب النزول
- الإعجاز العلمي للقرآن
- بحثٌ في تحريف القرآن الكريم
- التفسير عند السيد الخوئي

٤٢

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

• الهيئة الاستشارية:
الشيخ عبد الله علي الدقاق
الشيخ علي فاضل الصددي
الشيخ غازي عبد المحسن السماك

• المشرف العام:
الشيخ عبد الرؤوف حسن الربيع

• رئيس التحرير:
الشيخ محمد علي خاتم

• مدير التحرير:
الشيخ عباس علي الصايغ

• رئيس هيئة التحرير:
الشيخ عزيز حسن الخضراوي

• هيئة التحرير:
السيد جلال عدنان علوي
الشيخ علي عقيل الجمري
الشيخ منصور إبراهيم الجيلي

فصلية تصدر عن

طلاب البحرين في الحوزة العلمية بمدينة قم المقدسة

برعاية

مكتب البيان للمراجعات الدينية

المحتويات

رسالة القلم
إسلامية ثقافية شاملة

اقرأ في هذا العدد ٤٢

كلمة العدد

٣ .... الأثر العظيم للقرآن الكريم
رئيس التحرير

حوار العدد

٥.... تفسير القرآن وعلومه
مع سماحة السيد نذير الحسني

ملف العدد: عاشوراء الصمود

١٧ ... مصطلحات في علوم القرآن
الشيخ محمد صالح القطري

٣٥ ... أسباب النزول
الشيخ محمد علي الخاتم

٤٦ ... الإعجاز العلمي
الشيخ محمد علي الشيخ عيسى أحمد قاسم

٦٣... من آفاق آية الوضوء
الشيخ عادل علي الشعلة

٩٥ ... نظرة حول سورة براءة (القسم الأول)
الشيخ عزيز حسن الخضران

١١٤ ... الأدعية القرآنية وخصائصها
الشيخ محمد أحمد جواد التاجر

١٤٦ ... بحث في تحريف القرآن الكريم
الشيخ علي أحمد الجفيري

١٦٧ ... التفسير عند السيد الخوئي
السيد ياسين السيد قاسم الموسوي

بحوث و مقالات أخرى

٢٠١ ... مسائل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
الشيخ عليّ فاضل الصدديّ

الأثر العظيم للقرآن الكريم

القرآن هو آخر الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى ذكره على أنبيائه وتعهد بنفسه أن يحفظه{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(١).

القرآن بوجوده المبارك أمر عجيب لمن يلتصق به، بل لكل من يفتح أذني قلبه ليستمع إلى شيء منه، فآياته الشريفة لها ما لها من الأثر الباهر على قلوب السامعين سواء كانوا من الإنس أو من الجن فهذا القرآن بنفسه يخبرنا عن شيء من أثره في قوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}(٢) وخير توصيف للقرآن قد صدر من الجن كونه هادٍ إلى الرشد، ومن يهتدي بالقرآن لا يجد عسر في أن يتعهّد على نحو التأبيد بعدم صدور الشرك منه، ليعيش حالة من العبودية الصادقة مع الله تعالى، فيستولي ذكر الله على ظاهره وباطنه، فيكون ممن قال الله فيهم {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}(٣) فترتقي درجاتهم وتزداد لذّتهم بالقرآن الكريم كلّما ازدادت تلاوتهم اللسانية والعملية للقرآن، فيحصلوا على ميزة لا تفارقهم وهي الاطمئنان {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(٤)، وأيّ لذّة هذه وأيّ أثر هذا الذي يحدثه القرآن! ليصل الإنسان في بعض الحالات إلى درجة أن يتلو سور من القرآن ولا يوقفه شيء ما دام قادر على التلفظ؛ ففي غزوة ذات الرقاع انتدب الرسول صلى الله عليه وآله رجلاً من المهاجرين وآخر

من الأنصار للقيام بالحراسة، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه: أوله أم آخره؟ قال المهاجري: بل اكفني أوله. فأضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلّي، وأتى رجل من الأعداء، فلما رأى الأنصاري قائم عرف أنّه طليعة القوم. فرماه بسهم فوضعه فيه، فانتزعه ووضعه، فثبت قائم ، ثم عاد له بالثاني، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أيقظ صاحبه، فقال اجلس فقد جُرحت، فقال لصاحبه بعد ما رأى ما به من الدماء: سبحان الله! أفلا أيقظتني أول ما رماك؟ قال الأنصاري: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، حتى أنفدها، فلما تابع علي الرمي وركعت أعلمتك[٥]. والجميل أنّه تحمّل هذه الجراحات حتى لا يقطع قراءته للقرآن.

ولما كان لهذا الكتاب من الأثر العظيم كان سلاحاً فعّالاً قد استخدمه الرسول صلى الله عليه وآله في مواجهة أهل الشرك والوثنية فدعاهم إلى الإسلام والقرآن حاضر معهم ليدخل مسامعهم فقلوبهم، ففي إحدى السنوات خرج النبي صلى الله عليه وآله إلى الموسم ليدعو الناس إلى الإسلام إذ لقي رهط من الخزرج، فقال صلى الله عليه وآله: **>من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرض صلى الله عليه وآله، عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن< فآمنوا وصدّقوا<**[٦].

***

الهوامش

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) سورة الجن: ١.

(٣) سورة مريم: ٨٥.

(٤) سورة الرعد: ٢٨.

(٥) بحار الأنوار ج٢٠، ص١٧٧.

(٦) بحار الأنوار ج١٩، ص ٢٣.

حوار

حول تفسير القرآن وعلومه

مع سماحة السيد نذير الحسني[1]

إعداد: الشيخ محمد علي الخاتم

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ، وقد أمرنا الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ بأن نتمسّك بالقرآن ونلزمه بتعلّمه والتدبّر فيه والأخذ من معانيه وبالرجوع إليه في كلّ أمورنا فإنّ فيه تبيانا لكل شيء، فلا بد من جعل القرآن أمامنا فهو خير قائد لنا إلى الجنّة التي وعد الله بها المتّقون، وينبغي أن لا نجعل القرآن خلفنا بإهماله وإهمال ما فيه فإنّه يقودنا إلى النار والعياذ بالعزيز الجبار.

ومن أراد ما يسدّده في مسيره فعليه بالقرآن، ومن أراد ما يفصل له بين الحق والباطل فعليه بالقرآن إذ هو الحق المطلق.

لذا قال رسول الله ﷺ: >فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وماحل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق له نجوم وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة...<[2].

ورغبة في الاستزادة من القرآن العظيم نحتاج إلى النظر في علومه التي تساعد على فهمه وإدراك شيء من مكنوناته جاء هذا الحوار مع سماحة السيد نذير الحسني سلمه الله، وهو ممن له باع في هذا المجال وله بعض

المؤلفات فيه فكان هذا الحوار.

س١: السلام عليكم و رحمة الله، سماحة السيد ما الفرق بين علوم القرآن وأصول التفسير؟

أولاً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شكر لكم على هذا اللقاء وأتمنّى لمجلتكم الكريمة مزيد من التقدم لرفد الوعي العلمي في الجامعات والحوزات العلمية وخصوص فيما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه.

ثاني : في ما يتعلّق بالسؤال فأقول:

علوم القران: هي مجموعة من العلوم التي تتمحور حول النص القرآني وهي متعلقة بنزوله وجمعه وكتابته ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وإعجازه وغير ذلك من مباحث، والباب مفتوح لدخول علوم جديدة متعلقة بهذا النص الإلهي للدفاع عنه وفهمه وتنزيهه، فهذا العلم بدأ مع نزول النص ولن ينتهي بمجموعة معينة من العلوم لا تسمح بدخول غيرها فيه ما دام غرض إيجادها قائم وهذا لا يمنع أن يكون كل علم من هذه العلوم علم مستقلاً بذاته كما حصل للكثير منها كالإعجاز والوحي وغير ذلك.

وأما أصول التفسير؛ فهو عبارة عن القواعد والضوابط التي من خلالها يستطيع المفسّر الوصول إلى التفسير الصحيح وإدراك أسرار القرآن وخزائنه حسب الطاقة البشرية؛ فعلم أصول التفسير بالنسبة إلى المفسر كالنحو بالنسبة إلى الناطق باللغة العربية، فكما أنّ النحو يضبط لسان الناطق باللغة من الوقوع في الخطأ، فكذلك أصول التفسير تضبط منهج المفسّر من الوقوع في الخطأ والانحراف عن الطريق الصحيح للوصول إلى المعلومة التفسيرية، ومن خلال علم أصول التفسير نستطيع التمييز بين أقوال المفسرين ومعرفة الراجح منها، ولو تتبعنا كتب التفسير وعلوم القرآن لوجدنا أنّ هناك خلط في مباحث هذين العلمين فبعض علوم القرآن هي أصول تفسيرية والعكس صحيح، إلا أنه يمكن تبرير هذا التداخل بأنّ هذه العلوم لا تزال حادثة الانفصال بعضها عن بعض،

وإذا ما أردنا التمييز بين الطرفين لا بد من المعرفة بأنّ أصول التفسير يتناول الشروط التي يجب توفرها في المفسّر بالإضافة إلى القواعد اللغوية والأصولية، وما يمكن تسجيله هنا أنّ علماء التفسير لم يكملوا بناء أصول التفسير كعلم قائم بذاته غير متداخل مع علوم القرآن وإن كانت هناك بعض الأصول غير متداخلة في الجملة.

س٢: المعروف بأن السورة إمّا مكية أو مدنية فكيف نتصور اجتماع هذين الأمرين في سورة واحدة وهل لهذا النوع من السور تسمية مختصّة بها حيث لا يصح إدراجها في المكية ولا في المدنية.

*الجواب: من خلال معرفة الضوابط التي وضعها العلماء للتمييز بين المكي والمدني نستطيع التعرف على إمكانية وعدم إمكانية اجتماع المكي والمدني في آية أو سورة واحدة، وهذه الضوابط تمحور في ما يلي:

١- الزمن: فكلّ آية نازلة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة فهي مكية حتى لو كانت نازلة في المدينة، وكل آية نازلة عليه بعد الهجرة فهي مدنية حتى لو نزلت في مكة، بناءً على ذلك، فما نزل في مكة بعد الهجرة فهو مدني كآية الإكمال.

٢- المكان: الآية النازلة في مكة فهي مكية، والنازلة في المدينة فهي مدنية، وبهذا الضابط، فلو كانت هناك آية نزلت في غير هذين المكانين فهي لا مكية ولا مدنية؛ مثلاً قوله تعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}[٣]. قد نزلت في الحديبية عند عقد الصلح مع المشركين وعندما أملى الرسول صلى الله عليه وآله لعلي أن يكتب البسملة، فقال سهيل بن عمرو: ما نعرف الرحمن، فنزلت الآية[٤].

٣- الخطاب: فما وقع خطاب لأهل مكة فهو مكي وما وقع خطاب لأهل

المدينة فهو مدني، وهنا بدأت الاجتهادات في تمييز خطاب أهل مكة عن أهل المدينة ولم تخلو تلك الاجتهادات من خروقات وتداخل في الخطابين.

س٣: ما هو المراد من التفسير العلمي للقرآن، وما هي ثمراته؟

*الجواب: التفسير العلمي هو محاولة بيان المراد الألهي حسب الطاقة البشرية ووفق الاكتشافات العلمية الحديثة والتي أصبحت قوانين علمية غير قابلة للتغيير والتبديل من خلال توظيف منتوجات المختبر العلمي لخدمة الآيات القرآنية الكريمة.

نعم، يحاول البعض توسيع رقعة هذا النوع من التفسير إلى استنباط مختلف الاكتشافات الكونية وما يتعلق بالعلوم النفسية والعقلية وما يجري في المختبرات والمعارف التجريبية وتحمليها على القرآن قبل أن تصل إلى حد القوانين العلمية فيحمّل القرآن ما لا يحتمل ومن هنا جاءت عملية الرفض للتفسير العلمي للآيات من قبل بعض العلماء.

أما ثمرات هذا التفسير فهي كثيرة جد منها:

أ- باب من أبواب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

ب- ربط الآيات القرآنية بالاكتشافات العلمية الحديثة بشرط وصولها إلى حد القوانين.

ج- تعميق دور القرآن في نفوس الناس من خلال تفعيل النص القرآني مع الحياة اليومية العملية.

و- من خلال التفسير العلمي نتخلص من الكثير من الخرافات التي يحاول البعض أن يفسر القرآن بها.

د- فتح آفاق جديدة من خلال التفسير العلمي لجذب غير المسلمين تجاه القرآن والإيمان به.

ح- الجواب على من حاول إيجاد تعارض بين الدين والعلم.

خ- إثبات أنّ هذا القرآن وحي من الله تعالى لا من البشر.

وهناك فوائد كثيرة وثمرات جمة للتفسير العلمي للقرآن ليس مجال استيعابها هنا.

س٤ : ما هي ضوابط التفسير الموضوعي للقرآن؟

*الجواب: الحديث عن ضوابط التفسير الموضوعي حديث طويل جد وهناك رسائل ماجستير وأطروحات دكتوراء كُتبت حول هذه الضوابط، ولكن وفق قاعدة مالا يدرك كله لا يترك جلّه نقول: هناك ضوابط متعلقة بالمفسّر موضوعي وهناك ضوابط متعلقة بنفس عملية التفسير، أمّا فيما يرتبط بالمفسّر فأنّه يحتاج إلى دربة كاملة وكافية في تفسير الآيات القرآنية والهيمنة عليها بعد تحصيل جملة من العلوم النحوية والشرعية وتلك المتعلقة بنفس الموضوعات المُفسرة، أما فيما يرتبط بضوابط التفسير الموضوعي نفسه فيمكن وضعها في نقاط محددة منها:

١. تحديد الموضوع والدائرة التي يتحرك بها؛ فهل هو عقائدي أو فقهي أو اجتماعي أو كوني إلخ.
٢. متابعة ما يرتبط بالموضوع من آيات مصرّحة أو ملوّحة.
٣. عرض الموضوع على الآيات إذا كان موضوع خارجي عن القرآن بعد استيعاب كل ما يتعلق به من تطبيقات نظرية وعملية.
٤. استنطاق الآيات القرآنية حول الموضوع بعيد عن التحميل ولوي عناق الألفاظ بشكل قسري بعيد عن الواقع.
٥. استنباط دلالات الارتباط ومدلولاتها من خلال عرض ما يحمله الموضوع من دلالات على القرآن للوصول إلى النتائج.

علم أنّ نتائج التفسير الموضوعي هي في الحقيقة نتائج خاضعة للطاقة البشرية للمفسر وليست نهائية قطعية.

س٥: ما هي الشواهد على نشوء القراءات السبع للقرآن الكريم وما هي أدلة ثبوت هذه القراءات؟

*الجواب: لا شك في أنّ اختلاف مصاحف الأمصار كان أهمّ عوامل نشوء الاختلاف القرائي. لأنّ نشأة اختلاف قراءة الأمصار كان قبل اختلاف القرّاء فكانوا يقولون؛ قراءة مكّة، قراءة الشام، قراءة المدينة، قراءة الكوفة، قراءة البصرة، وهكذا.

إلى جانب ذلك كانت هناك عوامل أُخرى ساعدت على هذا الاختلاف نذكر منها ما يلي:

١ـ بداءة الخطّ: كان الخطّ عند العرب في ذلك الزمان في مرحلة بدائيّة، ومن ثمّ لم تستحكم أُصوله ولم تتعرّف العرب إلى فنونه والإتقان من رسمه وكتابته الصحيحة، وكثير ما كانت الكلمة تكتب على غير قياس النطق بها. كانوا يكتبون الكلمة وفيها تشابه واحتمال وجوه، فالنون الأخيرة كانت تكتب بشكل لا يفترق عن الراء وكذا الواو عن الياء. كما ربّما كانوا يفكّكون بين حروف كلمة واحدة فيكتبون الياء منفصلة عنها كما في {يَسْتَحْيِي} أو يحذفونها رأس كما في {إيلافِهِم} كتبوها {إلافِهِم} بلا ياء.

الأمر الذي أشكل على بعض القرّاء واختلفت القراءات. ولذلك قرأ بعضهم: {لِيْلافِ قريشٍ} بحذف الهمزة وإثبات الياء. و{إلافِهِم رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ} بإثبات الهمزة وحذف الياء. وقرأ بعضهم {ألْفِهِم} بالهمزة وسكون اللام.

٢ـ الخلوّ عن النقط: كان الحرف المعجم يكتب كالحرف المهمل بلا نقط فلا يفرّق بين السين والشين في الكتاب ولا بين العين والغين أو الراء والزاي و... فكان على القارئ نفسه أن يميّز بحسب القرائن الموجودة أنّها باء أو ياء.

من ذلك قراءة ابن عامر وحفص: {وَيُكَفِّرُ عَنكُمُ}(٥) وقرأ الباقون: {نُكَفِّرُ}.

٣ـ التجريد عن الشكل: كانت الكلمة تكتب عارية عن علائم الحركات القياسيّة في وزنها وفي إعرابها وربّما يحتار القارئ في وزن الكلمة وفي حركتها فيما إذا كانت الكلمة محتملة لوجوه، مثلاً: لم يكن يدرى (اعلم) أمر أم فعل مضارع متكلم. قرأ حمزة والكسائي: {قالَ اعْلَمْ أنّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ}(٦) بصيغة الأمر وقرأ الباقون بصيغة المتكلّم، وهي محاولة لتوجيه قراءة شاذّة(٧).

٤ - إسقاط الألفات: كان الخطّ العربيّ الكوفيّ منحدر عن خطّ السريان وكانوا لا يكتبون الألفات الممدودة في ثنايا الكلم، وقد كتبوا القرآن بالخطّ الكوفي على نفس المنهج. الأمر الذي أوقع الاشتباه في كثير من الكلمات. قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: {وما يُخادِعُونَ إلاّ أنْفُسَهُم}[٨]، نظر إلى أن يخادعون في صدر الآية قد كتب بلا ألف فزعموهما من باب واحد.

أضف إلى ذلك بعض الزيادات المخلّة بالمقصود إذا لم يكن القارئ عارف بأصل النصّ من سماع خارج. كما في قوله تعالى: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأْذْبَحَنَّه}[٩]. فزادوا ألف أثناء كلمة واحدة فربّما يحسب القارئ الجاهل بالواقع أنّها لا النافية في حين أنّها لام تأكيد والهمزة حرف المتكلّم والألف زائدة.

٥ـ تأثير اللهجة: لا شكّ في أنّ كلّ أمّة -وإن كانت ذات لغة واحدة- فإنّ لهجاتها تختلف حسب تعدّد القبائل المنشعبة. وهكذا كانت القبائل العربيّة تختلف مع بعضها في اللهجة وفي التعبير والأداء. من ذلك اختلافهم في الحركات، مثل (نستعين) -بفتح النون وكسرها- قال الفرّاء: هي مفتوحة في لغة قيس وأسد. وغيرهم يقولونها بكسر النون[١٠]. واختلافهم في الحركة والسكون، مثل قولهم: (معكم) بفتح العين وسكونها. واختلافهم في الإعراب نحو (ما) النافية، فإنّها غير عاملة عند تميم وعاملة عمل ليس عند الحجازيين. وغير تلك من موارد الاختلاف.

٦ـ تحكيم الرأي والاجتهاد: هذا أكبر العوامل تأثير في اختيارات القرّاء، كان لكلّ قارئ رأي يعتمده في القراءة التي يختارها وكانوا -أحيانا- مستبدّين بآرائهم ولو خالفهم الجمهور أو أهل التحقيق. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ}[١١] بالتنوين والرفع. وقرأ الباقون بالفتح من غير تنوين. قال مكّي: وجه القراءة الأُولى: أنّ (لا) بمعنى (ليس) والخبر محذوف. ووجه الثانية: أنّ (لا) نفي للجنس دلالة على النفي العامّ. لأنّ التي بمعنى ليس لا تنفي إلاّ واحدة والمقصود في الآية العموم[١٢].

٧ـ غلوّ في الأدب: من العوامل التي كانت تبعث على اختيار قراءة -ولو

كانت شاذّة خارجة على المشهور أو مخالفة لرسم الخطّ- هو غلّو القارئ فيما اختصّ به من الأدب العربي معجب بنفسه فيزعم الصحيح فيما رآه، وفق للقواعد العربية. من ذلك ما نجده في أبي بكر العطار المقرئ النحوي (٢٦٥ ـ ٣٥٥). كان أعلم دهره بالنحو والقراءة ومن ثمّ لم يكن يتوجّه بالمأثور من القراءات وكان يختار لنفسه قراءة يراها صحيحة ومناسبة في سياق معنى الآية ففي قوله تعالى: {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا}[١٣]. قرأ {نَجِباً}[١٤]، جمع (نجيب). فكان مآل أمره أن ثارت عليه ضجّة الفقهاء وحاكمه الأمير، فلم يستطع الدّفاع فأراد ضربه لكنّه استسلم أخير فاستتيب[١٥].

٨ـ الشذوذ النفسي: وهو ما يرجع إلى عللٍ روحيّة، يروم أصحابها الاشتهار بمخالفة المشهور، أو عُقَد نفسيّة تنفجر في وجه الأعراف التقليديّة، فتتمثل في قالب الاختيارات الشاذّة. كما ذكرنا في أبي بكر العطّار.

س ٦: ما هي أهم المؤلفات التي تعتبر مراجع معتمدة في علوم القرآن؟

*الجواب: لو طالعنا الدراسات التي تعرضت إلى هذا العنوان نجد أنّها توزعت على ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: الدراسات التي اهتمت بعنوان واحد من عناوين هذا العلم من قبيل الدراسات التي اهتمت بالإعجاز أو التحريف أو المحكم والمتشابه أو الناسخ والمنسوخ وغيرها ومن أمثلة هذه الدراسات[١٦]:

ما كتبه يحيى بن يعمر (ت ٨٩) حول القراءات.

ما كتبه الحسن البصري (ت ١١٠) حول نزول القرآن وعدد آيات القرآن.

ما كتبه عبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨) حول اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق والمقطوع والموصول.

ما كتبه محمد بن سائب الكلبي (ت ١٤٦) حول بداية تدوين أحكام القرآن.

ما كتبه عطاء بن أبي مسلم ميسرة الخراساني (ت ١٣٥) حيث كان أول من

كتب في علم الناسخ والمنسوخ.

ما دونه محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦) في إعجاز القرآن.

الاتجاه الثاني: الدراسات التي جمعت أغلب عناوين هذا البحث في كتب مستقلة ومن أمثلة هذا الاتجاه:-

كتاب البرهان للزركشي.

كتاب الاتقان للسيوطي.

كتاب التمهيد في علوم القرآن للشيخ محمد هادي معرفة.

وغيرهم.

الاتجاه الثالث: الدراسات التي جعلت مباحث علوم القرآن من مقدمات علم التفسير ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ أغلب التفاسير التي كتبت في هذا المجال تضمنت هذا النوع من البحوث ولعل أقدم بحث في علوم القرآن كان في مقدمات الكتب التفسيرية ويمكن القول بأنّ هذا الاتجاه من أقدم الاتجاهات التي كتبت في علوم القرآن.

ويجب الالتفات إلى أنّ هذه الاتجاهات لا تتسلسل زماني وإنّما في كل اتجاه نجد دراسات ضاربة في القدم الزماني وفي نفس الوقت نجد دراسات حديثة ومعاصرة.

س ٧: لم يكن من جمع القرآن من مقرّ خصوص بعد انتقال النبي صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى ورفض السلطة مصحف علي عليه السلام... فوقع الاختيار على زيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة. ما هي خصوصيات زيد حتى يقع الاختيار عليه دون غيره، وما هو أسلوبه في جمع القرآن وترتيبه، وهل الترتيب للقرآن الذي بين أيدينا هو ترتيب زيد؟

الجواب: جمع المصحف بعد زمن النبي صلى الله عليه وآله لا يعني أنّ المصحف لم يكن في زمانه صلى الله عليه وآله مجموع وبينت في كتابي >دروس في علوم القرآن< ذلك بشكل مفصّل، وكذلك بينا مراحل الجمع وأنواعه أما فيما يرتبط بزيد وخصوصياته

فنصّت بعض المرويات التي جاءت في الصحاح والمسانيد بأنّه رجل غير متهم ولم تتوضح هذه العبارة في الكتب ولم يوقف عليها، خصوص أنّها جاءت بعد رفض مصحف علي عليه السلام فقد روى زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر، مقتل أهل يمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر: إنّ عمر أتاني. فقال: إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنّي أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئ لم يفعله رسول الله؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنّك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني من جمع القرآن قلت: كيف تفعلون شيئ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري، للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب، واللخاف، وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره:

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}.

حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر(١٧)، فكما تقول هذه الرواية لأجل أنّه غير متهم كلف بهذه المهمة وبعدها وجّه زيد نداء عام إلى ملأ الناس: "من كان تلقّى من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً من القرآن فليأتِ به". وألف لجنة من خمسة وعشرين عضو -كما جاء في رواية اليعقوبي(١٨)- وكان عمر يشرف عليهم بنفسه. وكان اجتماعهم على باب المسجد يوميّ والناس يأتونهم بآي القرآن وسوره، كلّ حسب ما عنده من القرآن.

ومن غريب الأمر أنّ عمر جاء بآية الرّجم وزعمها من القرآن: <الشيخ

والشيخة إذا زَنَيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله>، لكنّه ووجه بالرفض، ولم تقبل منه، لأنّه لم يستطع إثبات أنّها من القرآن. وبقي أثر ذلك في نفس عمر، فكان يقول -أيّام خلافته-: "لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله، لكتبتها بيدي -يعني آية الرّجم-"[١٩].

منهج زيد في جمع المصحف

"ثم إنّ جمع زيدٍ لم يكن مرتّباً ولا منظّم كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع، وضبط آياته وسوره حذر عن التلف بموت حامليه، فدوّنت في صحف وجعلت في إضبارة، وأُودعت عند أبي بكر مدّة حياته، ثمّ عند عمر بن الخطّاب حتّى توفّاه الله، فصارت عند ابنته حفصة، وهي النسخة التي أخذها عثمان لمقابلة المصاحف عليها، ثمّ ردّه عليها، وكانت عندها إلى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمر بها فشقّت"[٢٠].

س ٨: هل يعتمد القرآن على المترادفات أم أنّ استخدامه لكل كلمة له غرض ومعنى خاص لها، مثل (المؤمنون/ الذين آمنوا) أو (الإكمال/ الإتمام)؟

*الجواب: توجد هنا نظريتان عند العلماء:

الأولى: أنّ هناك مترادفات في القرآن استُعملت وفق لاستعمالات اللغة التي نزل فيها هذا الكتاب المبارك وهذا أمر طبيعي لأنّ من يستعمل لغة قوم يستعمل ملازمات هذه اللغة.

الثانية: لا يوجد هناك مترادف في الكلمات القرآنية فإن لكل كلمة من الكلمات كما يقول أصحاب هذه النظرية لها معنى خاص يختلف عن المعنى الآخر وذكرت لهذه النظرية توجيهات متعددة لا تخلو من النقض والرد.

عموم هذا الأمر اجتهادي بين العلماء.

وفي ختام هذا اللقاء لا يسعنا إلا أن نشكر سماحة السيد على إتاحة هذه الفرصة للاستفادة من أنفاسه راجين العلي القدير أن ينفع به الإسلام والمسلمين.

الهوامش

(١) هـو السـيد نذيـر الحسـني، الأسـتاذ فـي الحـوزة العلميـة بقـم المقدّسـة ويشـغل حاليـ رئاسـة الهيئـة العلميـة بجامعـة آل البيـت عليهم السلام العالميـة ورئاسـة قسـم القـرآن والحديـث فيهـا، ولـه أنشـطة تبليغيـة متعـددة ولـه عـدد مـن المؤلفـات منهـا دروس فـي علـوم القـرآن.

(٢) الكافي ج٢، ص ٥٥٩ كتاب فضل القرآن الحديث ٢.

(٣) سورة الرعد:٣٠.

(٤) السنن الكبرى للنسائي: ج٦ ص ٤٦٥.

(٥) البقرة: ٢٧١.

(٦) البقرة: ٢٥٩.

(٧) انظر: البرهان: ٣٤١/١.

(٨) البقرة: ٩.

(٩) النمل: ٢١.

(١٠) انظر كتاب سيبويه: ٢٥٧/٢.

(١١) البقرة: ١٩٧.

(١٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢٨٥/١ ـ ٢٨٦.

(١٣) يوسف: ٨٠.

(١٤) إعجاز القرآن للرافعي: ٥٧.

(١٥) النشر: ١٧/١.

(١٦) انظـر: مقالـة بعنـوان التمهيـد للأسـتاذ محمـد علـي مهـدوي راد فـي مجلـة بينـات العـدد ٣ لسـنة ١٣٧٣ ش، وانظـر مقدمـة البرهـان ج١ ص ٤٨، وانظـر مقـال للأسـتاذ محمـد إبراهيـم جناتـي فـي مجلـة كيهـان انديشـه العـدد ٢٨ لسـنه ١٣٧٦ ش، وانظـر الدكتـور علـي اصغـر حلبـي فـي كتـاب التعـرف علـى علـوم القـرآن ص ١٣٢.

(١٧) صحيح البخاري ج٦، ص٩٨، ح٤٣١١.

(١٨) تاريخ اليعقوبي: ١١٣/٢.

(١٩) تفسير ابن كثير: ٢٦١/٣. والبرهان: ٣٥/٢. والإتقان: ٢٦/٢.

(٢٠) إرشاد الساري: ٤٤٩/٧.

مصطلحات في علوم القرآن

الشيخ محمد صالح القطري

تمهيد

يتطرق هذا البحث إلى مفردات النص والظاهر، المجمل والمبين، المحكم والمتشابه، المفسر والمؤول لما في تمييز تلك المصطلحات من أهمية، وما في الوقوف على بعض الأبحاث المرتبطة بها من دخالة كبيرة في فهم المسألة موضع البحث عبر تصور محتملات مداليل الآيات والروايات المستدل بها، وفي درك مرامي عبائر العلماء، وإن كانت حاجةٌ لبيان غيرها فيبين في محله إن شاء الله.

تداخل الاصطلاح

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد يوجد في كلماتهم شيء من تداخل الاصطلاح، بسبب تباعد الفترة الزمنية وتنوع المباني من جهة ووقوع العموم مطلقـ ومن وجه[1] بين بعض المصطلحات من جهة أخرى. فقد يُعبّر بالنص مثلاً ويراد به المبيّن الذي يشمل عند البعض (النص والظاهر) في قبال المجمل، ومنع البعض كون الظاهر مبين بل

جعلـه مجمـلاً. ومنهـم مـن عبـر بالظاهـر عـن المبيـن والنـص، فقـال الشـيخ & -مثـلاً- فـي العـدة: "وأمّا النّص: فهو كلّ خطاب يمكن أن يعرف المراد به".[٢] فهـل يتحـد معنـاه مـع معنـى المبيـن الـذي هـو فـي قبـال المجمـل؟ أم هـو شـامل للمجمـل أيضـ حيـث قـال أن المجمـل ينبـئ عـن الشـيء إلا أنـه لا يعلـم المـراد بـه تفصيـلاً[٣]؟ وهكـذا.

أولاً: القرآن:

اختلفـوا فـي حـدّ (القـرآن) والمعبـر عنـه بالكتـاب فـي مباحثهـم، وناقشـوا فيمـا حـدّ بـه كل واحـد إيـاه. فقـال بعضهـم: الكتـاب مـا نقـل إلينـا بيـن دفّتـي المصحـف مـن السـبعة المشـهورة، نقـلا متواتـر . وقيـل: هـو القـرآن المنـزل. وقيـل: هـو الـكلام المنـزل للإعجـاز بسـورة منـه[٤].

و الـذي يبـدو أن هـذه التعابيـر وأمثالهـا تشـير إلـى معنـى واضـح وشـيء مشـخص وهـو كتـاب المسـلمين المقـدس المنتشـر بينهـم عامـةً ولا يخلـو منـه مسـجد ولا بيـت.

ثانيـ : النص والظاهر

١. النص - لغةً واصطلاح

النص في اللغة هو الإظهار والإبراز.

فـي العيـن: "نَصٌّ كل شيء: منتهاه"[٥]. وفـي جمهـرة اللغـة: "الحديثَ أنصه نَصّا، إذا أظهرته. ونَصَصْتُ العروسَ نَصّا، إذا أظهرتها و(...) إذا أقعدتها على المِنَصة. وكل شيء أظهرته فقد نَصَصْتَه"[٦].

النص في الاصطلاح

حـد الشـريف المرتضـى & النـصّ فـي رسـالة الحـدود والحقائـق بأنـه: "كل كلام يظهر إفادته لمعناه ولا يتناول أكثر منه"[٧]. وحـدّه فـي

موضع آخر منها بأنه: "كل خطاب يمكن أن يعلم المراد به"[٨]. وبالثاني حده الشيخ الطوسي & وناقش بعض التعاريف، مستدلاً على مختاره بالمعنى اللغوي، بأنّ "النّص إنّما يسمّى نصّا لأنّه يظهر المراد ويكشف عن الغرض تشبيها بالنّص المأخوذ من الرّفع نحو قولهم: >منصّة العروس< إذا ظهرت..."[٩].

ويظهر من المحقق القمي تبنيه كلامـ للعلامة الحلي & في تهذيبه وآخر للشيخ البهائي & في زبدته، خلاصتهما أن النص هو: "اللفظ المفيد الراجح المانع عن النقيض والذي لا يحتمل غير معناه"[١٠].

وأما المشكيني & فقابل بين النص والظاهر وجعلهما من أقسام المبين، ورادف بين النص والصريح، مع إضافته لضابطة من ضوابط تحديد نصوصية اللفظ وهي عدم قبول العرف تأويله. إذ قال: "النص وهو الظاهر البالغ في ظهور دلالته إلى حيث لا يقبل التأويل عند أهل العرف، بل يعدون التأويل له قبيحا خارجا عن رسوم المحاورة كقوله، يجب إكرام زيد، فحمل الوجوب على الإباحة أو الإكرام على الإهانة، أو زيد على عدوه ببعض التأويلات لا يقبله أهل العرف ويرادفه الصريح أيضا"[١١].

ولا يخفى أن تعريف الشيخ للنص وهو ثاني حدّي المرتضى، لايُخرج ما أمكن معرفة معناه مما يحتمل أكثر من معنى وهو (الظاهر)، على ما سيأتي من بعض التعاريف. فينبغي الانتباه إلى أن كلمة >نصّ< قد يقصد بها الظاهر في بعض عباراتهم.

٢. الظاهر– لغةً واصطلاح

الظاهر في اللغة البادي بعد خفاء. ففي العين: "الظُهُورُ: بدو

الشيء الخفي"[١٢].

الظاهر في الاصطلاح

من الملفت أن الشريف المرتضى & لم يعرف مصطلح >الظاهر< في رسالته الحدود والحقائق، والذي يظهر من ملاحظة جملة غفيرة من استدلالاته أنه يستعمل لفظ الظاهر في النص تارة وفي غيره أخرى ككثير من العلماء.

وأن الشيخ الطوسي & عرف الظاهر بتعريف لا يختلف في جوهره عن تعريف النص! فقوله"أمّا الظّاهر: فهو ما يظهر المراد به للسّامع، فمن حيث ظهر مراده وصف هو بأنه ظاهر"[١٣]. شامل للفظ محتمل المعاني وغير محتملها.

فيبدو أن المصطلح تبلور وتميز أكثر لاحق ومن هنا جاء تعريف المحقق القمي أكثر تمييز في قوله: "الظاهر ما دل على معنى دلالة ظنية راجحة مع احتمال غيره"[١٤].

أما المشكيني فلما أدخل عنصر قبول التأويل وعدمه فارق بين قسمي المبيّن عرّف الظاهر بأنه "اللفظ الذي له ظهور قابل للتأويل بسبب القرائن كالعام والمطلق ونحوهما"[١٥].

وأما فيما يرتبط بعلوم القرآن ومباحثه فيطلق الظاهر في مقابل الباطن تارةً وفي مقابل النصّ أخرى، والثاني هو المراد في العنوان. ويراد به: اللفظ القرآني المحتمل لأكثر من معنى مع رجحان أحد المعاني.

المراد بانعقاد الظواهر وحجيتها

ويراد بـ(انعقادها)، تمامية دلالة تلك الألفاظ على معانيها على مستوى الدلالة التصورية والمراد الاستعمالي، وبروز أحد المعاني على

أنـه المعنـى الراجـح مـن بيـن المحتمـلات. فيمكـن فهـم تلـك الألفـاظ فهمـ بدويـ فتكـون حينئـذ (ظاهـرة)، بغـض النظـر عـن كونهـا المـراد الجـدي لقائلهـا أم لا، بـل حتـى لـو صـدرت مـن اصطـكاك حجريـن كمـا يعبـرون.

وبـ(حجيتهـا)، تماميـة دلالـة تلـك الألفـاظ علـى معانيها على مسـتوى الدلالـة التصديقيـة والمـراد الجـدي، وكـون تلـك المعانـي الظاهـرة هـي مـراد الله عَزَّوَجَلَّ، حيـث يجـري البحـث فـي إمـكان نسـبتها إلـى الله عَزَّوَجَلَّ، وفـي إمـكان الاسـتناد إليهـا فـي مقـام العمـل تنجيـز وتعذيـر .

ثالث : المجمل و المبين

١. المجمل - لغةً واصطلاحً

المجمـل فـي اللغـة اسـم مفعـول مـن الإجمـال، وهـو فـي الـكلام جَمْعُـهُ واختصـاره دون تفصيـل وإيضـاح.

قـال ابـن دريـد فـي جمهـرة اللغـة: "وأجملتُ الشيء إجمالًا، إذا جمعته عن تفرّقه؛ و أكثر ما يُستعمل ذلك في الكلام الموجز، يقال: أجمل فلان الجوابَ"[١٦]والـكلام الموجـز هـو المختصـر علـى مـا يسـتفاد مـن الخليـل "أمر وَجيز: مختصر، وكلام وَجيز"[١٧].

ويلامـس الاصطـلاح مـا ذكـره الراغـب فـي مفـردات ألفـاظ القـرآن: ".. فقيل لكلّ جماعة غير منفصلة: جُمْلَةٌ، ومنه قيل للحساب الذي لم يفصّل والكلام الذي لم يبيّن: مُجْمَلٌ"[١٨].

المجمل في الاصطلاح

قـال الشـريف المرتضـى & فـي رسـالة الحـدود والحقائـق: "المجمل: الخطاب الذي لا يدل على المراد بنفسه من غير بيان، أو الخطاب الذي قصد به شيء معين في نفسه واللفظ لا يعنيه، وقد يراد به الخطاب

العام للأشياء التي تناولها"[١٩].

وقال الشيخ الطوسي & : "أمّا المجمل فيستعمل على ضربين:

أحدهما: ما يتناول جملة من الأشياء، و ذلك مثل العموم، وألفاظ الجموع، و ما أشبههما، و يسمّى ذلك مجملا لأنّه يتناول جملة من المسمّيات.

والضّرب الآخر: هو ما أنبأ عن الشّيء على جهة الجملة دون التفصيل، ولا يمكن أن يعلم المراد به على التفصيل، نحو قوله: {خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً}[٢٠]"[٢١].

وعرفه المحقق القمي & بقوله: "المجمل ما كان دلالته غير واضحة بأن يتردد بين معنيين فصاعد من معانيه. وهو قد يكون فعلا وقد يكون قولا"[٢٢].

وقد ذكر السيد الخوئي & مفهوم المجمل لغةً مساوٍ بين معناه اللغوي والاصطلاحي. وهو: "ما لا تتّضح دلالته على مراد المتكلّم"[٢٣].

وأما الميرزا علي المشكيني & فقال في اصطلاحات الأصول: "أما المجمل: فهو اللفظ الذي ليس له ظهور بالفعل ولو كان ذلك بسبب اكتنافه بما أوجب إجماله و إبهامه"[٢٤].

وهنا عدة استفادات:

الاستفادة الأولى: يتضح من كلام الشريف المرتضى والشيخ، أن المجمل يطلق ويراد به أحدُ أمرين: الأول يرتبط بفهم المعاني من الألفاظ، والثاني يرتبط بطبيعة تناول اللفظ للمعاني حيث يدل على عموم وما شابه فقد يعبر عن العام بعد التخصيص بأنه باقٍ على إجماله والمراد أنه باقٍ على ظهوره في الشمول.

الاستفادة الثانية: أن أسباب الإجمال في اللفظ قد تنقسم إلى

اثنين: سبب داخلي وهو التردد بين أكثر من معنى، وسبب خارجي وهو اكتناف وإحاطة اللفظ بما يوجب إبهامه كاحتمال القرائن الخارجية. وقد يقال برجوعهما إلى أمر واحد. والإشارة إلى السبب واضحة في تعريفي القمي والمشكيني.

الاستفادة الثالثة: التعاريف الأربعة عدا تعريف المحقق القمي & تناولت ›المجمل‹ كوصف للفظ، وأما المحقق القمي فقد أشار إلى إمكان كونه وصفاً للفعل أيضاً، فقد يعبر عن النقولات الحاكية للأفعال بأنها مجملة ويراد إجمالها من جهة إجمال الأفعال المحكية لا الألفاظ الحاكية.

٢. المبين - لغةً واصطلاحاً

المبين في اللغة اسم مفعول من البيان، وهو الاتضاح والانكشاف.

ويكفي فيه قول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "وبانَ الشيءُ وأَبانَ إذا اتضَحَ وانْكَشَفَ. وفلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فلانٍ، أي أوضَحُ كلاماً منه"[٢٥].

المبين في الاصطلاح

قال الشريف المرتضى & : "المبين: الخطاب الدال على المراد بنفسه عن غير بيان، و ما زال إجماله بورود بيانه، وكذا المفسّر"[٢٦].

وأما الشيخ الطوسي & فقد أطنب في الكلام حول مصطلح ›البيان‹ بعد أن عرف البيان بأنه "عبارة عن الأدلّة الّتي تبيّن بها الأحكام"[٢٧] وناقش في تعاريف القوم. ثم قسم الألفاظ والأفعال إلى ما يحتاج إلى بيان وما لا يحتاج. ويفهم من مجموع كلامه أن المبيّن حينئذٍ -كلاماً كان أم فعلاً- هو: (كل ما وقع عليه التبيين بدليلٍ مبين)، وأن هذا يشمل ما كان ظاهر واضح في نفسه وأُجمل بسبب

عوامل خارجية. إلا أنه لم يطلق على ما دل على المراد بنفسه أنه مبين، بل يظهر منه أنه يعده من الـ>بيان<[٢٨].

وذكر المحقق القمي & النسبة بين المجمل والمبين وأن المبين نقيض المجمل ثم قال في تعريف المبين: "هو ما دلالته على المراد واضحة وهو قد يكون بينا بنفسه، و قد يكون مع تقدم إجمال"[٢٩].

وساوى السيد الخوئي & بين مفهوم المبين لغةً واصطلاحـ بعد أن قال أنه لغةً: "واضح الدلالة"[٣٠] .

وعرفه المشكيني & بأنه: "ما كان ظاهر الدلالة على المعنى المقصود"[٣١].

وهنا استفادتان:

الاستفادة الأولى: تجمع كلماتهم على انقسام المبين إلى قسمين ما كان واضحـ بنفسه وما كان واضحـ بعد التبيين، وإن كان فهم ذلك من عبارة الشيخ مُشكلاً.

الاستفادة الثانية: إذا كان من أقسام المبين -بفتح العين- ما هو واضح الدلالة بنفسه فكيف يقع عليه اسم المفعول؟ يفهم ذلك من كلام صاحب القوانين، من أنه"إما مسامحةٌ وإما لأنه من باب ضيّق فم الركية فإن أهل اللغة وضعوه مبينا"[٣٢].

رابع : المحكم والمتشابه

١. المحكم - لغةً واصطلاحـ

المحكم في اللغة الموثّق والممتنع.

في العين: "أَحْكَمَ فلان عني كذا، أي: منعه.. واسْتَحْكَمَ الأمر: وثق[٣٣] (...) وحَكَمَة اللجام: ما أحاط بحنكيه، سمي به لأنها تمنعه من الجري. وكل شيء منعته من الفساد فقد [حَكَمْتَه] وحَكَمْتَه وأَحْكَمْتَه"[٣٤].

المحكم في الاصطلاح

يطلق المحكم على أمور متعددة، فذكر الشريف المرتضى معنيين: "أما المتقن الصنعة في الفصاحة، وأما الذي لا يحتمل تأويلين مشتبهين ولا يمنع العقل من ظاهره"[٣٥].

وعرفه الشيخ الطوسي بأنه: "ما لا يحتمل إلا الوجه الواحد الّذي أريد به. [ويشير إلى التناسب مع المعنى اللغوي بأن المحكم] وصف محكما لأنّه قد أحكم في باب الإبانة عن المراد"[٣٦].

واكتفى المحقق القمي بنقل كلامي العلامة الحلي والشيخ البهائي: والذي خلاصته أن المحكم هو: الحد المشترك بين النص والظاهر وهو مطلق الرجحان سواء منع من النقيض أم لا[٣٧].

وقال المشكيني بأنه مساوق للمبين[٣٨].

فاتضح أنه قد يعبر بالمحكم ويقصد ما احتمل معنى واحد ومنع من غيره وقد يقصد به ما احتمل أكثر من معنى مع رجحان أحدهما.

٢. المتشابه - لغةً واصطلاحً

المتشابه لغةً المشكلُ والمختلط والمتساوي.

في العين: "قال الله عز وجل: {آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ}[٣٩]، أي: يُشْبِهُ بعضها بعضا. والمُشْبِهات من الأمور: المشكلات (...) و شُبهَ فلان علىّ، إذا خلط. و اشتَبَهَ الأمر، أي: اختلط"[٤٠]. وفي المحيط: "المُشَبهَاتُ [٤١]: المُشْكِلاتُ، شَبهْتُ عليه: أي خَلطْتُ. واشْتَبَهَ الأمْرُ.. وكُل شَيْءٍ سَوَاءٍ فإنها أشْبَاه "[٤٢]. وأضاف في الصحاح: "المُتشابِهاتُ: المُتَمَاثِلاتُ"[٤٣].

المتشابه اصطلاح

ذكر الشريف المرتضى & معنيين للمتشابه وقال: "إما المتساوي في الأحكام في الفصاحة وحسن المعنى، وإما الذي يحتمل تأويلين مشتبهين احتمالا شديدًا وظاهره يوضع لما يمنع منه العقل وأحد تأويليه يحظره العقل"[٤٤].

وأما الشيخ الطوسي & فقال: "وأمّا المتشابه: فهو ما احتمل وجهين فصاعدا"[٤٥]. فهل يريد ما احتمل وجهين وإن كان أحدهما أرجح، فيكون الظاهر عنده من المتشابه؟ يحتمله.

ويحتمله تعريف السيد الخوئي & حيث عرّفه بـ"الّذي يتشابه طرفاه بمعنى أنّ له معنيين يمكن أن يحمل عليهما"[٤٦]. إلا أنه قال ضمن جوابه على كون الظاهر من المتشابه، أن المراد من المتشابه"كون الكلام ذا احتمالين متساويين"[٤٧].

واكتفى المحقق القمي & بنقل كلامي العلامة الحلي والشيخ البهائي: "والذي خلاصته أن المتشابه هو: الحد المشترك بين المجمل والمؤول وهو نفي الرجحان"[٤٨].

وكما ساوى المشكيني بين المحكم والمبين فقد ساوى بين المتشابه والمجمل بقوله: "وأما المحكم والمتشابه، فالأول يساوق المبين والثاني يساوق المجمل"[٤٩].

وهنا استفادتان:

الاستفادة الأولى: هل الظاهر من المتشابه؟

قد يقال أن (الظاهر) من (المتشابه) ؛ لأن المتشابه ما كان ذا احتمالين في قبال المحكم الذي هو النص الذي لا يقبل الخلاف فيشمل الظواهر. وردّه السيد الخوئي بأن المتشابه ما كان ذا احتمالين

متساويين فهو يساوي المجمل، وليس الظاهر ذا احتمالين متساويين فليس الظاهر متشابها[٥٠].

الاستفادة الثانية: قد يطلق المتشابه على المجمل وقد يطلق ويراد به المؤول، أما إرادة المجمل فقد تقدمت عن السيد الخوئي في الملاحظة الأولى.

وأما إرادة المؤول فقال الفاضل التوني بما ظاهره مساواة المتشابه للمؤول. بمعنى أن المتشابه له معنى لكنه غير الظاهر، فليس مجملاً. ويستدل على ذلك، بعدم تعقّل اتباع مالا يفهم منه شيء. حيث قال في وافيته: "الظاهر: أنّ (المحكم) ما أريد منه ظاهره، و(المتشابه) ما أريد منه غير ظاهره. لا ما ذكروه في كتب الأصول من: أنّ (المحكم) ما له ظاهر، و (المتشابه) ما لا ظاهر له، كالمشترك. لقوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ...الآية}[٥١]، إذ اتّباع المتشابه بالمعنى الّذي ذكروه، غير معقول"[٥٢].

خامس : المفسّر والمؤول (التفسير والتأويل)

١. المفسّر - لغةً واصطلاح

المفسّر في اللغة اسم مفعول من التفسير وهو البيان وكشف المغطى.

قال الخليل"الْفَسْرُ: التَّفْسِيرُ، وهو بيان وتفصيل للكتاب"[٥٣].

وذكر الأزهري في تهذيب اللغة: "الفَسرُ: كشف المغطى. وقال بعضهم: التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل"[٥٤].

المفسّر في الاصطلاح

رادف الشريف المرتضى & بين المفسر والمبين فقال: "المبين الخطاب الدال على المراد بنفسه عن غير بيان، وما زال إجماله بورود

بيانه، وكذا المفسر"[٥٥].

وحد الشيخ الطوسي & المفسّر بما حد به النص[٥٦]، فقال: "أمّا المفسّر: فهو ما يمكن معرفة المراد به"[٥٧]. ويفهم من كلامه أن وجه تسميته بالمفسر من باب المجاز أو المسامحة حيث قال بعد التعريف: "وهو موضوع في الأصل لما له تفسير، لكنّه لما كان ما له تفسير يعلم بتفسيره مراده، وكان ما يعلم المراد به بنفسه بمنزلته سمّي مفسّرا"[٥٨].

واعتمد القمّي & ما نقله عن الطبرسي & [٥٩] من أن التفسير هو: "كشف المراد عن اللّفظ المشكل"[٦٠].

٢. المؤول - لغةً واصطلاح

المؤول في اللغة اسم مفعول من التأويل وهو تحديد معنىً للفظ مشكلٍ محتملٍ لمعان متعددة، أو إرجاع معان متعددة محتملةٍ إلى معنى واحد واضح.

"التأوُل والتأْوِيلُ: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، و لا يصح إلا ببيان غير لفظه" هكذا جاء في العين[٦١].

وفي تهذيب اللغة: "سُئل أحمد بن يحيى عن ‹التأويل› فقال: التأويل والتغيير، واحد(...) أُلت الشيء: جَمَعْتُه وأَصْلَحته، فكأن ‹التأويل› جَمْع معانٍ مُشكلة بلفظ واضح لا إشكال فيه[٦٢]. (...) والأَوْلُ الرجوع"[٦٣]. ونَقَلَ عن بعضهم أن"التأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"[٦٤]. ويبدو أنه ناظر إلى الاصطلاح.

التأويل والمؤول في الاصطلاح

قال الشريف المرتضى & : "التأويل: رد أحد المعنيين وقبول معنى آخر بدليل يعضده، وإن كان الأول في اللفظ أظهر"[٦٥]. ويظهر من كلام

لـه فـي الذريعـة أن التأويـل يحتمـل ذكـر أكثـر مـن معنـى علـى أن تكـون راجعـة إلـى نكتـة مشـتركة[٦٦].

ويظهـر مـن قـول الشـيخ الطوسـي & فـي التبيـان: "ولا ينبغي لأحد أن ينظر في تفسير آية لا ينبئ ظاهرها عن المراد تفصيلا، أو يقلد أحد من المفسرين، إلا أن يكون التأويل مجمع عليه..." إلـى آخـر كلامـه حيـث يستعرض ضوابط (التأويـل)[٦٧]، أن التأويـل هـو: (القـول بمعنـى للفـظ لا يـدل عليـه بنفسـه لا بالصراحـة ولا بالظهـور).

وقـال القمـي & : "المؤول فهو في الاصطلاح اللفظ المحمول على معناه المرجوح[٦٨] ولم يقترن بقرينة دالة على خلاف ما وضع له اللفظ"[٦٩].

وبينـه المشـكيني & قائـلاً: "أما المؤول: فهو اللفظ الذي خرج عن ظهوره الذاتي وأريد منه خلاف ظاهره بواسطة القرينة"[٧٠].

وهنا استفادتان:

الاستفادة الأولى: هل المجاز من المؤول؟

قيـل إن المجـازات كلهـا مـن بـاب المـؤول وفـرق بينهمـا الشـيخ القمـي بـأن المجـاز مـا اقتـرن بالقرينـة الدالـة علـى خـلاف مـا وضـع لـه اللفـظ والمـؤول مـا لـم يقتـرن بهـا[٧١].

الاسـتفادة الثانيـة: المـؤول يشـمل العـام المخصـص والمطلـق المقيد: وبينـه المشـكيني قائـلاً: "أما المؤول: فهو اللفظ الذي خرج عن ظهوره الذاتي و أريد منه خلاف ظاهره بواسطة القرينة، فيدخل فيه كل لفظ علم استعماله في غير ما وضع له بقرينة حالية أو مقالية. فمنه: العام الذي علم تخصيصه، والمطلق الذي علم تقييده"[٧٢]. ويعلـم مـن قولـه هـذا، أن المجـاز مـن المـؤول أيضًـا.

تنبيهات عامّة

التنبيه الأول: هل صفات الأدلة والألفاظ السابقة نسبية تختلف من شخص إلى آخر، أم هي حقيقية راجعة لنفس الألفاظ؟

قال النائيني + : "رب لفظ يكون مبينا عند شخص ومجملًا عند آخر من جهة علم الأول بالوضع دون الثاني أو من جهة احتفاف الكلام بما يصلح لكونه قرينة عند الثاني دون الأول"(٧٣).

التنبيه الثاني: هل هي إضافية أم حقيقية؟

قال القمي: "اعلم أنّ النصوصيّة والظهورية أمور إضافيّة فقد ترى الفقهاء يسمّون الخاصّ نصّا والعامّ ظاهرا وقد يطلقون القطعيّ على الخاصّ والظني على العامّ مع أنّ الخاصّ أيضا عامّ بالنسبة إلى ما تحته مع احتمال إرادة المجاز من الخاصّ أيضا من جهة أخرى غير التّخصيص وكونه ظاهرا بالنسبة إلى المعنى المجازي"(٧٤).

التنبيه الثالث: قد يكون الكلام مبينا واضحا من جهة مجملًا من جهات، ويضربون لهذا مثالًا قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ}(٥٧)، فإنها وإن كانت مبينة من جهة الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما من الموضوعات الشرعية، بل قد يقال بأنها واضحة في وجوبها أيضا ، إلا أن كيفيات هذه الأمور وما يرتبط بها تبقى مجملة، فكيفية الإقامة والإيتاء لا تتضحان من هذه الألفاظ(٧٦).

خلاصة التقسيمات: "اللفظ: إن لم يحتمل غير ما يفهم منه لغة فنصّ، و إلا فالراجح ظاهر، والمرجوح مأوّل، والمساوي مجمل، والمشترك بين الأوّلين محكم (٧٧)، و بين الأخيرين متشابه"(٧٨).

وقيل غير ذلك.

***

الهوامش

(١) العمـوم المطلـق: هـو اشـتمال أحـد المفهوميـن علـى جميـع مـا يشـتمل عليـه الآخـر مـن مصاديـق وزيـادة فيكـون أوسـع معنـى منـه . والعمـوم مـن وجـه: هـو أن يشـترك أحـد المفهوميـن مـع الآخـر فـي بعـض مصاديقهمـا ويفتـرق معـه فـي البعـض الآخـر.

(٢) الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٠٦.

(٤) راجـع، العلامـة الحلـي، الحسـن بـن يوسـف، نهايـة الوصـول الـى علـم الاصـول، ج١، ص٣٣١.

(٥) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٧، ص٨٧.

(٦) ابن دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، ج١، ص١٤٥.

(٧) الشـريف المرتضـى، علـي بـن الحسـين الموسـوي، رسـائل الشـريف المرتضـى، ج٢، ص٢٨٧.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٨٨.

(٩) الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٧.

(١٠) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص١٦٤.

(١١) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول و معظم أبحاثها، ص٢٣٢.

(١٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٤، ص٣٧.

(١٣) الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٨.

(١٤) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص٣٤٥.

(١٥) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول و معظم أبحاثها، ص٢٣٢.

(١٦) ابن دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، ج١، ص٤٩١.

(١٧) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٦، ص١٦٦.

(١٨) الراغب، الإصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٢.

(١٩) الشـريف المرتضـى، علـي بـن الحسـين الموسـوي، رسـائل الشـريف المرتضـى، ج٢، ص٢٨٢.

(٢٠) سورة التوبة، ١٠٣.
(٢١) الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٦.
(٢٢) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص٣٣٢.
(٢٣) الخوئي، أبو القاسم، غالآيةالمأمول، ج١، ص٧٠٩.
(٢٤) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول و معظم أبحاثها، ص٢٣٢.
(٢٥) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغه، ج١، ص٣٢٨.
(٢٦) الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، رسائل الشريف المرتضى، ج٢، ص٢٨٢.
(٢٧) الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٣.
(٢٨) راجع الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٣- ص ٤١٥.
(٢٩) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص٣٤٠.
(٣٠) "المجمل لغة ما لا تتّضح دلالته على مراد المتكلّم والمبيّن واضح الدلالة، فمفهومهما من المبيّنات، والظاهر أنّ معناهما في اللغة هو معناهما بحسب الاصطلاح"، الخوئي، أبو القاسم، غاية المأمول، ج١، ص٧٠٩.
(٣١) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول و معظم أبحاثها، ص٢٣٢.
(٣٢) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص٣٤٠.
(٣٣) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٣، ص٦٦.
(٣٤) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٣٥) الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، رسائل الشريف المرتضى، ج٢، ص٢٨٦.
(٣٦) الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٨.
(٣٧) راجع، الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص١٦٣.
(٣٨) راجع، المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول ومعظم أبحاثها، ص٢٣٢.
(٣٩) سورةآل عمران، الآية٧.
(٤٠) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٣، ص٤٠٤.
(٤١) قال محقق المحيط، "هكذا ضُبطت الكلمة في الأصلين، ومثلهما في

المقاييس والمحكم، وفي العين والتهذيب،
المُشْبِهات، وفي الصحاح و اللسان، المُشْتَبِهات، وفي الأساس، المشبهات، وفي القاموس، كمعظمة.

(٤٢) الصاحب بن عباد، اسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، ج٣، ص٣٩٦.
(٤٣) الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح، ج٦، ص٢٢٣٦.
(٤٤) الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، رسائل الشريف المرتضى، ج٢، ص٢٨٦.
(٤٥) الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٨.
(٤٦) الخوئي، أبو القاسم، غاية المأمول، ج٢، ص١١٩.
(٤٧) الخوئي، أبو القاسم، مصباح الأصول، ج١، ص١٤٤.
(٤٨) راجع، الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمد حسن، قوانين الأصول، ص١٦٣.
(٤٩) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول و معظم أبحاثها، ص٢٣٢.
(٥٠) الخوئي، أبو القاسم، مصباح الأصول، ج١، ص١٤٤.
(٥١) سورة آل عمران، الآية٧.
(٥٢) التوني، عبدالله بن محمد، الوافية في أصول الفقه، ص١٣٨.
(٥٣) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٧، ص٢٤٧.
(٥٤) الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ج١٢، ص٢٨٣.
(٥٥) الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، رسائل الشريف المرتضى، ج٢، ص ٢٨٢.
(٥٦) الطوسي، محمد بن الحسن، العدة في أصول الفقه، ج١، ص٤٠٧.
(٥٧) المصدر نفسه.
(٥٨) المصدر نفسه.
(٥٩) في الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ج ١، ص ١١.
(٦٠) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمد حسن، القوانين المحكمة في الأصول، الطبعة القديمة، ج٢، ص٣١٧.
(٦١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٨، ص٣٦٩.

(٦٢) الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، طبع بيروت، ج١٥، ص٣٢٩.
(٦٣) المصدر نفسه، ص٣١٤.
(٦٤) المصدر نفسه، ج١٢، ص٢٨٣.
(٦٥) الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، رسائل الشريف المرتضى، ج٢، ص٢٦٥.
(٦٦) الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، الذريعة إلى أصول الشريعة، ج٢، ص: ١٦٤.
(٦٧) الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص٦.
(٦٨) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، (ط.القديمة)، ص٣٤٥.
(٦٩) المصدر نفسه، ص٣٤٦.
(٧٠) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول ومعظم أبحاثها، ص٢٣٢.
(٧١) راجع الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص٣٤٦.
(٧٢) المشكيني، ميرزا علي، اصطلاحات الأصول ومعظم أبحاثها، ص٢٣٢
(٧٣) النائيني، محمد حسين، أجود التقريرات، ج١، ص٥٤٣.
(٧٤) الميرزا القمي، أبو القاسم بن محمدحسن، قوانين الأصول، ص١٦٧.
(٧٥) سورة البقرة، الآية٤٣.
(٧٦) راجع، المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، ج٢، ص١٥٩.
(٧٧) وهو مطلق الرجحان سواء منع النقيض أم لا.
(٧٨) الشيخ البهائي، محمد بن الحسين، زبدة الأصول، ص٥٥.

أسباب النزول

الشيخ محمد علي الخاتم

تمهيد

لا شك في ارتباط قسم من القرآن بأحداث قد حصلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله، سواءً كانت حادثةً أو سؤالاً أو ظرفاً خاصاً، أي أن الآيات كان نزولها في ظرف من الظروف التي كان يعيشها المسلمون ويحتاجون بإلحاح إلى مضامين تلك الآيات النازلة سواء كانت حاجتهم لتطبيق تلك المضامين على المستوى العقدي أم العملي، ومثال الأول ما ورد في قتل أسامة بن زيد يهودياً كان قد أظهر له الإسلام، فنزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ}[1]، وكذا في حادثة مسجد ضرار، ومثال الثاني ما نزل في النضر بن الحارث[2]، حين قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله وأنزل الله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}. فدعا على نفسه وسأل العذاب فنزل به ما سأل يوم بدر فقتل صبراً[3]، وكذا[4] ما ورد في {...قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}[5]، ومثال الثالث ما نزل من سورٍ في أيام الدعوة الأولى حيث تضمّنت رسماً لأساسيات الإسلام وبيان جملة من أحكامه

المهمّة لمن يدخل في الإسلام كما في سورة البقرة حيث تضمّنت عدد من أحكام الصيام والحج وتغيير القبلة وعدد من الأفكار التي تساعد المسلمين في مواجهة اليهود، وكذا سورة النساء حيث كانت تتحدّث عن أحكام الزواج وإرث المرأة وغيرها من الأمثلة.

ولا شك في أن الكلام الملقى ضمن حادثة معيّنة ومن متحدّث معين لا بد من أن يكون له فهم خاص يتأثّر بتلك الظروف والملابسات المتعلقة به، فمثلاً في قوله تعالى: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(٦)، ذم لكل من يفرح بما أوتي ولكل من يفرح في أن يُحمد على ما لم يفعل! وواضح أن هذا الفهم يؤدّي إلى خسران كل الناس وعذابهم وهو خلاف رحمته تعالى فلو وقفنا عند هذه الآية لوحدها لكان التشكيك بصحتها لا يفارقها، لكن لمّا علمنا عن اختصاصها بالمنافقين زال عنها ذلك لما ورد عن أبي جعفر عليه السلام من أنّها نزلت في المنافقين الذين يحبّون أن يُحمدوا على غير فعل(٧).

وكذا قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}(٨) فهي بظاهرها تفيد جواز التوجّه في الصلاة إلى أي جهة، والحال أنّا لو وقفنا على سبب نزولها لوجدنا أنّها نزلت في غير الفريضة كالنافلة والسجود لسماع آية السجدة لما ورد من أنّ النّبي صلى الله عليه وآله صلّى على راحلته، في رحلته من مكة إلى المدينة وحين خرج إلى خيبر حيث جعل الكعبة خلف ظهره وصلّى التطوّع إيماءً(٩).

ومن خلال ما ذكرنا يتّضح أن معرفة هذه الملابسات المتعلّقة بالآيات لها ما لها من الدخالة في تحديد فهم الآية أو لا أقلّ فإنّها: "تشكّل -وبشكل عام- قرينة لفهم القرآن بما هو كلام الله تعالى ذو معنى نزل متناولاً هذه الأحداث ومبيّن لأسبابها وعلاجها"(١٠).

ومن هنا ذهب أبو الحسن بن أحمد الواحدي (٤٦٨هـ) في كتابه(١١) إلى

المنع عن الادعاء عن فهم الآيات من دون الوقوف على قصّتها وبيان سبب نزولها، فقال في مقدّمة كتابه: "فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئين بعلوم الكتاب، إبانة ما أنزل فيه من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصّتها وبيان نزولها... ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلاب"[١٢].

ولذا نلحظ المفسّرين للقرآن الكريم لا مفرّ لهم من تتبّع أسباب النزول من أحداث أو روايات منقولة عن الشاهد الحاضر، بل جعل البعض معرفة أسباب النزول شرط من شروط المفسّر وأحد معايير أهليّته للتفسير[١٣].

تعريف أسباب الـ ول

وما كنّا نعبّر عنه بالملابسات والأحداث والظروف التي كانت ترتبط بآي الذكر الحكيم هي ما يعبّر عنه بأسباب النزول، أو فقل "القرآن بوصفه مرتبط بوقائع معيّنة في عهد النبي صلّى الله عليه وآله فيكون موضوع لعلم أسباب النزول"[١٤].

وعندئذ ليس لنا غرض في الحديث عن قصص الأنبياء -مثلاً- لخروجها عن هذا العلم، "فلا يمكن أن نعتبر من حياة يوسف [على نبيّنا وآله وعليه السلام] وتآمر أخوته عليه ونجاته وتمكّنه منهم سبب لنزول سورة يوسف، وهكذا سائر المقاطع القرآنيّة التي تتحدّث عن الأنبياء الماضين وأممهم"[١٥].

أول مصنّف في أسباب الـ ول

بعد انتقال الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى آلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب على نفسه ألّا يضع رداءه على عاتقه إلا للصلاة حتى يؤلّف القرآن ويجمعه، وكان ما أراد فخرج إلى القوم بعد مدّة قضاها يجمع القرآن حتى دخل مسجد الرسول صلّى الله عليه وآله ليكشف عن القرآن الذي جمعه ويعرضه عليهم،

لكنّهم لمّا علموا بما فيه أعرضوا عنه وجابهوه حتى خرج من المسجد ليخفي هذه النسخة من القرآن.

لك أن تسأل ماذا يحتوي هذا القرآن؟ والجواب هو أنّ من أهمّ ما ورد فيه التنزيل؛ أي بيان أسباب النزول للآيات والمصاديق[١٦] وغيره مما حُرمت الأمّة منه إلى يومنا هذا، يقول محمد بن سيرين فيما نقله عنه ابن حجر في صواعقه وغيره[١٧]: "لمّا توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله أبطأ عليّ عن بيعة أبي بكر، فلقيه أبو بكر فقال: أكرهت إمارتي فقال: لا، ولكن آليت لا أرتدي بردائي إلا إلى الصلاة، حتى أجمع القرآن، فزعموا أنّه كتبه على تنزيله -هنا قال محمد بن سيرين- لو أصبت ذلك الكتاب[١٨] كان فيه العلم"[١٩].

فمما ذكرنا يمكننا القول بأنّ مصحف عليّ بن أبي طالب عليه السلام بما احتواه يعتبر أول مصنف في علم أسباب النزول وإن لم يكن مصحفه خالص لذلك، لاشتماله على غيرها.

ولا ينكر هنا أن من أقدم الكتب التي وصلت إلينا في هذا العلم هو كتاب (أسباب النزول)، للواحدي[٢٠] (ت ٤٦٨هـ) وهو كتاب جمع فيه أسباب النزول مرتبة على ترتيب سور القرآن، مروية بالإسناد غالبا وقد اعتمد على كتاب الواحدي من جاء بعده ممن ألف في أسباب نزول القرآن.

وقد سبق الواحدي في التأليف أبو الحسن ابن المديني(ت٢٣٤هـ) شيخ البخاري فكتب أسباب النزول، ومن بعده أبو مطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس القرطبي (ت ٤٠٢ هـ).

ما هي مصادر أسباب النزول:

لو لم يحجب مصحف علي عليه السلام لقلنا بأنّه أول مصدر بين أيدينا لمعرفة أسباب النزول، لكن مع غيابه عنّا، فإن هنا مصدران:

المصدر الأول: نقل الصّحابة: ويشترط في الصحابيّ:

١. أن يكون ممن شهد الوحي والتنزيل لا أنّه سمع، إلا أن يكون قد سمع من الرسول صلى الله عليه وآله أو مسند إليه صلى الله عليه وآله بطريق مقبول.

٢. العدالة وإلا فإنّ الباب مفتوح لقبول كل من تحدّث في أسباب النزول ويكون عندئذ باب واسع للقصّاصين وغيرهم ممن ينسجون الأحداث ويدخلون الإسرائيليات على أنّها أسباب للنزول.

وهناك شرط في المرويّ وهو أن يكون جاري مجرى بيان أن سبب النزول كما لو عبّر بمثل (حدث كذا فنزلت الآية... أو سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن كذا فأنزل الله كذا...).

فبضمّ هذه الشروط لما تقدّم قد قيل بأنّ الطريق منحصر في الصّحابة، لأنّ "معرفة أسباب النزول أمرٌ يحصل للصحابة بقرائن بالقضايا، وربما لم يجزم بعضهم، فقال: أحسبُ هذه الآية نزلت في كذا..."[٢١] فـ"إذا أخبر الصّحابيّ الذي يشهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن: أنّها نزلت في كذا، فإنّه حديث مسند.."[٢٢].

المصدر الثاني: المعصوم عليه السلام: هذا المصدر للأسف لا يعتنى به كثير فقد وردت روايات ليس عددها بالقليل عن الأئمة الطاهرين ^ تذكر أسباب النزول لجملة من الآيات الشريفة وهذه الروايات نجدها مبثوثة في كتب التفسير الحديثية وقد نجد بعضها في الموسوعات الحديثية[٢٣]، وهذه لا تحتاج إلا إلى النظر في أسانيدها. وأكتفي بنقل بعض منها.

*ورد عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في قول الله عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}[٢٤]، قال نزلت في عليّ عليه السلام حين بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله[٢٥].

*ورد في تفسير الإمام العسكري عليه السلام: >قال الباقر عليه السلام: فلما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ}[٢٦]، وذكر الذباب في قوله: {إِنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً}[٢٧]، ولما قال {مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[٢٨]. وضرب المثل في

هذه السورة بالذي استوقد نارا، وبالصيب من السماء.

قالت الكفار والنواصب: وما هذا من الأمثال فيضرب؟! يريدون به الطعن على رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال الله: يا محمد (إن الله لا يستحي) الحديث<[٢٩].

*ورد في تفسير الإمام العسكري عليه السلام >قال الله عز وجل لقوم من مردة اليهود ومنافقيهم المحتجنين[٣٠]، الأموال الفقراء، المستأكلين للأغنياء الذين يأمرون بالخير ويتركونه، وينهون عن الشر ويرتكبونه، قال: يا معاشر اليهود {تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ} الحديث<[٣١].

ضياع بعض أسباب النزول

للأسف الشديد جد لم تكن روايات أسباب النزول مستثناة من أيدي العابثين في الدين فكان لها نصيب من الضياع في صور مختلفة:

١- خفاء بعض روايات أسباب النزول بسبب الحقد على أهل البيت ^ فـ"هذا العداء والتعصّب كان سببا لكتمان الكثير من أسباب النزول المرتبطة بأهل البيت ^ "[٣٢]، وخير مثال الآية ٢٠٧ من سورة البقرة المتقدمة فإنّها نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وعندما تراجع كتب التفسير والكتب التي تتحدّث عن أسباب النزول فإنّك لا تجد لعلي عليه السلام أدنى ذكر! مع أنّهم قد اعتبروها نازلة في ثلاثة وفئة وليس فيهم علي عليه السلام، فمنهم من قال بنزولها في حق صهيب (أبو يحيى) وهو شيخ كبير في السن وقع في أيدي المشركين فعذّبوه ومنعوه من الالتحاق بالرسول صلى الله عليه وآله فما كان له إلا أن يدلّهم على ماله في مكة مقابل إطلاقه... وكان ذلك، فلمّا وصل إلى الرسول صلى الله عليه وآله قال له صلى الله عليه وآله: نعم البيع بيعك[٣٣]. ومن قال بنزولها في صهيب وشخصين آخرين هما أبو ذر وجندب بن السكنى[٣٤]، ومن قال بنزولها في من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر اعتماد على قول عمر بن الخطاب لها عندما سمع رجلاً يقرؤها قال: إنّا لله قام رجلٌ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل[٣٥] بل ذهب أكثر المفسّرين إلى أن نزولها كان في صهيب[٣٦].

٢- دخول الإسرائيليات فقد "كان بعض الصحابة والتابعين يعتمدون على الإسرائيليات في تفسير القرآن وهذا سبب مشكلة في إتاحة الفرصة لمن أسلم من أهل الكتاب أن يختلق ما ليس موجود حتى في التوراة والإنجيل، فظهرت حركة اتّخذت من سرد الحوادث التاريخية حرفة خاصّة، وبرزت الإسرائيليات التي تتحدّث عن أحداث وهميّة"[٣٧] وهذا ما سبب فتح الباب على مصراعيه لتنتشر العدوى إلى المسلمين فنجد بعض الرواة "لا ينقل السبب من طريق المشافهة والتّحمّل والحفاظ، بل ينقل قصّةً ما ثم يحمل الآيات عليها حملًا ويربطها ربط ، وفي الحقيقة سبب النزول الذي يذكره إنّما هو سبب اجتهاديّ نظري وليس بسببٍ شاهده بالعيان وضبطه بحدوده الدقيقة والشاهد على ما نقول التناقض الكثير في هذه الأحاديث ونعني به أن الآية الواحدة يذكر فيها عدّة أحاديث في أسباب النزول يناقض بعضها بعض ولا يمكن جمعها بشكل من الأشكال... ولهذا لا يمكن الاطمئنان حتى على الأحاديث التي أسانيدها صحيحة، لأن صحّة السند يرفع الكذب عن رجال السند أو عدم تضعيفهم، ولكن احتمال الدس أو إعمال النظر الخاص يبقى لحاله"[٣٨]، ولذا لا بد من محاكمة روايات النزول وعرضها على القرآن وردّ المدسوس منها وطرحها.

واكتفي بمثالٍ لما نقطع بأنّه مدسوس مع وثاقة رجال سنده[٣٩]، ما جاء عن الواحدي "أن رسول الله كان إذا برز سمع مناديًا يناديه يا محمد صلى الله عليه وآله، فإذا سمع الصوت انطلق هاربا وقال له: ورقة بن نوفل إذا سمعت النداء فأثبت حتى تسمع ما يقول لك، قال: فلما برز سمع النداء، يا محمد صلى الله عليه وآله فقال لبيك قال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، ثم قال: {الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} حتى فرغ من فاتحة الكتاب"[٤٠].

ووجه القطع هو مما ثبت في مثل ما عن زرارة أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام: **<كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قِبَل الله أن يكون مما ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه>**[٤١].

٣- الوضع لأغراض مرحليّة بسببه يضيع السبب الحقيقي أو يجمله فيحرف البوصلة عن الفهم الصحيح للآية.

فمثلاً ما ورد في سنن الترمذي بسنده عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منّا، وحضرت الصلاة فقدّموني فقرأتُ: قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون. قال: فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}[٤٢][٤٣]، وقال فيه حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب. وذكر مثله الواحدي مع اختلاف يسير وعدم ذكر لاسم علي بن أبي طالب[٤٤].

وكل من يعرف شيئاً عن عليّ بن أبي طالب لا يتردد في إنكار هذا الحديث والجزم بوضعه لأغراض يعرفها المطّلعون على التاريخ، والغريب أنّ بعضهم يجعله دليلاً على أن <الخمر لم تكن محرّمة في صدر الإسلام، وقد كان الصحابة يشربونها وربما سكروا منها كما جاء صريحاً> وذكر الحديث[٤٥].

مسائل في أسباب النزول

وما يلحظ من خلال البحث في أسباب النزول أن يقف الباحث عند جملة من المسائل التي لا بد من تحريرها وبيان الحق فيها حتى لا يحصل الزيغ في هذا الأمر فتحتاج إلى بحث ووضع الضوابط فيها، وأشير إلى بعض منها على نحو الإجمال مكتفياً بالإشارة فقط تاركاً التفصيل إلى بحث أوسع إن شاء الله تعالى.

من هذه المسائل: الخلط بين السبب والإخبار، تعدد الأسباب للآية الواحدة، التنافي بين سبب النزول مع الآية، وغيرها من المسائل التي يمكن إدراجها.

وأكتفي بالتمثيل إلى المسألة الأولى ملحوظة عند بعضهم -حتى المتعمّقون في هذا الفن- فإنّك تجدهم يخلطون بين السبب والإخبار في بعض المواضع؛ فلا يفرّقون في الروايات التي تذكر أسباب النزول والروايات التي تُذكر على

أنها إخبار بالماضي، وللتمثيل على هذا قول الواحدي في سورة الفيل أنها نزلت في قصة أصحاب الفيل، فقال: >**نزلت في قصّة أصحاب الفيل، وقصدهم تخريب الكعبة، وما فَعل الله تعالى بهم: من إهلاكهم وصرفهم عن البيت. وهي معروفة**<(٤٦) فتعقّبه السيوطي في كتابه مشير إلى هذا الخلط فقال: >**والذي يتحرر في سبب النزول أنّه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أنّ سببها قصّة قدوم الحبشة، فإنّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار به عن الوقائع الماضية...**<(٤٧).

هذه إطلالة مجملة على هذا العنوان. أسأل المولى القدير أن يوفقنا لبسطه.

***

الهوامش

(١) كما في تفسير القمي، ج١، ص١٥٦. وننقل الرواية للفائدة >قوله {يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا} فإنها نزلت لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة خيبر وبعث أسامة بن زيد في خيل إلى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الإسلام، وكان رجل من اليهود يقال له مرداس بن نهيك الفدكي في بعض القرى فلما أحس بخيل رسول صلى الله عليه وآله جمع أهله وماله وصار في ناحية الجبل فاقبل يقول أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله، فمر بأسامة بن زيد فطعنه فقتله، فلما رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر بذلك فقال له رسول صلى الله عليه وآله قتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فقال يا رسول الله إنما قال تعوذ من القتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فلا شققت الغطاء عن قبله ولا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في نفسه علمت، فحلف بعد ذلك أنه لا يقتل أحد اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، فتخلف عن أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه، وأنزل الله في ذلك {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا.. الخ}.

(٢) هنا سؤال إلى الله تعالى ذكره.

(٣) كما عن الواحدي في أسباب النزول، ص٤٦٦، حديث٨٣٩، تحقيق: كمال بسيوني زغلول.

(٤) سؤال موجّه للنبيّ صلى الله عليه وآله وقد اقتضت الحكمة الإلهية بجواب خاص نزل في هذه الآية.

(٥) سورة الإسراء: ٨٥.

(٦) سورة آل عمران: ١٨٨.

(٧) تفسير القمّي، ١ج، ص١٣٥. وكذا في تفسير أساب النزول للواحدي صفحة١٤٠ عن أبي

سعيد الخدري: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو تخلّفوا عنه، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا؛ فنزلت: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا} الآية.

(٨) سورة البقرة: ١١٥.

(٩) كما ورد في تفسير العياشي، ج١، ص٧٥، حديث٨٠: >قال أبو جعفر عليه السلام: أنزل الله هذه الآية في التّطوّع خاصّة {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}، وصلّى رسول الله ﷺ إيماءً على راحلته أينما توجّهت به حين خرج إلى خيبر وحين رجع من مكة وجعل الكعبة خلف ظهره<، هذا من طرقنا أما من طرق العامة فهذا السبب أحد الآراء لاختلافهم في سبب نزولها.

(١٠) تفسير سورة الحمد، السيد محمد باقر الحكيم، ص٢٠.

(١١) المسمّى بأسباب النزول، وقد قال عنه السيوطي في كتابه أسباب النزول صفحة ٩ >أشهر كتاب في هذا الفن<.

(١٢) أسباب النزول، الواحدي، ص١٠.

(١٣) كما في تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج١، ص٢٤، ناقلاً عن الزمخشري قوله: >إن العلماء... بيّنوا في المفسّر أيضاً شرائط، لا يحلّ التعاطي لمن عري عنها، أو هو فيها ضالع، وهي أن يعرف خمسة عشر علماً على وجه الإتقان والكمال: اللغة، النحو، التصريف، الاشتقاق المعاني، البيان، البديع، القراءات، أصول الدين، أسباب النزول والقصص، الناسخ والمنسوخ، الفقه، الأحاديث المبيّنة لتفسير المجمل والمبهم، علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم.<.

(١٤) علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، ص٢٠.

(١٥) المصدر السابق، ص٣٩.

(١٦) كما جاء في الاحتجاج، ج١، ص٣٨٣: >ولقد احضروا الكتاب كملاً مشتملاً على التأويل، والتنزيل، والمحكم، والمتشابه، والناسخ والمنسوخ<.

(١٧) الصواعق المحرقة، ابن حجر العسقلاني، ص١٢٦: (ط المحمّديّة).

(١٨) يريد مصحف عليّ عليه السلام.

(١٩) تاريخ الإسلام، الذهبي، ج٣، ص٦٣٧.

(٢٠) هو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، ولد وتوفي في نيسابور، مذهبه في العقيدة أشعري وفي الفقه شافعي.

(٢١) الإحكام، ابن دقيق العيد، ج٤، ص١٤٧.

(٢٢) معرفة علوم الحديث، الحاكم، ص٢٠.

(٢٣) أرجو من كل من يقرأ هذه الكلمات أن يدعو للعبد أن يوفقني الله إلى إتمام جمع هذه الروايات مع أسانيدها في كتاب يجمع أسباب النزول من روايات الأئمّة

المعصومين عليهم السلام مع الإشارة إلى ما ورد في كتب العامة.

(٢٤) البقرة: ٢٠٧.

(٢٥) (نقلاً عن تفسير البرهان) الشيخ في أماليه: قال: حدثنا جماعة عن أبي مفضّل، قال: حدّثنا محمد بن أحمد بن يحيى بن صفوان الإمام بأنطاكية، قال: حدّثنا محفوظ بن بحر، قال: حدّثنا الهيثم بن جميل، قال: حدّثنا قيس بن الربيع عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين... الحديث. الأمالي، ج٢، ص١٥٩، حديث١٦٥.

(٢٦) الحج: ٧٣.

(٢٧) الحج: ٧٣.

(٢٨) العنكبوت: ٤١.

(٢٩) تفسير الإمام العسكري عليه السلام، المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص٢٠٥.

(٣٠) المخفون للأموال.

(٣١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام، المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٣٢) علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، ص٣٣١.

(٣٣) أسباب النزول، الواحدي، ص٦٧، رقم١٢٢.

(٣٤) أسباب النزول، السيوطي: ص٤٠، حديث١٢٤.

(٣٥) أسباب النزول، الواحدي، ص٦٨، رقم١٢٥.

(٣٦) العجاب في بيان الأسباب، شيخ الإسلام أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ص٣٣٥.

(٣٧) علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، ص٢٩٨ (بتصرّف).

(٣٨) القرآن في الإسلام، السيد محمد حسين الطباطبائي، ص١٢٤.

(٣٩) العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ص٦٦، حيث قال: (قلت: وهو مرسل، ورجاله ثقات)

(٤٠) أسباب النزول، الواحدي، ص٢١، رقم١٩.

(٤١) تفسير العيّاشي، محمد بن مسعود العياشي، ج٢، ص٢٠١، حديث ١٠٦.

(٤٢) سورة النساء: ٤٣.

(٤٣) سنن الترمذي، ص٦٧، حديث ٣٠٢٦: ط مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.

(٤٤) أسباب النزول، الواحدي، ص١٥٧، رقم٣١٦. وفي هامشه أنه أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٥/٢)، وغيره.

(٤٥) حاشية ردّ المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام حنيفة النعمان، محمد أمين الشهير بابن عابدين، ج٤، ص٢٠٢.

(٤٦) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٤٩.

(٤٧) أسباب النزول، السيوطي، ص٨.

الإعجاز العلمي

الشيخ محمد علي الشيخ عيسى أحمد قاسم

مقدّمة

يُعنى هذا البحث بدراسة الضوابط التي وضعها العلماء والمتخصصون فيما يرتبط بمسألة الإعجاز العلمي، ولا بد من التنويه إلى أن الإعجاز العلمي ينقسم إلى قسمين: الإعجاز العلمي في القرآن، والإعجاز العلمي في السنة، وما ستطاله هذه الدراسة هو القسم الأوّل فقط، والجدير بالذكر أن أكثر الضوابط بين القسمين متطابقة إلى حد كبير.

ويمكن تبسيط خطّة البحث بأنها تتكون من مقدّمة وثلاثة مباحث وخاتمة، أما المبحث الأوّل فهو عبارة عن مباحث تمهيدية، وفيها مطلبان: الأول يتناول تعريف بعض المفردات ذات الصلة بعنوان البحث، والثاني يستعرض أهمية تقنين مسألة الإعجاز العلمي في القرآن.

وأما المبحث الثاني فتحت عنوان: ضوابط الإعجاز العلمي، ويضم تحت كنفه مطلبان، الأوّل يستعرض الضوابط العامّة للإعجاز العلمي، والثاني يناول الضوابط الخاصّة.

أمّا المبحث الثالث فعنوانه: تقييم الضوابط ومحاكمتها،

وفيه مطلبان، الأوّل عبارة عن تنبيهات وإشارات إلى الضوابط، والثاني يستعرض الضوابط الأخرى ويناقشها.
وأما الخاتمة فهي في نتائج البحث.

المبحث الأول: مباحث تمهيدية

المطلب الأول: تعريف بعض المفردات ذات الصلة بالعنوان

أولا: الإعجاز العلمي: وهو عبارة عن مفهوم مركب من مفردتين ولذلك كان من اللازم عند تعريفه تعريف أجزاءه ثم بيان المقصود الكلي منه.

* الإعجاز لغة: أصلٌ من «عجز» يدل على الضعف، يعجز عجز فهو عاجز أي ضعيف، وقولهم إنّ العجز نقيض الحزم فمن هذا لأنّه يضعف رأيه، ويقولون المرء يعجز لا محالة[1]، ويقال: عَجَزَ يَعْجِزُ عن الأمر إذا قصر عنه، والمُعْجِزَةُ: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام[2].

ويلاحظ أنّ لفظتا «الإعجاز» و «المعجزة» لم تردا في معاجم اللغة القديمة ككتاب العين ومعجم مقاييس اللغة، مما يدلّل على كونهما مصطلحين متأخرين، إلا أن الواضح أنهما مشتّقان من مادة «عجز» الدّالة لغةً على الضعف.

* الإعجاز اصطلاحـ : ويُعرف الإعجاز -أي المعجزة- عند بعض العلماء، بأنه "أمر خارق للعادة، مقرون بدعوى النبوة، مع المطابقة، وعَجْزِ الغير عن الإتيان بمثله"[3]، وإعجاز القرآن يُقصد به عجْز الناس على أن يأتوا بسورةٍ مثله.

* العلم لغة: يقول ابن فارس: "العين واللام والميم أصل صحيح واحد يدل على أثرٍ بالشيء يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة وهي معروفة، والعلم نقيض الجهل[4]، ورجل عالم وعليم، وعلاّم وعلامةٌ إذا بالغتَ في وصفه بالعلم أي

عالم جد "[٥]، والياء في «العلمي» ياء للنسبة.

* العلم اصطلاحـ : للعلم تعاريف عديدة، حيث يُعرّف العلم عند بعض الفلاسفة غير الماديين بأنه: "حضور وجود مجرد لوجود مجرد" ويعرّفه آخر بأنّه: "حالة إضافية بين العالم والمعلوم"، ويعرفه ثالث بأنّه: «صورة منطبعة عند العقل»[٦]، بينما يعرّفه أصحاب الفلسفة المادية بأنّه: "مجموعة من القضايا الحقيقيّة القابلة للإثبات عن طريق التجربة والحس"[٧].

ومن الواضح أن العلم ينقسم وفق اعتبارات معينة إلى أقسام عديدة، كتقسيمه إلى حسي ونظري، والمقصود بالعلم في المقام هو العلم الحسي القائم على التجربة، إذ فالتعريف المتوافق مع ما نقصده من العلم في الإعجاز العلمي هو تعريف الفلسفة المادية.

وبعد أن تناولنا أجزاء هذا المفهوم لابد من الوقوف عليه بشكل كليّ مركّب لنفهم المعنى الاصطلاحي المراد منه، فالإعجاز العلمي كما يعرّفه الدكتور زغلول النجار هو: "سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم"[٨]، ويعرّفه الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح بأنه: "إخبار القرآن الكريم أو السّنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي صلى الله عليه وآله "[٩].

ثانيا : الضوابط

* الضابط لغة: الضابط مأخوذ من الضبط، وهو لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء، وضبط الشيء: حفظه بحزم، والرجل ضابطٌ أي حازمٌ، ويقال الضابط: أي القويّ على عمله[١٠].

* الضابـط اصطلاحـ : والضابـط عنـد العلمـاء كمـا فـي المعجـم الوسـيط هـو: «حكـم كلـي ينطبـق علـى جزئياتـه»[11].

المطلب الثاني: أهمية الضوابط في الإعجاز العلمي

تمثـل عمليـة تقنيـن أي مـن المواضيـع العلميـة أهميـة بالغـة ودقيقـة، وذلـك لمـا تمثلـه مـن صياغـة الإطـار العـام الـذي يتّجـه نحـوه الموضـوع وكذلـك النتائـج المتوخـاة المبنيـة علـى ذلـك، فالضوابـط إذ تمثل المسـار الـذي ينبغـي أن يتّجـه علـى وفقـه الموضـوع، والسـور الـذي لا يجـب أن يخـرج عنـه سـياق البحـث، وذلـك لضمـان سـلامة النتائـج، وليـس اسـتثناء مـن ذلـك، أهميـةُ تقنيـن مسـألة الإعجـاز العلمـي، تظهـر أهميـة ذلـك مـن خـلال العـرض التالـي:

أولاً: مـع تقـادم الزمـن وتطـور العلـم الحديـث نشـأت الحاجـة إلـى وجـود أسـلوب جديـد فـي التبليـغ ونشـر ثقافـة التوحيـد يتناسـب مـع التطـور العلمـي والتكنولوجـي الحاصـل فـي هـذا العصـر، وبسـبب اقتنـاع الكثيـر مـن العلمـاء والباحثيـن بنجاعـة الإعجـاز العلمـي كطريـق للإقنـاع؛ نتـج عـن ذلـك كثـرة خوضهـم فـي هـذا المجـال ممـا سـبب حالـة مـن العشـوائية فـي التعامـل مـع الإعجـاز العلمـي، مـن هنـا كانـت الحاجـة إلـى وضـع قواعـد وأسـس تنظـم عمليـة الإعجـاز العلمـي فـي القـرآن وتقضـي علـى حالـة العشـوائية وعـدم التنظيـم.

ثانيـ : مـع كثـرة المهتميـن بهـذا الشـأن وتسـابق المختصيـن وغيرهـم بالخـوض فـي الأبحـاث المتعلقـة بالإعجـاز العلمـي، نتـج عـن ذلـك الوقـوع فـي الكثيـر مـن الأخطـاء والمزالـق، وذلـك بسـبب عـدم وضـوح الإطـار الـذي يحـدّد عمليـة البحـث فـي الإعجـاز العلمـي، هـذا الإطـار تمثلـه الضوابـط التـي يجـب أن تراعـى عنـد التعامـل مـع مسـألة الإعجـاز

العلمـي.

ثالثـ : إذا مـا سـلّمنا باعتبـار التفسـير العلمـي -الـذي يتشـابك كثيـر مـع الإعجـاز العلمـي- كمنهـج مـن مناهـج التفسـير المعتمـدة فـي فهـم النصـوص القرآنيـة، فهـذا بحـد ذاتـه يمثـل أهـمّ الأسـباب التـي تسـتدعي عمليـة تقنيـن الإعجـاز العلمـي لكونـه يتنـاول النصـوص المقدّسـة للقـرآن الكريـم، فعـدم التقنيـن يمثـل خطـورة كبيـرة لمـا يعنيـه مـن فتـح المجـال علـى مصراعيـه أمـام الجميـع للخـوض فـي كلام الله.

رابعـ : وضـع القواعـد والأسـس والضوابـط العلميـة لعمليـة التفسـير العلمـي يرفـع الكثيـر مـن الإشـكالات والالتباسـات التـي وجّههـا ووقـع فيهـا مخالفـو الإعجـاز العلمـي، حيـث إن كثيـر مـن الإشـكالات التـي أطلقهـا المخالفـون كانـت نتيجـة عشـوائية البحـث فـي مجـال الإعجـاز العلمـي، ووقـوع كثيـر مـن المؤيديـن فـي أخطـاء فادحـة بسـبب غيـاب الضوابـط فـي ذلـك، فوضـع الضوابـط يحـد كثيـر مـن الخـلاف الحاصـل بيـن المؤيديـن والمعارضيـن لمسـألة الإعجـاز العلمـي.

هـذه بعـض النقـاط التـي يمكـن ذكرهـا لبيـان أهميـة عمليـة تقنيـن الإعجـاز العلمـي فـي القـرآن الكريـم.

المبحث الثاني: ضوابط الإعجاز العلمي

أشـرنا سـابقا إلـى أن بحـث الإعجـاز العلمـي يتشـابك كثيـر مـع منهج التفسـير العلمـي[١٢]، لـذا فـإن القواعـد والضوابـط التـي وضعهـا العلمـاء للتفسـير العلمـي هـي نفسـها القواعـد التـي تجـري فـي مسـألة الإعجـاز العلمـي فـي القـرآن، وهـذه الضوابـط علـى نحويـن: الضوابـط العامـة التـي لا بـد مـن وجودهـا فـي جميـع المناهـج التفسـيرية، والضوابـط الخاصّـة التـي لا بـد مـن توافرهـا فـي قسـم خـاص مـن أقسـام التفسـير.

المطلب الأوّل: الضوابط العامّة

وهي عبارة عن الضوابط والقواعد التي يجب مراعاتها والتوفّر عليها عند عملية التفسير بحسب جميع المناهج التفسيرية، وسنورد في هذا الشأن ما تبنّاه العلامة معرفة من ضوابط تفسيرية عامة في كتابه «التفسير والمفسرون»:

الأوّل: التوفّر على بعض العلوم المتعلّقة باللغة العربية: معرفة الألفاظ، وهو علم اللغة، مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض، وهو علم الاشتقاق، معرفة أحكام ما يعرض الألفاظ من الأبنية والتصاريف والإعراب، وهو النحو، معرفة ما يتعلق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات.

الثاني: ما يتعلق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات، وشرح الأقاصيص التي تنطوي عليها السور، من ذكر الأنبياء عليهم السلام والقرون الماضية، وهو علم الآثار والأخبار.

الثالث: التوفّر على علم السنن، وهو ذكر السنن المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وعمّن شهد الوحي، وما اتّفقوا عليه وما اختلفوا فيه، ممّا هو بيان لمجمل، أو تفسير لمبهم.

الرابع: معرفة الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، والإجماع والاختلاف، والمجمل والمفسر، والقياسات الشرعية، والمواضيع التي يصح فيها القياس، والتي لا يصحّ، وهو علم أصول الفقه.

الخامس: أحكام الدين وآدابه، وآداب السياسات الثلاث التي هي سياسة النفس والأقارب والرعيّة؛ مع التمسك بالعدالة فيها، وهو علم الفقه والزهد.

السادس: معرفة الأدلّة العقليّة، والبراهين الحقيقيّة، والتقسيم والتحديد، والفرق بين المعقولات والمظنونات وغير ذلك، وهو علم

الـكلام.

السابع: علم الموهبة، وذلك علم يورّثه الله من عمل بما علم.

الثامـن: أن يراعـي تقـوى الله عزّ وجلّ، فـلا يقـول فـي شـيء بغيـر علـم ولا كتـاب منيـر[١٣].

المطلب الثاني: الضوابط الخاصة:

هـي عبـارة عـن الضوابـط التـي لا بـد مـن توافرهـا عنـد الخـوض فـي خصـوص مسـألة الإعجـاز العلمـي، وقـد ذكـر العلمـاء والباحثـون الكثيـر مـن الضوابـط للتفسـير والإعجـاز العلميـين إلا أن كثيـر ممـا ذكـروه متداخـل مـع الضوابـط العامـة، أو أنـه يشـوبه بعـض الملاحظـات، وسـنورد فـي هـذا القسـم مـا نعتقـد بدخالتـه ومقوميتـه لعمليـة البحـث فـي الإعجاز العلمـي، وسـنترك مناقشـة بعـض الضوابـط الأخـرى فـي المبحـث اللاحق.

أما الضوابط العلمية فهي:

الأوّل: أن يكـون الاعتمـاد علـى النظريّـة العلميّـة التـي وصلـت إلى حد الحقيقـة العلميّـة القاطعـة أو مـا يسـمّى بالقانـون العلمـيّ، وعـدم المصيـر إلـى الفرضيـات والنظريـات الاحتماليّـة[١٤].

الثانـي: أن تكـون دلالـة ظاهـر الآيـة واضحـة لا مريـة فيهـا بالنسـبة إلـى الحقيقـة العلميّـة، بحيـث لا يدخـل التأويـل وتحميـل الآيـة علـى الحقيقـة العلميّـة بصـورة جبريّـة، ممّـا يلجئنـا إلـى التفسـير المخالـف للظاهـر[١٥].

الثالـث: عـدم حصـر الآيـة علـى الحقيقـة العلميّـة الواحـدة، فبمـا أن الإحاطـة بـكلام الله بشـكل مطلـق محـال؛ فالقـول بانحصـار الآيـة فـي خصـوص هـذه الحقيقـة العلميّـة أو تلـك أمـر مشـكل، فكـم مـن الآيـات التـي فهمـت بشـكل معيـن ثـم جـاء العلـم الحديـث فأوجـد لهـا معنـى

أوسع.

يقول مروان وحيد شعبان في كتابه «الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث»: "إن الإحاطة بمراد كلام الله بشكل مطلق أمر محال... وعند إحاطتنا بالدلالات اللغوية الحقيقية والمجازية واستعمالات العرب لها، إن وجدنا أن حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات، لا بأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدتها الحقيقة العلمية، على أن لا نحكم بالبطلان والفساد على الدلالات الأخرى للكلمة من جهة، وأن لا نحصر معنى الآية على الدلالة التي رجّحناها من جهة أخرى، فقد تكون الحقيقة العلمية التي رجّحنا على ضوئها هذه الدلالة إحدى دلالات الآية، وظلالها ممتدة إلى حقائق أخرى لم نتمكن من التوصل إليها حسب ثقافة عصرنا..."[١٦].

الرابع: اتّباع المنهج الصحيح في تثبيت الإعجاز العلمي، والابتعاد عن اتّباع المناهج الخاطئة في بيان أوجه الإعجاز، مثل استخراج العلوم من القرآن، وتحميل النظريات على القرآن[١٧].

الخامس: أهمية التخصّص العلميّ، حيث إنه من الأهمية بمكان أن يكون الخائض في مسألة الإعجاز العلمي من أهل الاختصاص، فلا يكفي كونه متمكّنـ في العلوم الشرعيّة واللغويّة وغيرها، دون التخصّص في العلوم الطبيعيّة والكونيّة التي لها دخالة في تثبيت الإعجاز وفهم النصوص القرآنية، ومع تعسّر الجمع بين العلوم يُرجع إلى المختّص في المجال العلميّ شرط إحراز ثبوت الحقيقة العلميّة[١٨].

المبحث الثالث: تقييم الضوابط ومحاكمتها

المطلب الأوّل: إشارات وتنبيهات على الضوابط

سنتناول في هذا المطلب بعض التوضيحات والتنبيهات على بعض الضوابط المتقدّمة بما يناسب المقام.

الضابط الأوّل: يقول الدكتور محمد علي رضائي في كتابه «دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية»:

توجد عدّة احتمالات بالنسبة إلى القضايا العلمية:

أ- القضية العلمية التي تورث اليقين المطابق للواقع وذلك إذا كانت التجربة مصحوبة بالاستدلال العقلي (الوصول إلى مرحلة البداهة).

ب- القضية التي تورث الاطمئنان ولكن لا تعدم الاحتمال المخالف وهي كأكثر القضايا التجريبية.

ج- النظرية العلمية الظنّية التي لم تصل إلى مرحلة الثبوت بعد.

أمّا بالنسبة إلى الحالة الأولى، فيكون التفسير العلمي جائز، لأنّه لا يوجد تعارض أصلاً بين القرآن والقطع العلمي -الذي يرجع إلى القطع العقلي-، أمّا بالنسبة إلى الحالة الثانية، فلا إشكال في نسبة العلوم إلى القرآن بصورة احتمالية...، أمّا في الحالة الثالثة فإن التفسير به غير جائز؛ لأن أكثر الإشكالات الواردة على هذا التفسير مثل (تطبيق العلوم على القرآن، واستخراج العلوم من القرآن)[١٩] تكون غير منتفية[٢٠].

إذ فالقدر المتيقن حسب رأي الدكتور رضائي أن الثابت من الحقائق العلمية التي يمكن تثبيت الإعجاز بها هي القضية العلميّة القطعيّة التي يكون مرجعها إلى القطع العقلي، وأمّا أكثر النظريات

العلميّة التي ثبتت عن طريق الاستقراء فلا يمكن إسنادها إلى القرآن بنحو قاطع، وأمّا النظريات الظنّية التي لم تثبت بعد، فالأمر فيها واضح؛ حيث لا يمكن الاعتماد عليها في تثبيت الإعجاز لا بنحو القطع ولا الاحتمال.

إلّا أنه يمكن أن يفرّق فيما يرتبط بالنظريات العلميّة المستندة إلى الاستقراء؛ بين ما إذا كانت معتمدة على الاستقراء بحسب الاستقراء الأرسطي الذي لا يؤدّي إلى اليقين فيما إذا كان ناقصـ ، وبين الاستقراء المعتمد على نظرية حساب الاحتمالات التي اعتمدها الشهيد الصدر & ، وذلك أن الاستقراء الثاني يمكن أن يحصل معه الاطمئنان المتاخم لليقين، وعندئذ قد يمكن القول بالصيرورة إلى قبول الاستفادة من النظريات العلمية المستندة للاستقراء في تثبيت الإعجاز العلمي بنحو قاطع.

إلّا أنّ مقتضى الاحتياط في مثل هذه المسائل يقتضي عدم الجزم بتطبيق الحقائق العلمية على القرآن، والاكتفاء بالتطبيق الاحتمالي لما يتوصل إليه، بحيث يكون المفسر دائم الاتّهام لنفسه في فهم الحقائق القرآنيّة.

الضابط الثاني: تجدر الإشارة إلى أن هذا الضابط لا يلغي الضابط الأول القائل بجواز الاعتماد على الحقيقة العلمية في بعض صورها بشكل قاطع، بل غاية ما يفيده هو عدم حصر الآية في حقيقة علمية واحدة.

الضابط الثالث: ولبيان هذا الضابط بشكل أعمق، لا بد من التطرّق إلى بعض المناهج المرتبطة بمجال بحثنا[٢١]:

المنهج الأول: وهو القائل بإمكانيّة استخراج كل العلوم من القرآن الكريم، حيث يعتقد أرباب هذا المنهج باشتمال القرآن على جميع

العلـوم، حيـث يذكـرون الآيـات التـي توافـق ظاهـر القوانيـن العلميـة، ويؤولـون الآيـات التـي لا تتوافـق معهـا.

ومـن الواضـح أن هـذا النمـط مـن البحـث يـؤدّي إلـى التأويـل الفاسـد، وذلـك بالابتعـاد عـن ظواهـر القـرآن ومعانيـه اللغويـة، بتجييـر النـص باتّجـاه النظريـة العلميـة.

المنهـج الثانـي: تطبيـق النظريـات العلميـة علـى القـرآن الكريـم، حيث حـاول أصحـاب هـذا المنهـج أن يُطبقـوا الآيـات والنصـوص القرآنيـة علـى بعـض القوانيـن والنظريـات العلميّـة، ويؤوّلـوا الآيـات المخالفـة، وذلـك بتجييـر النـص وليـه لصالـح النظريـة العلميـة المتبنـاة، وهـذا مـا يـؤدي إلـى الوقـوع فـي منحـدر التفسـير بالـرأي المنهـي عنـه شـرع .

المنهـج الثالـث: اسـتخدام الحقائـق العلميّـة لفهـم وتبييـن مقاصـد القـرآن وتثبيـت إعجـازه العلمـي، وفـي هـذه الطريقـة مـن التفسـير لا بـد مـن رعايـة الضوابـط والقواعـد التـي يلـزم اتّباعهـا لتفـادي الوقـوع فـي الاشـتباهات مـن قبـل المتخصّـص، هـذا النمـط مـن التفسـير يسـعى بالاسـتفادة مـن الحقائـق القطعيـة والظواهـر القرآنيـة الموافقـة للعلـوم، إلـى اكتشـاف المعنـى المجهـول للآيـة فيمـا يرتبـط بالتفسـير، وتثبيـت الإعجـاز العلمـيّ للقـرآن فيمـا يرتبـط بمسـألة الإعجـاز، وهـذا هـو المنهـج الصحيـح الـذي ينبغـي اتّباعـه.

المطلب الثاني: محاكمة الضوابط الأخرى

سـنعرض فـي هـذا المطلـب بعـض مـا ذكـره العلمـاء والمتخصّصـون مـن ضوابـط أخـرى للإعجـاز العلمـي -غيـر مـا ذكرنـاه فـي المبحـث السـابق- نعتقـد بعـدم مقوميّتهـا للإعجـاز العلمـي، أو رجوعهـا فـي الحقيقـة إلـى الضوابـط العامـة لـكل المناهـج التفسـيرية، أو عـدم صوابيّتهـا

مـن الأسـاس، وذلـك مـع بيـان بعـض الملاحظـات، وسـنكتفي بذكـر بعـض النمـاذج[٢٢]:

١. محاولـة فهـم النّـصّ الواقـع تحـت الدّراسـة وفـق فهـم العـرب إبّـان نـزول الوحـي وذلـك لتغيـر دلالات الألفـاظ حسـب مـرور الوقـت، ولهـذا يقتضـي الأمـر الإلمـام بمسـائل تعيـن علـى فهـم النّـصّ والتّمكـن مـن تقديـم معنـى علـى آخـر.

٢. الاعتمـاد علـى المصـادر المعتبـرة فـي ذلـك دون غيرهـا كأمّهـات التّفسـير والحديـث وكتـب غريـب القـرآن والسـنة، مـع الإشـارة إلـى جهـود الدراسـات السـابقة إن وجـدت.

٣. الابتعـاد عـن تسـفيه آراء السـلف مـن علمـاء التفسـير والحديـث ورميهـم بالجهـل، لأن القـرآن والسـنة خطـاب للبشـرية فـي كل عصـر... بـل الواجـب اتبـاع السـلف رضي الله عنهم، وخصوصـ الصحابـة رضوان الله عليهم لأنّهـم أدرى بذلـك لمـا شـاهدوا مـن القرائـن والأحـوال التـي اختصـوا بهـا، ولمـا لهـم مـن الفهـم التـام والعلـم الصالـح لا سـيما علماؤهـم وكبراؤهـم كالأئمـة الأربعـة الخلفـاء الصالحيـن... .

٤. فهـم العمـدة والعـدول بخبـر الله تعالـى، وعنهـم أخـذ التّابعـون وعلـى نهجهـم سـاروا، فمـن عـدل عـن تفسـيرهم إلـى مـا يخالفـه كان مخطئـ بـل ومبتدعـ لأنّهـم كانـوا أعلـم بتفسـير كتـاب الله مـن غيرهـم وأورع وأتقـى.

٥. إن هنـاك أمـور مـن قبيـل المتشـابه لا مجـال لفهمهـا أو تناولهـا بالبحـث.

٦. جمـع النّصـوص القرآنيـة المتعلّقـة بالموضـوع ورد بعضهـا إلـى بعـض لتخـرج بنتيجـة صحيحـة لا يعارضهـا شـيء مـن تلـك

النّصـوص بـل يؤيدهـا.

محاكمة الضوابط

أوّلاً: بالنسـبة إلـى الضابـط الأوّل المذكـور، فهـو يرجـع إلـى الضابـط الأوّل مـن الضوابـط العامـة التـي ذكرناهـا فـي المبحـث الثانـي، فهـذا الضابـط ليـس مختصـ بمسـألة البحـث فـي الإعجـاز العلمـي.

ثانيـ : أمّا بالنسبة إلى الضابط الثاني ففيه:

١- المقطـع الأول يرجـع إلـى الضوابـط العامّـة المذكـورة فـي المبحـث الثانـي.

٢- أمّـا المقطـع الثانـي الـذي يحتـوي علـى الإشـارة إلـى الجهـود السـابقة، فهـذا ليـس مختصـ بمسـألة الإعجـاز العلمـي وإنمـا يجـري فـي كل البحـوث والدراسـات، ولا بـأس بالالتـزام مـن بـاب الأمانـة العلميـة، ومنشـأ هـذا المعيـار أخلاقـيّ.

ثالثـ : وأما بالنسبة إلى الضابط الثّالث والرّابع، ففيهما:

١. أمـا مـا يرجـع إلـى "الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل"، فهـذا أمـرٌ أخلاقـي ينبغـي الالتـزام بـه، فالاسـتهزاء والسـخرية بالآخريـن وآرائهـم ليـس مـن تعاليـم الإسـلام ولا مـن أخلاقيـات الديـن، إلا أن ذلـك لايُعـدّ ضابطـ مقوّمـ لعمليـة البحـث فـي الإعجـاز العلمـي، وإنمـا لـه دخالـة فـي تركيـب الشـخصية المسـلمة الملتزمـة فـي كل جوانـب الحيـاة.

٢. وأمـا مـا يرجـع إلـى وجـوب اتّبـاع السـلف وخصوصـ الصحابـة، وأن مـن عـدل عـن تفسـيرهم إلـى مـا يخالفـه كان مخطئـ بـل ومبتدعـ ، فهـو فـي شـدة الوهـن والضعـف، وذلـك أن لازمـه:

أ- عصمة السلف مما يعني عدم جواز مخالفة آرائهم التفسيرية.

ب- التخلي عن فكرة الإعجاز العلمي، وذلك أن ما ذهب إليه السلف في تفسير الآيات العلمية إما مطابق لما جاء به العلم الحديث وإما لا، فإن كان مطابقـ فموضوع الإعجاز منتف، وإن كان غير مطابق فمخالفتهم تعني الوقوع في الخطأ والابتداع!!

رابعـ : بالنسبة إلى الضابطين الخامس والسادس فهما يرجعان إلى الضابط الثاني من الضوابط الخاصة للإعجاز العلمي.

الخاتمة

في نتائج البحث:

أوّلاً: أن المقصود من العلم في الإعجاز العلمي هو خصوص العلم القائم على التجربة، وأن مسائل هذا العلم لا تتّصف بالقطع، إلّا عند رجوعها إلى القطع العقلي، أو اعتمادها على الاستقراء المستند إلى نظرية حساب الاحتمالات.

ثانيـ : أن عملية تقنين الإعجاز العلمي ترفع الكثير من الإشكالات التي وجّهت إلى موضوع الإعجاز العلمي في القرآن.

ثالثـ : عدم مراعاة الكثير من المختصين التفريق بين الضوابط الخاصة والعامة في مسألة الإعجاز العلمي.

رابعـ : تركيز الكثير من المختصين على ذكر الضوابط الأخلاقية على الرغم من عدم مقومية الكثير منها لعملية تثبيت الإعجاز العلمي.

خامسـ : إدخال بعض الباحثين ضوابط غير منطقية في الإعجاز العلمي.

سادسـ : وجود مناهج عديدة في الإعجاز العلمي والصحيح منها ما يعتمد على استخدام الحقائق العلمية لفهم وتبيين مقاصد القرآن

وتثبيت إعجازه العلمي.

سابع : يمكن إضافة بعض الضوابط في المستقبل بحسب الحاجة، كون عملية الإعجاز العلمي في حالة تطوّر وتوسع[٢٣].

***

الهوامش

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٤ ص٢٣٢، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، كتاب العين، الخليل الفراهيدي، ج١ ص٢١٥، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ج٩ ص٥٨، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٣) دروس في العقيدة الإسلامية، الشيخ مصباح اليزدي، ص٢١٥، المشرق للثقافة والنشر، ١٤٢٧هـ، طهران، إيران. بداية المعرفة، حسن مكي العاملي، ص٢٠٨، ذوي القربى، ٢٠٠٥م، قم، إيران.

(٤) معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج٤ ص١٠٩-١١٠.

(٥) لسان العرب، مصدر سابق، ج٩ ص٣٧١.

(٦) بداية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي، ص١٧٥، تحقيق: الشيخ عباس علي الزارعي، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٦هـ، قم، إيران.

(٧) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي الأصفهاني، ص١٨٣، تعريب: قاسم البيضاني، مركز المصطفى العالمي، ١٤٣٢هـ، قم، إيران.

(٨) مقالة/مفهوم الإعجاز العلمي وضوابط البحث فيه، ملتقى أهل التفسير http://www.taf-sir.net/vb/tafsir٢٥٣٧٩/.

(٩) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، مصدر سابق، ص٢٢.

(١٠) كتاب العين، مصدر سابق، ج٧ ص٢٣، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، ج٣ ص١١٣٩، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ١٤٠٧هـ، لسان العرب، مصدر سابق، ج٨ ص١٦.

(١١) المعجم الوسيط، مجموعة من اللغويين، ج١ ص٥٣٣، المكتبة الإسلامية.

(١٢) ليس هناك فرق جوهري بين الإعجاز والتفسير العلميين، وإنّما هنالك فرق لحاظي، فالقواعد التي توصل إلى الهدف من التفسير والإعجاز العلميين واحدة، وإنّما الغايات والأهداف المرجوة من التفسير تختلف في بعض جوانبها مع الأهداف والغايات المرجوة من الإعجاز العلمي، فمثلاً يلحظ الإعجاز مسألة التحدي في إثبات تطابق الحقيقة العلمية مع النص القرآني، بخلاف التفسير فإنّه لا يلحظ ذلك، وإنّما الغاية منه الوصول إلى فهم النص القرآني.

(١٣) التفسير والمفسرون (تاريخ التفسير) التمهيد في علوم القرآن، العلامة محمد هادي معرفة، ج٩ ص٥٠-٥٢، ذوي القربى، ١٤٢٨هـ، قم، إيران. بتصرف.

(١٤) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، مصدر سابق، ص٣٠، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، مصدر سابق، ص١٨٣. الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان، ص٩١، دار المعرفة.

(١٥) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، مصدر سابق، ص٣٠، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، مصدر سابق، ص١٨٤.

(١٦) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مصدر سابق، ص٩٢-٩٣.

(١٧) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، مصدر سابق، ص١٨٤.

(١٨) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مصدر سابق، ص٩٣.

(١٩) سيأتي إيضاحه قريبا .

(٢٠) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، مصدر سابق، الهامش ص١٨٣.

(٢١) هذا التقسيم مستفاد من تقسيم الأستاذ رفيعي للتفسير العلمي، حيث قسّم التفسير العلمي إلى الأقسام الثلاثة المذكورة، راجع دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، مصدر سابق، ص١٧٩.

(٢٢) هذه النماذج مأخوذة مما ذكره الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح في ضوابط الإعجاز العلمي، راجع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، مصدر سابق، ص٣٠-٣٤.

(٢٣) من مصادر هذا البحث:

١- الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان، دار المعرفة.

٢- بداية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي، تحقيق: الشيخ عباس علي الزارعي،

مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٦هـ، قم، إيران.

٣- بداية المعرفة، حسن مكي العاملي، ذوي القربى، ٢٠٠٥م، قم، إيران.

٤- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ١٤٠٧هـ .

٥- التفسير والمفسرون (تاريخ التفسير) التمهيد في علوم القرآن، العلامة محمد هادي معرفة، ذوي القربى، ١٤٢٨هـ، قم، إيران. بتصرف.

٦- دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب: قاسم البيضاني، مركز المصطفى العالمي، ١٤٣٢هـ، قم، إيران.

٧- دروس في العقيدة الإسلامية، الشيخ مصباح اليزدي، المشرق للثقافة والنشر، ١٤٢٧هـ، طهران، إيران.

٨- كتاب العين، الخليل الفراهيدي، ج١ ص٢١٥، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي.

٩- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٠- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

١١- مقالة/مفهوم الإعجاز العلمي وضوابط البحث فيه، ملتقى أهل التفسير http:// www.tafsir.net/vb/tafsir٢٥٣٧٩.

١٢- المعجم الوسيط، مجموعة من اللغويين: إبراهيم مصطفى، أحمد حسم الزّيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجّار، المكتبة الإسلامية.

مِن آفاق آية الوضوء

الشيخ عادل علي الشعلة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قال تعالى في محكم كتابه وجليل خطابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1].

آية الطهارة -هذه-، بحر زاخر من التعاليم الإلهية، ويأمل الكاتبُ التّوقفَ مع طهارة الوضوء من هذه الآية، ولذا خصّ البحث باسم آية الوضوء، وهي تسمية متعارفة على ألسن الفقهاء (أعلى الله مقامهم).

وآية الوضوء عين جارية، تفتح أمام الدّارس والمتأمل آفاق كبرى من المعارف والأحكام، وتصقل حسّ استنباط معاني آيات الذكر الحكيم.

والبحث في هذه الآية الكريمة سيقع في إطار مفاداتها فقط، وقد يُستعان -في بعض الموارد- بالنّصوص الروائية لتوسعة مديات

هذه المفادات وآفاقها؛ لما لذلك من آثر في تعزيز الارتباط بهذا العمل.

والكلام في مباحث:

المبحث الأول: تعريف الوضوء

لفظ الوضوء لم يُستعمل في الآية الكريمة بل ولا في القرآن الكريم، نعم، استعمل بكثرة في النصوص الروائية.

وفي اللغة: "الوضوء: اسم للماء الذي يُتطهر به. والوضوء -بضم الواو-: اسم المصدر الذي هو التطهر"[٢]، والـ"نظافة"[٣]. و"التوضؤ: التّنظّف"[٤]. و"الوضوء للصلاة هو الوضاءة، والوضاءة: النظافة والحسن. ومنه قيل: فلان وضيء الوجه، أي: نظيفه، وحسنه، فكأنّ الغاسل لوجهه وضأه، أي: نظفه بالماء وحسنه، ومن غسل يده، أو رجله، أو عضو من أعضائه، أو سكن من شعث رأسه بالماء، فقد وضأه"[٥].

ووفق الآية الكريمة، يُمكن تعريف الوضوء بأنه: غسلٌ ومسحٌ خاص.

وقوله تعالى: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ}، دال على أنّ الوضوء سببٌ للتطهير.

ومفردة: {لِيُطَهَّرَكُمْ} تُبيّن أنّ الوضاءة حسيّةٌ ومعنويّةٌ. أمّا التّطهير الحسي فواضح، وأما التّطهير المعنوي، فمثل التّطهير من الذنوب، فعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ' يقول: ﴿وَمَنْ قَامَ إِلَى الْوُضُوءِ يَرَاهُ حَقّاً عَلَيْهِ، فَمَضْمَضَ فَاهُ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبهُ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ طَهُورِهِ. فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ. فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ جَلَسَ، جَلَسَ سَالِمَاً، وَإِنْ صَلَّى تَقَبَّلَ اللهُ مِنْهُ﴾[٦].

المبحث الثاني: أركان الوضوء

الآية الكريمة تبيّن كيفية الوضوء، وقد دلّت بظاهرها على وجوب أربعة أفعال مقارنة للوضوء، كما دلّت من فحواها على وجوب النية فيه، وتفصيل ذلك كما يلي:

الفعل الأول: النية: وفي الآية دلالة على وجوب النية في الوضوء، لأنّه قال:

>إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُواْ<[٧]، "وتقدير الكلام: فاغسلوا هذه الأعضاء للصلاة؛ لأنّ هذا هو المعروف من قولك: إذا لقيت العدو فخذ سلاحك. وإذا لقيت الأمير فخذ أهبتك، بمعنى: خذ السلاح -للقاء- العدو، والأهبة للأمير، فيكون حقيقةً في هذا المعنى دفع للاشتراك والتجوز"[٨]، "والغسل لا يكون للصلاة إلّا بالنية؛ لأنّ بالنية يتوجه الفعل إلى جهة دون غيرها"[٩].

وتدلّ الآية أيض من فحواها على وجوب النية فيه؛ لأنّ الوضوء عملٌ، وقد ورد عن النّبي ' أنّه قال: >إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى<[١٠]، "وقد علمنا أنّ الأعمال قد تُوجد مِنْ غَيْرِ نيّةٍ، فوضح أنّ المراد بالخبر أنّها لا تكون قربة شرعية مجزية إلّا بالنيات؛ ليمتاز بها العمل الشرعي عن غيره.

وقوله عليه السلام: >إنّما لامرئٍ ما نوى<، يدلّ على أنّه ليس له ما لم ينو. هذا حكم اللغة العربية، ألا ترى القائل إذا قال: «إنّما لديّ درهم»، فقد نفى أن يكون له أكثر من درهم"[١١].

الفعل الثاني: غسل الوجه: من قصاص شعر الرأس إلى محادر شعر الذقن طولاً، وما دارت عليه الإبهام والوسطى عرض . والدليل عليه من القرآن جملة قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}[١٢]، وقد بيّنها النبي ' ، وأهل بيته ^ ، كما عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: >أخبرني عن الوجه الذي ينبغي أن يوضأ الذي قال الله تعالى: {فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ}[١٣]؟ فقال: >الوجه الذي أمر الله بغسله، الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص عنه، إن زاد لم يؤجر، وإن نقص عنه أثم، ما دارت عليه الإبهام والوسطى من قصاص الشعر إلى الذقن، وما جرت عليه الإصبعان مستدير ، فهو الوجه، وما سوى ذلك فليس من الوجه. قال: قلت: الصّدغ من الوجه؟ قال عليه السلام: لا<[١٤].

و"المفروض إيصال الماء إلى الوجه على سبيل الغسل، والظاهر من القرآن يدخل فيه غسل الوجه باليد اليمنى دون اليسرى، وفعل المسنون أولى من غيره"[١٥].

الفعل الثالث: غسل اليدين: من المرفق إلى أطراف الأصابع. « فإن قيل:

قد خالفتم ظاهر القرآن؛ لأنه قال: {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}[١٦]، غاية، وأنتم قد جعلتم المرافق ابتداء؟

قلنا: أما لفظة {إِلَى} فقد تكون في اللغة العربية بمعنى: الغاية، وبمعنى: (مع)، قال الله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ}[١٧]، أراد مع أموالكم، وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ}[١٨]، أراد مع الله.

ويقولون: ولي فلان الكوفة إلى البصرة، ولا يريدون غاية، بل يريدون ولي هذا البلد مع هذا البلد.

وقال النابغة الذبياني:

">ولا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب»، أراد مع الناس أو عندهم»[١٩].

"فإن قيل: فهذا يدل على احتمال لفظة: {إِلَى} بمعنى الغاية وغيرها، فمن أين أنها في الآية لغير معنى الغاية؟

قلنا: يكفي في إسقاط استدلالكم بالآية المحتملة لما قلناه ولما قلتموه، فهي دليلنا ودليلكم.

وبعد فلو كانت لفظة {إِلَى} في الآية محمولة على الغاية؛ لوجب أن يكون من لم يبتدأ بالأصابع، ونيته إلى المرافق عاصيا مخالفا للأمر، وأجمع المسلمون على خلاف ذلك. وإذا حملنا لفظة {إِلَى} على معنى (مع) صار تقدير الكلام: فاغسلوا أيديكم مع المرافق، وهذا هو الصحيح الذي لا يدفعه إجماع ولا حجة"[٢٠].

الفعل الرابع: مسح الرأس: المسح بمقدم الرأس مقدار ما يقع عليه اسم المسح، "وإنّما اعتبرنا المسح ببعض [الرأس] -فضلًا على النص من آل محمد (عليه وعليهم السلام)- لدخول الباء الموجبة للتبعيض؛ لأنّ دخولها في الإثبات في الموضع الذي يتعدى الفعل فيه بنفسه، لا وجه له غير التبعيض، وإلا لكان لغو ، وحملها على الزيادة لا يجوز مع إمكانها على فائدة مجددة"[٢١].

الفعل الخامس: مسح الرجلين: مسح الرجلين من رؤوس الأصابع إلى

الكعبين. قال تعالى: {وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ}[٢٢]، "عطف على (الرؤوس). فمن قرأ: بالجرّ، ذهب إلى أنه يجب مسحهما، كما وجب مسح (الرأس)، ومن نصبهما ذهب إلى أنه معطوف على موضع (الرؤوس)؛ لأنّ موضعها نصب لوقوع المسح عليها، وإنّما جرّ (الرؤوس)؛ لدخول (الباء) الموجبة للتبعيض على ما بيناه، فالقراءتان جميع تفيدان المسح على ما نذهب إليه"[٢٣].

"وأما (الكعبان) فهما عندنا الناتئان في وسط القدم، وبه قال محمد بن الحسن الشيباني، وإن أوجب الغسل. وقال أكثر الفقهاء: هما عظما الساقين. يدل على ما قلناه: أنه لو أراد ما قالوا لقال سبحانه: (إلى الكعاب)؛ لأن في الرجلين منها أربعة. فإن ادعوا تقدير بعد قوله: {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ}[٢٤]، أي: كلّ واحدة إلى الكعبين، كما في قولهم: (اكسنا حلة)، أي: اكس كل واحد منا حلة، فذلك مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن أولى، وهو قولنا.

فإن قيل: كيف قال: {إِلَى الْكَعْبَيْنِ}[٢٥]؟ وعلى مذهبكم ليس في كِلّ رجل إلا كعب واحد؟

قلنا: إنّه تعالى أراد رجلي كلّ متطهر، وفي الرجلين كعبان، ولو بنى الكلام على ظاهره لقال: >وأرجلكم إلى الكعاب<، والعدول بلفظ {وَأَرْجُلَكُمْ} إلى أن المراد بها رجلا كِلّ مُتطهِّر أولى، مِنْ حملها على كِلّ رجل"[٢٦].

«والباء في قوله: {بِرُؤُوسِكُمْ} كما تدل على مسح بعض الرأس، تدلُّ في الرجلين أيضاً عليه، لأنّها مضمرة في {وَأَرْجُلَكُمْ}، وواو العطف منبئة عنه، وقائمة مقامها، وكل ما هو منوي في الكلام فهو في حكم الثابت على بعض الوجوه»[٢٧].

المبحث الثالث: شروط الوضوء

المتأمّل في آية الوضوء يجد أنّها أشارت إلى شروط عديدة، منها الآتي:

الشرط الأول: نية الإخلاص والقرب من الله تعالى: فإنّ الوضوء عبادة بمفاد الآية والأخبار، ولذا وجب أن يتوضأ من أجل الله فقط، لقوله تعالى: {قُلْ

إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٢٨].

وقوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء}[٢٩]، ففيه "دلالة على وجوب النية في الطهارة؛ لأنه تعالى بيّن أنه أمرهم بالعبادة على الإخلاص، ولا يُمكن ذلك إلّا بالنّية والقربة، والطهارة عبادة؛ لقوله ' : <الوضُوءُ شَطْرُ الإِيمَانِ>[٣٠]، وما هو شطر الإيمان لا يكون إلّا عبادة"[٣١].

ومن نوى غير الله تعالى، وتوضأ رياءً، ابتغاء لمرضاة الناس وإعجابهم، فقد دخل فيمن قال تعالى عنهم: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}[٣٢]؛ لأنه ممن: {اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}[٣٣]، ومن كان كذلك لم يتطهر؛ لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}[٣٤].

الشرط الثاني: الماء: إن آية الوضوء أشارت إلى أنّ الوضوء يكون بالماء، وهو «**الطبيعة المائية الخالصة عن الأشياء الأخر، الموجبة لانقلاب تلك الطبيعة إلى طبيعة أُخرى، بحيث تغايرها، أو تكون معها**»[٣٥]، وهذه الطبيعة هي التي تتبادر إلى الفهم عند إطلاق اسم الماء عرفاً، من غير حاجة إلى قرينة أو قيد يوضحه، كما في شأن الماء المخلوط والمضاف، وهو ما لا يصح الوضوء به.

الشرط الثالث: طهارة الماء: أن يكون الماء طاهر، فلا يصح الوضوء بالماء النّجس. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: <**إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ الوُضُوءَ عَلَى عِبَادِهِ بِالمَاءِ الطَّاهِرِ، وَكَذَلِكَ الغُسْل مِنَ الْجَنَابَةِ، فَقَالَ تَعَالَى:** {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}[٣٦]. **فالْفَرِيضَةُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: الغسلُ بالماءِ عنْدَ وجودهِ، لا يَجُوز غيرهُ، والرّخصةُ فيهِ إِذَا لَمْ تَجِدْ الماءَ الطَّاهر: التّيمم بالتّراب مِنَ الصَّعيدِ الطّيبِ**>[٣٧].

الشرط الرّابع: مباشرة الوضوء: فلا يسوغ للمتوضئ استنابة غيره في شيء من أفعال الوضوء مع عدم العجز والاضطرار، فإنّ الآية تدل «على أنه يجب

تولى المتطهر وضوءه بنفسه، إذا كان متمكنا من ذلك، ولا يجزيه سواه؛ لأنه قال: {فاغْسِلُواْ}[٣٨]، أمر بأن يكونوا غاسلين وماسحين، والظاهر يقتضي تولي الفعل حتى يستحق التسمية؛ لأن من وضأه غيره لا يسمى غاسلاً ولا ماسحاً على الحقيقة. ويزيد ذلك تأكيداً ما روي أن الرضا عليه السلام، رأى المأمون يتوضأ بنفسه، والغلام يصب الماء عليه، فقرأ عليه السلام: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[٣٩]. فإذا كان هذا مكروهاً فينبغي أن يكون الأول محظوراً»[٤٠].

وعن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه ^ ، عن علي عليه السلام قال: ‹قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: خِصْلَتَانِ لاَ أُحِبُّ أَنْ يُشَارِكَنِي فِيهِمَا أَحَدٌ: وُضُوئِي؛ فَإِنَّهُ مِنْ صَلاتِي، وَصَدَقَتِي؛ فَإِنَّهَا مِنْ يَدِي إِلَى يَدِ السَّائِلِ، فَإِنَّهَا تَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ›[٤١].

الشرط الخامس: الترتيب: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ}[٤٢]، وفي هذه الآية دلالة على وجوب أن يبدأ المتوضئ بغسل وجهه، ثمّ بيده اليمنى، ثمّ اليسرى، ثمّ يمسح الرأس، ثمّ يمسح الرّجلين. والدلالة في الآية «على وجوب الترتيب في الوضوء من وجهين:

(أحدهما): أن (الواو) توجب الترتيب لغة على قول الفراء وأبي عبيد، وشرعا على قول كثير من الفقهاء، ولقوله عليه السلام: (ابدأوا بما بدأ الله به).

(والثاني): أنَّ الله أوجب على من يريد القيام إلى الصلاة إذا كان محدثاً، أن يغسل وجهه أولاً، لقوله: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ}[٤٣]، و(الفاء) توجب التعقيب والترتيب بلا خلاف، فإذا ثبت أن البداءة بالوجه هو الواجب، ثبت في باقي الأعضاء؛ لأنَّ أحداً لا يفرّق. ويقويه قوله عليه السلام للأعرابي، حين علّمه الوضوء، فقال: ‹هَذَا وُضُوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ الصَّلاةَ إِلاّ بِهِ›، فإن كان رتّب فقد بين أنه الواجب الذي لا يقبل الله الصلاة إلا به، وإن لم يرتب، لزم أن يكون من رتب لا يجزيه، وقد اجتمعت الأمة على خلافه»[٤٤].

وعن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ‹تَابِعْ بَيْنَ الوُضُوءِ كما قال تعالى، ابدأ

بالوجه، ثم باليدين، ثمَّ امسح الرأس والرجلين، ولا تُقَدِّمَنَّ شيئا بين يدي شيء تُخالف ما أُمرتَ به، فإن غَسَلت الذراع قبل الوجه فابدأ بالوجه، وأعدْ على الذّراع، وإن مسحتَ الرِّجْلَ قبل الرَّأس، فامسح على الرَّأْسِ قبل الرّجل، ثُمَّ أعد على الرّجل، ابدأ بما بدأ الله بِهِ<(٤٥).

الشرط السادس: الموالاة: بأن يوالي بين غسل الأعضاء، ولا يؤخر بعضها، ويمسح الرأس والرجلين ببقية نداوة الوضوء، فـ "في الآية أيض دلالة على أن الموالاة واجبة في الوضوء؛ لأن الأمر شرع يجب على الفور، ولا يسوغ فيه التراخي إلا بدليل، فإذا ثبت ذلك، وكان المأمور بالصلاة في وقتها مأمور بالوضوء قبلها، فيجب عليه فعل الوضوء عقيب توجه الأمر إليه. وكذلك جميع الأعضاء الأربعة؛ لأنه إذا غسل وجهه، فهو مأمور بعد ذلك بغسل اليدين، ولا يجوز له تأخيره. فإن فرق وضوءه للضرورة حتى يجف ما تقدم منه، استأنف الوضوء من أوله، وإن لم يجف وصَله من حيث قطعه، إذا كان الهواء معتدلًا، وإن والى بين غسل أعضاء الطهارة ومسحها، وجف شيء منها قبل الفراغ، لحر شديد أو ريح من غير تقصير منه فيه، فلا بأس إذا بقيت نداوة تكفي للمسح؛ لأنه قال: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}"(٤٦)(٤٧).

وقد ورد في بيان ذلك عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: "عَثَرْتُ فانْقَطَعَ ظفِري، فَجَعَلْتُ عَلى إِصْبَعِي مَرَارَةً، فَكَيفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ؟ قَالَ عليه السلام: <**يُعْرَفُ هَذَا وَأَشْبَاهه مِنْ كِتَابِ اللهِ** عز وجل: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}(٤٨). **امسح عليه**>"(٤٩). وبغض النظر عن الكلام في سند الرواية، فإنّ التقريب فيها، هو "أنّ الإمام عليه السلام أحال الجواب عن حكم المسألة وبيانه إلى الآية الشريفة، وأنّه يعرف منها. ومعلوم أنّ معرفته منها مبنيّة على عدم كون تعسّر الشّرط موجب لسقوط المشروط، بأن يكون المنفي بسبب الحرج، خصوصَ مباشرة اليد الماسحة لبشرة الرّجل، فلا ينتفي بانتفائه أصل المسح المستفاد من آية الوضوء، فيمسح على المرارة، إذ لولاه لم يكن معرفة حكم المسح على المرارة من آية نفي الحرج؛ لأنّها في ظاهر النّظر، تدلّ على سقوط المعسور، وهو المسح على البشرة، ولا

يدل على ثبوت المسح، فيحتاج إلى إثبات المسح على المرارة إلى دليل آخر، غير آية نفي الحرج. والقول بأنّ الإمام عليه السلام إنّما أحال سقوط المسح على البشرة إلى الآية، وأنّه يستفاد منها، ولا يحتاج إلى السؤال. وأمّا وجوب المسح على المرارة، فإنّما هو منه عليه السلام، وليس مما يدلّ عليه الآية الشريفة، فاسدٌ؛ لأنّ السؤال إنّما هو عن تمام كيفية الوضوء، لا عن خصوص ثبوت المسح على البشرة وسقوطه، فتدبّر. فإذ دلّ على ثبوت المشروط مع سقوط شرطه بالتعسّر"[٥٠].

ومما تقدم اتضح سر من أسرار اشتمال آية الوضوء على قوله تعالى: {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ}[٥١]، فتأمل.

الشرط السابع: عدم استئناف ماء جديد للمسح: "وتدل الآية -بقريب من ذلك- على أن مسح الرأس والرجلين ببقية نداوة الوضوء، من غير استيناف ماء جديد؛ لأنّ الأمر كما هو على الإيجاب شرع ، فهو على الفور، وإذا لم يشتغل المتطهر بأخذ الماء الجديد، واكتفى بالبلة، فهو على الفور؛ ولأن اسم المسح يقع على كليهما، فلا يصح أن يميز، ويخصص بأحدهما، إلا بقرينة تنضم إليه. وإجماع الطائفة -الذي هو حجة-، حاصل على أن المسح ببقية النداوة، وهو من أوثق القرائن على أنّه سبحانه لم يذكر في الآية استيناف الماء، وهذا قد مسح.

فإن قيل: ولم يذكر المسح ببقية النداوة أيض .

قلنا: نحمل الآية على العموم، ونخصها -بدليل إجماع الفرقة- على أن المسح في الشرع هو أن يبل المحل بالماء من غير أن يسيل، والغسل إمرار الماء على المحل حتى يسيل مع الاختيار"[٥٢].

ويكتفي الكاتب بهذه الشروط رغم إمكانية استخراج شروط أُخرى، كشرط عدم المانع من استعمال الماء لمرض أو لحاجة ماسّة، كما هو جليّ في الآية الكريمة إذ أُشير إلى سببيتهما في العدول عن الماء إلى التيمم.

المبحث الرّابع: آداب الوضوء

والآية الكريمة لم تتعرض إلى شيء من آداب الوضوء، نعم هناك ما قد يُتوهم شمول الآية لها، وهي الآداب الآتية:

الأدب الأول: أن يكون الوضوء بمدّ: قال تعالى: {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}(٥٣)، و"مع تحقق الغسل يحصل الامتثال"(٥٤)، وعن النبي ' أنه قال: >خيار أمتي يتوضؤون بالماء اليسير<(٥٥).

نعم، ورد استحباب الوضوء بمدّ، فعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: >كانَ رسولُ اللهِ': يَتَوَضَّأُ بِمدّ، ويغتسل بِصَاع. والمدّ رطل ونصف، والصّاع ستة أرطال<(٥٦). فالمدّ على هذا الأساس يساوي ربع الصّاع الشرعي. وفي مقدار المدّ بالكيلو قولان:

القول الأول: "يُساوي ثلاثة أرباع الكيلو تقريباً"(٥٧)، أي: سبعمائة وخمسون غراماً . وهو قول المشهور.

القول الثاني: يُساوي "ثمانمائة وسبعون غراماً تقريباً . والظاهر أنّ المقدار المذكور إنّما يستحب مع الإتيان بآداب الوضوء"(٥٨).

ومفاد بعض النصوص كراهة الإكثار والافراط، فعن علي عليه السلام أنه قال: >قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الوضوء بمدّ، والغسل بصاع، وسيأتي أقوام بعدي يستقلون ذلك، فأولئك على خلاف سنتي، والآخذ بسنتي معي في حظيرة القدس<(٥٩).

ومرّ رسول الله ' بسعد وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السرف يا سعد؟! قال: أوَفي الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار<(٦٠).

وعن السّكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >من تَعَدَّى في الوُضُوءِ كَانَ كَنَاقِصِهِ<(٦١).

وعن حريز، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >إنَّ للهِ ملكاً يكتب سرفَ الوُضوءِ كمَا يكتب عُدوانه<(٦٢).

الأدبُ الثّاني: غسلُ اليدين: الناظر في آية الوضوء لا يجد ذكر لغسل

اليدين قبل إدخالهما الإناء، نعم، ورد ما يدلّ على ذلك، كما عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "سُئل كم يفرغ الرّجل على يده قبل أن يدخلهما في الإناء؟ قال: >واحدة من حدث البول، وثنتين من الغائط، وثلاثة من الجنابة<"[٦٣].

الأدب الثّالث: المضمضة والاستنشاق: لما ذكر الله تعالى الأعضاء الواجب غسلها في آية الوضوء لم يذكرهما. والظاهر أنّهما لا يُعدّان من الوجه ليغسلا بالتبع، فعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >سَأَلْتُهُ عَنِ المَضْمَضَةِ وَالاِسْتِنْشَاقُ؟ قَالَ: لَيْسَ هُمَا مِنَ الوُضُوء، هُمَا مِنْ الْجَوفِ<[٦٤].

وعن أبي بكر الحضرمي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >ليسَ عَلَيْكَ مَضْمَضَةٌ ولا اسْتِنْشَاقٌ لأَنَّهُمَا مِنْ الْجَوفِ<[٦٥].

نعم هما من السّنّة، لورود العديد من الأخبار، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: >المَضْمَضَةُ والاسْتِنْشَاقُ بِالْمَاءِ عِنْدَ الطَّهُورِ، طَهُورٌ لِلفَمِ والأَنْفِ<[٦٦].

وستأتي الإشارة إلى روايات أخر، في مبحث ثمرات الوضوء، إن شاء الله تعالى.

المبحث الخامس : نواقض الوضوء

الظّاهر أنّ الآية المباركة أشارت إلى ثلاثة من نواقض الوضوء:

النّاقض الأول: النوم الغالب على حاستي السمع والبصر: ففي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ}[٦٧]، "لم يكن من بدّ من إضمار حدثٍ يتعلّق به وجوب الوضوء؛ لأنّ الوضوء لا يجب بالقيام إلى الصلاة ولا بإرادة القيام إليها"[٦٨]، و"قد نقل أهل التفسير جميع : أنّ المراد بالآية: إذا قمتم من النوم. وأنّ الآية وردت على سبب معروف يقتضي تعلقها بالنّوم، فكأنّه تعالى قال: إذا قمتم إلى الصلاة من النوم فتوضأوا. وهذا -الظاهر- يوجب الوضوء من النّوم على الإطلاق"[٦٩]، أي: من كلّ نومٍ.

والأخبار الشريفة قد أشارت إلى ذلك صراحة، فعن بكر بن أعين قال: قلت

لأبي عبد الله عليه السلام قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ}[٧٠].

ما معنى: {إِذَا قُمْتُمْ}؟ قال: >إذا قمتم من النوم، قلت: ينقض النوم الوضوء؟ قال: نعم، إذا كان نوم يغلب على السمع، فلا يسمع الصوت<[٧١].

وعن بكير بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}[٧٢]، قلت: ما عنى بها؟ قال: >مِنَ النَّوْمِ<[٧٣].

النّاقض الثاني: الجنابة: وهو المستفاد من قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}[٧٤]، والجنابة تنقض الوضوء وتوجب الغسل أيض ، وهي أعم من ملامسة النساء، إذ قد تتحقق الجنابة بلا ملامسة.

النّاقض الثالث: البول والغائط والرّيح: ويدلّ عليه قوله تعالى: {أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}[٧٥].

عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام: ما ينقض الوضوء؟ قال: >مَا يَخْرُجُ مِنْ طَرَفَيْكَ الأَسْفَلَيْنِ، مِنَ الدُّبُرِ والذّكَرِ، غَائِطٌ أَوْ بَوْلٌ أَوْ مَنِيٌّ أَوْ رِيحٌ. والنَّوْمُ حَتَّى يُذْهِبُ الْعَقْلَ، وَكُلَّ النَّوْمِ يُكْرَهُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تَسْمَعُ الصَّوْتَ<[٧٦].

الناقض الرابع: ملامسة النساء: ويدل عليه قوله تعالى: {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}[٧٧]. والملامسة تنقض الوضوء وتوجب الغسل أيض ، أمنى من ذلك أم اقتصر فيه على التقاء الختانين.

المبحث السادس: أقسام الوضوء

أشارت آية الوضوء إلى الصلاة كغرض من أغراض الطهارة، ولأهمية الموضوع يمكن تقسيم الوضوء إلى قسمين:

(القسم الأول): الوضوء الغرضي: وهو الوضوء الذي يؤتى به لغرض من الأغراض، والأغراض هي كما يلي:

الغرض الأول: صحة فعل: بمعنى أنّ هناك بعض الأعمال لا تصح إلا إذا

كان العامل بها على طهارة، كالطواف ومسّ القرآن، والآية الكريمة أشارت إلى الصلاة، والنصوص كثيرة منها: عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: >لاَ صَلاةَ إلاَّ بِطَهُورٍ<[٧٨].

الغرض الثاني: كمال فعلٍ من الأفعال: وذلك كما في كمالات الأعمال الآتية:

العمل الأول: النوم: فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >مَنْ نَامَ عَلَى الْوُضُوءِ، إنْ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي لَيْلِهِ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ شَهِيدْ<[٧٩].

عن محمد بن كردوس، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >مَنْ تَطَهَّرَ ثُمَّ أوَى إِلَى فِرَاشِهِ، بَاتَ وَفِرَاشِهِ كَمَسْجِدِهِ<[٨٠].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >مَنْ تَطَهَّرَ ثُمَّ أوَى إِلَى فِرَاشِهِ، بَاتَ وَفِرَاشِهِ كَمَسْجِدِهِ، فَإِنْ ذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وُضُوءٍ فَلْيَتَيَمَّم مِنْ دِثَارِهِ [و]كَائِنَاً ما كَانَ لَمْ يَزَلْ فِي صَلاةٍ ما ذَكَرَ اللهَ عز وجل<[٨١].

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام -في حديث-: >إن سلمان، روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَنْ بَاتَ عَلَى طهْرٍ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا الَّلَيْلَ كُلَّهُ<[٨٢].

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: >إذا نام الإنسان، عرج بنفسه حتى يؤتى بها العرش، فإن كانت طاهرة، أذن لها في السجود، وإن كانت ليست بطاهرة لم يؤذن لها في السجود<[٨٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >من نام متوضئاً، كان فراشه له مسجداً، ونومه له صلاة حتى يصبح، ومن نام على غير وضوء، كان فراشه له قبراً، وكان كالجيفة حتى يصبح<[٨٤].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: >طَهِّرُوا هَذِهِ الأَجْسَاد طَهَّرَكُمُ اللهُ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَبِيتُ طَاهِراً إلاَّ بَاتَ مَعَهُ مَلِكٌ فِي شَعَارِهِ، لاَ يَنْقَلِبُ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئَاً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ<[٨٥].

وعن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: >يأتي

على الناس زمان ترتفع فيه الفاحشة، -إلى أن قال:- فَمَنْ بَلَغَ مِنْكُمْ ذَلِكَ الزّمَان فَلا يَبِيتَنَّ لَيْلَةً إلاَّ عَلَى طهْرٍ، وإنْ قَدِرَ أَنْ لا يَكُونَ فِي جَميعِ أَحْوالِهِ إلاَّ طَاهراً فَلْيَفْعل، فَإِنَّهُ عَلَى وَجَلٍ لا يَدْرِي مَتَى يَأْتِيهِ رَسُولُ اللهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ<(٨٦).

العمل الثاني: قراءة القرآن: عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: >لقارئ القرآن بكل حرف يقرأ في الصلاة قائماً مائة حسنة، وقاعداً خمسون حسنة، ومتطهراً في غير الصلاة خمس وعشرون حسنة، وغير مُتطهرٍ عشر حسنات<(٨٧).

وحملت بعض النصوص على كراهة القراءة من غير وضوء، مثل ما في حديث الأربعمائة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: >لا يقرأ العبد القرآن إذا كان على غير طهر حتى يتطهر<(٨٨).

العمل الثالث: مباشرة الحامل: فعن أبي سعيد الخدري قال: أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام فقال -فيما قال-: >يا علي، إذا حملت امرأتك فلا تجامعها إلا وأنت على وضوء، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون أعمى القلب، بخيل اليد<(٨٩).

العمل الرابع: الاشتغال بالحاجات: فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: >إِنِّي لأَعْجَبُ مِمَّنْ يَأْخُذُ فِي حَاجَةٍ وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ كَيْفَ لاَ تُقْضى حَاجَتُهُ<(٩٠).

وعبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: >من طلب حاجة وهو على غير وضوء، فلم تقض، فلا يلومن إلا نفسه<(٩١).

العمل الخامس: دخول المسجد: فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: >مَنْ أَحْسَنَ الطَّهُورَ ثُمَّ مَشَى إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ فِي صَلاةٍ مَا لَمْ يحْدِثْ<(٩٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >لا تدخل المساجد إلا بالطهارة<(٩٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: >إذا دخلت المسجد وأنت تريد أن تجلس، فلا تدخله إلاَّ طاهرا<(٩٤). وهذا الدخول سواء لأداء عبادة أو لم يكن كذلك، والثمرة نتعرف عليها من خبر مرازم بن حكيم، عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: >عَلَيْكُمْ بِإِتْيَانِ الْمَسَاجِدَ فَإِنَّهَا بُيُوتُ اللهِ فِي الأَرْضِ، مَنْ أَتَاهَا مُتَطَهِّراً طَهَّرَهُ اللهُ

مِنْ ذُنُوبِهِ، وَكُتِبَ مِنْ زُوَّارِهِ<(٩٥).

وعن عبد الله بن جعفر، عن أبيه، عن جده ^ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تبارك وتعالى: >إنَّ بيوتي في الأرض المساجد، تُضيء لأهل السماء كما تُضيء النجوم لأهل الأرض، ألا طوبى لمن كانت المساجد بيوته، ألا طوبى لعبد توضأ في بيته ثم زارني في بيتي، ألا إنَّ على المزور كرامة الزائر، ألا بَشِّر المشائين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة<(٩٦).

وعن مرازم بن حكيم، عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: >عَلَيْكُمْ بإتيان المساجد، فإنّها بيوت الله في الأرض من أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه<(٩٧).

الغرض الثالث: رفع كراهة فعل: وذلك كما في رفع كراهة نوم المجنب، فعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حدثني أبي، عن جدي، عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: >لا ينام المسلم وهو جنب، ولا ينام إلا على طهور، فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد، فإن روح المؤمن تروح إلى الله تعالى، فيلقيها ويبارك عليها، فإن كان أجلُها قد حضر جعلها في مكنون رحمته، وإن لم يكن أجلها قد حضر، بعث بها مع أمنائه من الملائكة فيردوها في جسده<(٩٨).

وعن عبيد الله بن علي الحلبي قال: >سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الرجل، أينبغي له أن ينام وهو جنب؟ فقال: يكره ذلك حتى يتوضأ<(٩٩).

الغرض الرابع: تحقق أمر: كتحقيق الآتي:

الأمر الأول: الكون على الطهارة: ويستفاد من النصوص كما في الحديث القدسي، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: >يقول الله تعالى: من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ ولم يصل ركعتين، فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ، وصلى ركعتين، ودعاني ولم أجبه فيما سألني من أمر دينه ودنياه، فقد جفوته، ولست برب جاف. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني<(١٠٠).

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: >يا أنس، أكثر من الطهور يزد الله في عمرك. فإن استطعت أن تكون بالليل والنهار على طهارة، فافعل، فإنّك تكون إذا متّ على

طهارة، متّ شهيداً<(١٠١).

والوضوء مذكّر بالموتة الذي تريد، يحركك إليه، ويعمق ارتباطك به، إنّها موتة الشهيد.

وعن عبد الله بن سلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: >مَنْ تَوَضّأَ لِكُلِّ حَدَثٍ، وَلَمْ يَكُنْ دَخَّالاً عَلَى النِّسَاءِ فِي البُيُوتَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ يَكْتَسِبُ مَالاً بِغَيْرِ حَقٍّ، رُزِقَ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ حِسَابٍ<(١٠٢).

الأمر الثاني: دفع النوازل: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لأبي ذر: >إذا نَزَلَ بِكَ أمرٌ عَظِيمٌ فِي دِينٍ أو دُنْيَا، فتوضأ وارفع يديك، وقل: يا الله، سبع مرات، فإنه يستجاب لك<(١٠٣).

الأمر الثالث: تعبّد الحائض في وقت كل صلاة وذكر الله مقدار صلاتها، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: >إذا كانت المرأةُ طامثاً فلا تحلُّ لَهَا الصَّلاةُ، وعليها أن تتوضأ وضوءَ الصَّلاةِ عندَ وقتِ كُلِّ صلاةٍ، ثُمَّ تقعدَ فِي موضعٍ طاهرٍ وتذكرَ اللهَ عز وجل، وَتُسَبِّحَهُ، وتحمده، وتهلّله، كمقدار صلاتها، ثم تفرغ لحاجتها<(١٠٤).

عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: >إنّا نَأمُرنِسَاءَنَا الحيَّضَ أَنْ يَتَوَضَّأْنَ عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ صَلاةٍ، فَيَسْبُغَنَ الوُضُوءَ، وَ يَحْتَشِينَ بِخِرقٍ، ثُمَّ يستقبلن القبلة من غير أن يفرضن صلاة، فيسبّحن، ويكبّرن، وَيُهَلّلْنَ، وَلاَ يَقْرأْنَ قُرْآنَاً<(١٠٥).

(القسم الثاني): الوضوء التجديدي: وهو التوضؤ من غير حدث سابق، بل يعاود الوضوء مجدد على وضوئه الذي لم ينتقض.

ولهذا الوضوء دوافع نذكر منها الآتي، وسيأتي ذكر دوافع الوضوء بنحو عام إن شاء الله تعالى:

الدافع الأول: الاستجابة لنداء الله تعالى: فقد ورد أنّ علي عليه السلام كان يتوضأ لكلّ صلاة، ويقرأ قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ}(١٠٦)(١٠٧).

والمؤمن يقتدي بإمامه، يتوضأ كلّما أراد القيام إلى الصلاة، يستذكر آية

الوضوء التي تبتدئ بخطاب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ}، فينهض ويقول: لبيك اللهم لبيك.

الدّافع الثاني: التّرقي في عالم الطهر: فعن النبيﷺ أنه قال: ›الوُضُوءُ عَلَى الوُضُوءِ، نُورٌ عَلَى نُورٍ‹[١٠٨]، ومن شأن المداومة على الطهارة، أن تكون سبب لارتقاء المتطهر إلى عالم القدس.. فنور الشريعة المتمثل في الوضوء أوجب صفاء الظاهر والباطن، فهو نور على نور، موجب لثبات السالك واستقامته.

مواضع الوضوء التجديدي:

إنّ الأخبار الشريفة أكدت على موارد يجدد فيها الوضوء:

المورد الأول: لكلّ صلاة أراد أن يُصليها، عن أسماء بنت زيد بن الخطاب أنّ عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الغسيل حدثها: ›إنّ النبيﷺ أمر بالوضوء عند كلّ صلاة، فشقّ ذلك عليه، فأُمر بالسّواك، ورفع عنه الوضوء، إلاّ من حدث‹[١٠٩].

ولهذا النّص قال قوم: «كان الفرض أن يتوضأ لكلّ صلاة، ثمّ نسخ ذلك بالتخفيف»[١١٠].

وعن رسول اللهﷺ أنه: ›كان يجدد الوضوء لكل صلاة، يبتغي بِذَلك الفضل‹[١١١].

وورد مثله عن أمير المؤمنينعليه السلام[١١٢].

وعن أبي عبد الله جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده ^ قال: ›إنّ علي بن أبي طالبعليه السلام كان يتوضأ لكل صلاة ويقرأ: ›إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ‹[١١٣]. قال جعفر بن محمدعليه السلام: ›كان أمير المؤمنينعليه السلام يطلب بذلك الفضل. وقد جمع رسول اللهﷺ، وجمع أمير المؤمنينعليه السلام، وجميع أصحاب رسول اللهﷺ صلوات بوضوء واحد‹[١١٤].

وعـن سـليمان بـن بريـدة عـن أبيـه: ﴿أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلاةٍ، فلمَّا كَانَ عَامُ الْفَتْحِ صَلّى الصَّلوات بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ. فقال عمر: يا رسول الله، صَنَعْتَ شَيْئاً مَا كُنْتَ تَصْنَعهُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: عَمْدَاً فَعَلْتُهُ﴾[١١٥].

والقدر المتيقن من قوله: (لكلّ صلاة)، هي: الفرائض.

المورد الثاني: لفرائض الصباح والعشائين: أشرت إلى أنّ تجديد الوضوء لكل صلاة، إلّا أنّ تخصيص التجديد في بعض الأخبار ببعض الفرائض، يعني وجود خصوصية أكبر، ولذا ينبغي التركيز بشكل أخص على وضوء المغرب والعشاء والصباح. أما الصباح فلموثقة سماعة ابن مهران قال: قال أبو الحسن موسى عليه السلام: ﴿ومن توضأ لصلاة الصبح، كان وضوؤه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في ليلته، إلا الكبائر﴾[١١٦].

وأمّا المغرب فلموثقة سماعة نفسها -الواردة- عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: ﴿من توضأ للمغرب، كان وضوؤه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في نهاره، ما خلا الكبائر﴾[١١٧].

وهذا ما رواه الكليني + ، أما البرقي + فقد ذكر تفصيلاً لم يُذكر في نص الكليني، عن سماعة بن مهران، قال: "كنت عند أبي الحسن موسى عليه السلام فصلى الظهر والعصر بين يدي، وجلست عنده حتى حضرت المغرب، فدعا بوضوء فتوضأ وضوء الصلاة، ثم قال لي: توضأ فقلت: إنّي على وضوء، فقال: وأنا قد كنت على وضوء، ولكن من توضأ للمغرب، كان وضوءه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في ليله، ما خلا الكبائر"[١١٨].

فالنـص يُشـير إلـى أنّ المؤمـن قـد يكـون علـى وضـوء، ويصـدق عليـه أنـه صلـى المغـرب بوضـوء، لكنـه ليـس بوضـوء المغـرب، وقـد يكـون علـى وضـوء قبـل الفجـر، كأن يكـون مشـتغلاً بصـلاة الليـل، وحيـن يدخل الفجـر، فقـد صلـى الصـلاة بوضـوء، لكنـه ليـس بوضـوء الصبـح، ولـذا فلينتبـه المؤمـن إلـى هـذا الأمـر، ولا يحـرم نفسـه مـن هـذه العطـاءات

الضخمـة بتجديـد وضوئـه.

وأما عن صلاة العشاء فلما عن أبي قتادة، عن الرضا عليه السلام قال: >تجديد الوضوء لصلاة العشاء يمحو لا والله، وبلى والله<[119].

المورد الثالث: لكل أمرٍ عبادي: عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >من جدّد وضوءه لغير صلاة، جدّد الله توبته من غير استغفار<[120].

وإنّ قوله: >لغير صلاة<، وإن احتمل في الأمور العبادية كقدر متيقن، كمن يجدد وضوءه لتلاوة القرآن، إلاّ أنّه لا مانع من دخول كلّ ما ورد الوضوء لأجله، كمن جدد للكون على الطهارة، أو جدد لتكرار الأكل حال الجنابة ونحو ذلك.

المورد الرابع: للإتيان بالوضوء بنفسه: عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: >إنَّ الطُّهْرَ عَلَى الطُّهْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ<[121]. وهو يصدق على الغسل وعلى الوضوء.

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله، عن آبائه ^ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام -في حديث الأربعمائة- قال: >الوُضوءُ بَعْدَ الطُّهْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ فَتَطَّهَرُوا، وإيّاكُمْ والكَسَلُ، فإنّ منْ كَسَلَ لَمْ يُؤد حقّ الله<[122].

ولعلّ >المراد بالطّهر: الغسل. وما ورد من عدم مشروعية الوضوء بعد غسل الجنابة، يكون في صورة كون المراد به: رفع الحدث، فالحق معهم<[123].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: >الوُضُوءُ عَلَى الوُضُوءِ، نُورٌ عَلَى نُورٍ<[124].

وعن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >مَن جَدَّدَ وُضُوءَهُ لِغَيْرِ حَدَثٍ، جَدَّدَ اللهُ تَوْبَتَهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ<[125].

رواه المجلسي+ في بحاره عن الصدوق في ثواب الأعمال، والظاهر أنه الحديث المتقدم بلفظ (جدد وضوءه لغير صلاة)، "ومقتضى إطلاق هذه الروايات، عدم الفرق في استحباب الوضوء التجديدي بين التخلل بفصل فعل أو زمان بين الوضوء وعدمه، ولا بين الإتيان به لنفسه وإتيانه لأجل فعل آخر مشروط به، ولا بين احتمال طروء الحدث في حقه وعدمه، بل مقتضى إطلاقها هو الحكم باستحباب التجديد ثالثا ورابعا فصاعدا ، كما إذا توضأ بغاية قراءة القرآن ثمّ توضأ بغاية الصلاة

المندوبة، ثمّ توضأ بغاية ثالثة مستحبة وهكذا"[١٢٦].

المبحث السابع: دوافع الوضوء

يمكن القول بأنّ الآية الكريمة أشارت إلى بعض الأمور التي من شأنها أن تدفع الإنسان إلى التّطهر بالوضوء، وذلك كما في الدوافع الآتية:

الدافع الأول: شكر الله تعالى: إذ إنّه تعالى أنعم على عباده بما يُطهر أبدانهم ويكفر ذنوبهم، وأداء ما كلّف الله تعالى به في آية الوضوء، كالقيام بنعمة الوضوء، هو شكرٌ، واعتراف بالنعمة، وتقدير لها. إذ قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، معناه: ويريد الله مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم إياه، فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصلاة مع وجود الماء، والتيمم مع عدمه، أن يتم نعمته بإباحته لكم التيمم، وتصييره لكم الصعيد الطيب طهور ، رخصة منه لكم في ذلك مع سوابغ نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، معناه: ولتشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم بطاعتكم إياه فيما أمركم به، ونهاكم عنه»[١٢٧].

ومن النافع الإشارة إلى دوافع أخرى يمكن استفادتها من الروايات:

الدافع الثاني: الإيمان بالآخرة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نجّو أَنْفَسَكُمْ، اعْمَلُوا خَيْراً، وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمْ الصَّلاةُ، ولا يُحَافِظ عَلَى الوضوء إلاّ كُلُّ مُؤْمِنٍ﴾[١٢٨].

واحتمالان خطرا في بال الكاتب في معنى الإيمان الدافع إلى الوضوء:

الاحتمال الأول: أنّ المؤمن مُسلّم ومُصدق، ولذا لا يُفرط فيما أكد عليه النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته ^ . ويستحي أن يلتقي بنبيّه صلى الله عليه وآله مُقصر في سنته.

الاحتمال الثاني: الاعتقاد الجازم باليوم الآخر، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ﴿كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله إِذَا بَالُوا، تَوَضَّؤُوا أَوْ تَيَمَّمُوا، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُمُ السَّاعَةُ﴾[١٢٩].

ولعله إشارة إلى رغبتهم في الموت ولقاء الله طاهرين. وسيأتي بيان أوسع في دافعية الموت في البقاء على الطهارة.

الدافع الثالث: الاستعداد للموت: عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: >يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَرْتَفِع فِيهِ الْفَاحِشَةُ -إلى أن قال:- فَمَنْ بَلَغَ مِنْكُمْ ذَلِك الزَّمَان، فَلا يَبِيتَنَّ لَيْلَهُ إلاَّ على طهْرٍ، وَإِنْ قَدِرَ أَنْ لاَ يَكُونَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ إلاّ طَاهِراً فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّهُ عَلَى وَجَلٍ، لاَ يَدْرِى مَتَى يَأْتِيهِ رَسُولُ اللهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ<[١٣٠].

وسرّ المداومة على الوضوء حال اليقظة أو حال النوم بالتوضئ، لأنّه يجعل الموت العاديّ موت استثنائي ، بحيث ينال درجة الشهادة، إن مات على هذا الحال، وهذا ما أشارت إليه العديد من الأخبار كما عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: >مَنْ نَامَ عَلَى الْوُضُوءِ، إنْ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي لَيْلِهِ مَاتَ شَهِيداً<[١٣١].

وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: >إنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَبَداً عَلَى وُضُوءٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّ مَلَكَ الْمُوتِ إِذَا قَبَضَ رُوحَ الْعَبْدِ وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ كَتبَ لَه شَهَادَةً<[١٣٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: >إنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا تَزَالَ عَلَى وُضُوءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ أَتَاهُ الْمَوتُ وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ، أُعْطِيَ الشَّهَادَةَ<[١٣٣].

فالاستعداد للموت دافع، وثمرةُ موتة المتوضئ موتة الشهداء، يدفع المؤمن للمواظبة، فطوبى لمن وفقه الله تعالى لدوام الطهارة.

الدّافع الرّابع: شوق الرّجوع إلى الله تعالى: ورد عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >مَنْ جَدَّدَ وُضُوءَهُ لِغَيْرِ حَدَثٍ، جَدَّدَ اللهُ تَوْبَتَهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ<[١٣٤].

ومن تجددت توبته، أُزيحت عنه حجب البعد والحرمان.

ومن الواضح أنّ من جدد الله توبته غفر له. وهذا ما صرّح به ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >مَنْ جَدَّدَ الْوُضُوءَ جَدَّدَ اللهُ لَهُ الْمَغْفِرَةَ<[١٣٥].

ووفق هذا المعنى، يخطر في بال الكاتب الفاتر، أنّ المؤمن المكثر من

الوضوء، هو من مصاديق من يشملهم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١٣٦].

ويتميز المؤمن في مصداقية هذه الآية عليه، إن كان مُكثر ولم يكن عاصي؛ لما ورد عن أبي جميلة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُفَتَّنُ التَّوابُ، وَمَنْ لاَ يَكُونُ ذلكَ منْهُ كَانَ أفْضَلَ﴾[١٣٧].

الدافع الخامس: التّطلع إلى عطاءات الله تعالى: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه: ﴿كَانَ يُجَدِّدُ الْوُضُوءَ لِكُلِّ صَلاةٍ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ الْفَضْلَ﴾[١٣٨]. أي: الرّبح، كالحصول على المغفرة، والزيادة في الثواب.

ويمكن التعرف على العطاءات الآتية كأرباح وثمرات للوضوء، وكل واحد منْها يشكّل مطمع ودافع للحفاظ على الطهارة، ويمكن تقسيم العطاءات إلى قسمين:

القسم الأول: العطاءات العامة: وهي العطاءات المترتبة على الوضوء كلّه، وهي كما يلي:

العطاء الأول: سعة الرزق: ورد أنه شُكي إلى النبي صلى الله عليه وآله قلّة الرزق فقال صلى الله عليه وآله: ﴿أَدِمِ الطَّهَارَةَ يُدِمْ عَلَيْكَ الرِّزْقَ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ فَوَسَّعَ عَلَيْهِ الرِّزْقَ﴾[١٣٩].

العطاء الثّاني: الحسنات: عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿الوُضوءُ بَعْدَ الطّهُورِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ فَتَطَهَّرُوا﴾[١٤٠].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ﴿الطّهْرُ عَلَى الطُّهْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ﴾[١٤١].

وعن إبراهيم بن محمد بن حمران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿مَنْ تَوَضَّأَ فَتَمَنْدَلَ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَةٌ. وَإِنْ تَوَضَّأَ وَلَمْ يَتَمَنْدَلْ، حَتَّى يَجِفَّ وُضُوؤُهُ، كَانَتْ لَهُ ثَلاثُونَ حَسَنَةً﴾[١٤٢].

والحسناتُ ذات قيمةٍ كبيرةٍ في تطهير الإنسان؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[١٤٣].

العطاء الثالث: تكفير الخطايا: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: ﴿إِنَّ الوُضُوءَ

يُكَفِّرُ مَا قَبْلَهُ<(١٤٤).

وعن أبي وائل عن سلمان قال: >إذا توضأ الرجل المسلم اجتمعت الخَطَايَا فَوْقَ رَأْسِهِ، فإذا قام إلى الصلاة، تحاتت عنه كتحات ورق الشَّجَرِ<(١٤٥).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: >أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ يُكَفِّرِ اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَزِيدُ فِي الْحَسَنَاتِ؟ قِيلَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى هذه المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وما من أحد يخرج من بيته متطهراً، فيصلي الصلاة في الجماعة مع المسلمين، ثم يقعد ينتظر الصلاة الأخرى إلا والملائكة تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه<(١٤٦).

«والمكاره جمع مكره، وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، والكره بالضم والفتح: المشقة. والمعنى: أن يتوضأ مع البرد الشديد، والعلل التي يتأذى معها بمس الماء، ومع إعوازه والحاجة إلى طلبه، والسعي إلى تحصيله، أو ابتياعه بالثمن الغالي، وما أشبه ذلك من الأسباب الشّاقة»(١٤٧). طبع شريطة أن لا تكون المكاره مما يحرم معها استعمال الماء.

وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله قال -في حديث-: >أما أنت يا أخا ثقيف، فإنك جئت تسألني عن وضوئك وصلاتك، مالك في ذلك من الخير. أما وضوؤك: فإنّك إذا وضعت يدك في إنائك، ثم قلت: «بسم الله»، تناثرت منها ما اكتسبت من الذنوب. فإذا غسلت وجهك، تناثرت الذنوب التي اكتسبتها عيناك بنظرهما وفوك. فإذا غسلت ذراعيك تناثرت الذنوب عن يمينك وشمالك. فإذا مسحت رأسك وقدميك، تناثرت الذنوب التي مشيت إليها على قدميك، فهذا لك في وضوئك<(١٤٨).

العطاء الخامس: القرب من الله تعالى: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >مَنْ تَوضأ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، اسْتَوجَبَ رِضْوانَ الله الأَكْبر<(١٤٩)، فيرضى الله تعالى من العبد رضى لا سخط بعده، ويرضى العبد من الله في جميع ما يعطيه في الآخرة أو في الدنيا، فإنه متعلق بالآخرة، ولا رتبة للعبد أعلى من الرّضا بقضائه والتّسليم

لأمره، وتفويض الأمور إليه تعالى، والتوكل عليه»[١٥٠].

العطاء الرابع: تجسد أثر الوضوء في نور متلألئ بين العينين: وروى القاضي النعمان عن علي عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >يحشر الله أمتي يوم القيامة بين الأمم غراً محجلين من آثار الوضوء<[١٥١].

و>الغرة والتحجيل: بياض في وجه الفرس وقوائمه مما يحسنه ويزينه، واستعاره للإنسان، وجعل أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين كالبياض الذي هو للفرس»[١٥٢].

وربما المراد من الغرة والبياض، هو النور المتلألئ بين عينيه على ما في خبر عبد العظيم الحسني، عن علي الهادي عليه السلام قال -في حديث-: قال موسى بن عمران عليه السلام: >إلهي فما جزاء من أتمّ الوضوء من خشيتك؟ قال: أبعثه يوم القيامة وله نور بين عينيه يتلألأ<[١٥٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: >إِنِّي لأَعْرِفُ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِآثَارِ الوُضُوءِ<[١٥٤].

وعن علي عليه السلام، عن رسول صلى الله عليه وآله قال: >يحشر الله أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الأُمَمِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثارِ الْوُضُوءِ<[١٥٥].

القسم الثاني: العطاءات الخاصة: وهي العطاءات المترتبة على كل فعل من أفعال الوضوء، وهي كالآتي:

الفعل الأول: مس الماء: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: إنّ العبد >إِنْ قَالَ فِي أَوَّلِ وُضُوئِهِ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾، طَهُرَتْ أَعْضَاؤُهُ كُلُّهَا مِنَ الذُّنُوبِ<[١٥٦].

وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: >فَإِنَّكَ إِذَا وَضَعْتَ يَدَكَ فِي إِنَائِكَ ثُمَّ قُلْتَ: «بِسْمِ اللهِ»، تَنَاثَرَتْ مِنْهَا مَا اكْتَسَبَتْ مِنَ الذُّنُوبِ<[١٥٧].

وعن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >أَوَّلُ مَا يَمس الْمَاءَ يَتَبَاعَد عَنْهُ الشَّيْطَانُ<[١٥٨].

الفعل الثاني: المضمضة: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >فإذا تمضمض

نوّر الله قلبه ولسانه بالحكمة<(١٥٩).

وعن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال: >ثم سن على أمتي المضمضة لينقّي القلب من الحرام<(١٦٠).

وعن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن آبائه ^ ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (ليبالغ أحدكم في المضمضة والاستنشاق، فإنه غفران لكم ومنفرة للشيطان)(١٦١).

الفعل الثالث: الاستنشاق: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >وإذا استنشق آمنه الله من النار ورزقه رائحة الجنة<(١٦٢).

وعن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: «سنّ على أمتي (الاستنشاق؛ لتحرم عليه رائحة النار ونتنها)»(١٦٣).

الفعل الرابع: غسل الوجه: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >وإذا غسل وجهه بيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه<(١٦٤).

وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: >فإذا غسلت وجهك، تناثرت الذنوب التي اكتسبتها عيناك بنظرهما وفوك<(١٦٥).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >إنّ العبد إذا توضأ فغسل وجهه، تناثرت [عنه] ذنوب وجهه<(١٦٦).

الفعل الخامس: غسل السّاعدين: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >فإذا غسل ساعديه حرم الله عليه أغلال النار<(١٦٧).

وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: >فإذا غسلت ذراعيك تناثرت الذنوب عن يمينك وشمالك<(١٦٨).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >إنّ العبد إذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه<(١٦٩).

الفعل السّادس: مسح الرّأس: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >وإذا مسح رأسه مسح الله عنه سيئاته<(١٧٠).

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: >إنّ العبد إذا مسح برأسه تناثرت عنه ذنوب

رأسه<(١٧١).

وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: >فإذا مسحت رأسك وقدميك، تناثرت الذنوب التي مشيت إليها على قدميك، فهذا لك في وضوئك<(١٧٢).

الفعل السّابع: مسح القدمين: عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال في حديث: >وإذا مسح قدميه، أجازه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام<(١٧٣).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال في حديث: إنّ العبد >إذا مسح رجليه -أو غسلها للتقية- تناثرت عنه ذنوب رجليه<(١٧٤).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال في حديث: إنّ العبد >إن قال في آخر وضوئه أو غسله من الجنابة: «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك، وأشهد أن علياً وليك وخليفتك بعد نبيك على خليقتك، وأن أولياءه وأوصياءه خلفاؤك»، تحاتت عنه ذنوبه كلها، كما يتحات ورق الشجر، وخلق الله بعدد كل قطرة من قطرات وضوئه أو غسله ملكا يسبح الله ويقدسه ويهلله ويكبره، ويصلي على محمد وآله الطيبين، وثواب ذلك لهذا المتوضئ، ثم يأمر الله بوضوئه أو غسله فيختم عليه بخاتم من خواتم رب العزة، ثم يرفع تحت العرش حيث لا تناله اللصوص، ولا يلحقه السوس، ولا يفسده الأعداء، حتى يرد عليه ويسلم إليه، أو في ما هو أحوج، وأفقر ما يكون إليه، فيعطى بذلك في الجنة مالا يحصيه العادون، ولا يعي عليه الحافظون، ويغفر الله له جميع ذنوبه حتى تكون صلاته نافلة<(١٧٥).

والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

***

الهوامش

(١) المائدة : ٦.

(٢) المخصص لابن سيده : ٤ ق٢ / ١٥٦.

(٣) الفروق اللغوية لأبي هلال : ٥٧٤ رقم: ٢٣١٧.

(٤) المخصص لابن سيده : ٤ ق١ / ٨٤.
(٥) غريب الحديث للدينوري : ١ / ٨.
(٦) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور : ١ / ٨٤ ح١٠.
(٧) المائدة : ٦.
(٨) الرسائل التسع للحلي : ٧١.
(٩) الناصريات للرضي : ١٠٩.
(١٠) دعائم الإسلام للمغربي : ١ / ٤.
(١١) الناصريات للمرتضى : ١١٠.
(١٢) الحشر : ٧.
(١٣) المائدة : ٦.
(١٤) بحر الفوائد في شرح الفرائد للأشتياني : ٢ / ١٨٩.
(١٥) رسائل الشريف المرتضى للمرتضى : ١ / ٢٧٨.
(١٦) المائدة : ٦.
(١٧) النساء : ٢.
(١٨) آل عمران : ٥٢.
(١٩) رسائل الشريف المرتضى للمرتضى : ١ / ٢١٣.
(٢٠) رسائل الشريف المرتضى للمرتضى : ١ / ٢١٣.
(٢١) فقه القرآن للراوندي : ١ / ١٧.
(٢٢) المائدة : ٦.
(٢٣) التفبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣ / ٤٥٢.
(٢٤) المائدة : ٦.
(٢٥) المائدة : ٦.
(٢٦) فقه القرآن للراوندي : ١ / ١٩.
(٢٧) فقه القرآن للراوندي : ١ / ٣٠.
(٢٨) الأنعام : ١٦٢.
(٢٩) البينة : ٥.
(٣٠) سنن الترمذي للترمذي : ٥ / ١٩٦ ح٣٥٨٣. ورواه الكليني في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: ٣ / ٧٢ ح٨.
(٣١) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ١٠ / ٢٩٠.
(٣٢) يوسف : ١٠٦.
(٣٣) الفرقان : ٤٣.

(٣٤) التوبة : ٢٨.
(٣٥) الطهارة الكبير لمصطفى الخميني : ١ / ٧.
(٣٦) المائدة : ٦.
(٣٧) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٤٨٣ ح١٢٨١.
(٣٨) المائدة : ٦.
(٣٩) الكهف : ١١٠.
(٤٠) فقه القرآن للراوندي : ١ / ٢٥.
(٤١) الخصال للصدوق : ٣٣ ح٢.
(٤٢) المائدة : ٦.
(٤٣) المائدة : ٦.
(٤٤) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣ / ٤٥٦.
(٤٥) الكافي للكليني : ٣ / ٣٤ ح٥.
(٤٦) الحج : ٧٨.
(٤٧) فقه القرآن للراوندي : ١ / ٢٩.
(٤٨) الحج : ٧٨.
(٤٩) الكافي للكليني : ٣ / ٣٣ ح٤.
(٥٠) بحر الفوائد في شرح الفرائد للأشتياني : ٢ / ١٨٩.
(٥١) المائدة : ٦.
(٥٢) فقه القرآن للراوندي : ١ / ٣٠.
(٥٣) المائدة : ٦.
(٥٤) المعتبر للحلي : ١ / ١٦٨.
(٥٥) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٣٤٨ ح٨٠٨.
(٥٦) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٤٨١ ح١٢٧٥.
(٥٧) منهاج الصالحين لمحسن الحكيم : ١ / ٣٨٢ مسألة: ١. ومنهاج الصالحين للخوئي: ١ / ٢٧ مسألة: ١٠٠٧.
(٥٨) منهاج الصالحين للحكيم : ١ / ٥٤ مسألة: ١٦٣.
(٥٩) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٣٤٨ ح٨٠٦.
(٦٠) تفسير جوامع الجامع للطبرسي : ٢ / ٣٧٠.
(٦١) علل الشرائع للصدوق : ١ / ٢٧٩ ح٢.
(٦٢) الكافي للكليني : ٣ / ٢٢ ح٩.
(٦٣) الكافي للكليني : ٣ / ١٢ ح٥.

(٦٤) الكافي للكليني : ٣ / ٢٤ ح٢.
(٦٥) الكافي للكليني : ٣ / ٢٤ ح٣.
(٦٦) تحف العقول للحراني : ١٠١.
(٦٧) المائدة : ٦.
(٦٨) الناصريات للرضي : ١٤٤.
(٦٩) الناصريات للمرتضى : ١٣٤.
(٧٠) المائدة : ٦.
(٧١) تفسير العياشي للعياشي : ١ / ٢٩٧ ح٤٨.
(٧٢) المائدة : ٦.
(٧٣) تفسير العياشي للعياشي : ١ / ٢٩٨ ح٤٩.
(٧٤) المائدة : ٦.
(٧٥) المائدة : ٦.
(٧٦) الكافي للكليني : ٣ / ٣٦ ح٦.
(٧٧) المائدة : ٦.
(٧٨) تهذيب الأحكام للطوسي : ١ / ٤٩ ح١٤٤.
(٧٩) الدعوات للراوندي : ٢١٤ ح٥٧٧.
(٨٠) الكافي للكليني : ٣ / ٤٦٨ ح٥.
(٨١) من لا يحضره الفقيه للصدوق : ١ / ٤٦٩ ح١٣٥٠.
(٨٢) الأمالي للصدوق : ٨٥ ح٥٤.
(٨٣) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٧ ح٦٦٣.
(٨٤) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٧ ح٦٦٤.
(٨٥) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٦ ح٦٦٢.
(٨٦) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق : ٩١ ح٧٠.
(٨٧) عدة الداعي لابن فهد : ٢٦٩.
(٨٨) وسائل الشيعة للعاملي : ٦ / ١٩٦ ح٧٧١٧.
(٨٩) الأمالي للصدوق ٦٦٢ ح٨٩٦.
(٩٠) من لا يحضره الفقيه للصدوق : ١ / ٢٦٦ ح٨٢٠.
(٩١) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي : ٢ / ١٦٩ ح٧.
(٩٢) دعائم الإسلام للمغربي : ١ / ١٠٠.
(٩٣) معارج اليقين في أصول الدين للسيزواري : ١٧٩ ح٤٣٣.
(٩٤) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٨٠ ح١٠٠٤.

(٩٥) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٨٠ ح١٠٠٥.
(٩٦) المحاسن للبرقي : ١ / ٤٧ ح٦٥.
(٩٧) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٨٠ ح١٠٠٥.
(٩٨) علل الشرائع للصدوق : ١ / ٢٩٥ ح١ .
(٩٩) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٨٢ ح١٠٠٩.
(١٠٠) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٨٢ ح١٠١٠.
(١٠١) مكارم الأخلاق : ٤٠.
(١٠٢) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٣٠٠ ح٦٧٧.
(١٠٣) بحار الأنوار للمجلسي : ٧٧ / ٢٢٨ ح١٥.
(١٠٤) الكافي للكليني : ٣ / ١٠١ ح٤.
(١٠٥) دعائم الإسلام للمغربي : ١ / ١٢٨.
(١٠٦) المائدة : ٦.
(١٠٧) تفسير مجمع البيان للطبرسي : ٣ / ٢٨٢.
(١٠٨) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور : ١ / ٢٣ ح٢.
(١٠٩) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣ / ٤٤٨.
(١١٠) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣ / ٤٤٨.
(١١١) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٤ ح٦٥٤.
(١١٢) دعائم الإسلام للمغربي : ١ / ١٠٠.
(١١٣) صالمائدة : ٦.
(١١٤) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٣ ح٦٥٠.
(١١٥) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٣ ح٦٥١.
(١١٦) الكافي للكليني : ٣ / ٧٠ ح٥.
(١١٧) الكافي للكليني : ٣ / ٧٠ ح٥.
(١١٨) المحاسن للبرقي : ٢ / ٣١٢ ح٢٧.
(١١٩) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٧٧ ح٩٩٥.
(١٢٠) ثواب الأعمال للصدوق : ١٧.
(١٢١) الكافي للكليني : ٣ / ٧٢ ح١٠.
(١٢٢) الخصال للصدوق : ٦٢٠ ح١٠. وفي تحف العقول للحراني : ١١٠.
(١٢٣) المعالم المأثورة لبور قمشه اي مقرر بحث الآملي: ٤ / ١٨٤.
(١٢٤) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور : ١ / ٢٣ ح٢.
(١٢٥) بحار الأنوار للمجلسي : ٧٧ / ٣٠٤ ح٩.

(١٢٦) شرح العروة الوثقى تقرير بحث الخوئي للغروي : ٥ / ٩.
(١٢٧) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣ / ٤٥٩.
(١٢٨) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٨٩ ح٦٣٢.
(١٢٩) النوادر للراوندي : ١٨٩.
(١٣٠) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق : ٩١ ح٧٠.
(١٣١) الدعوات للراوندي : ٢١٤ ح٥٧٧.
(١٣٢) كنز العمال للهندي : ٩ / ٢٩٣ ح٢٦٠٦٥ .
(١٣٣) كنز العمال للهندي : ٩ / ٢٩٣ ح٢٦٠٦٦.
(١٣٤) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٧٧ ح٩٩٦.
(١٣٥) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٥ ح٦٥٨.
(١٣٦) البقرة : ٢٢٢.
(١٣٧) وسائل الشيعة للعاملي : ١٦ / ٨٠ ح٢١٠٣٤.
(١٣٨) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٢٩٤ ح٦٥٤.
(١٣٩) جامع أحاديث الشيعة للبروجردي : ٢ / ٢٤٠ ح١٩٢٨.
(١٤٠) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٧٧ ح٩٩٩.
(١٤١) الكافي للكليني : ٣ / ٧٢ ح١٠.
(١٤٢) الكافي للكليني : ٣ / ٧٠ ح٤.
(١٤٣) هود : ١١٤.
(١٤٤) التبيان في تفسير القرآن للطوسي : ٣ / ٤٥٩.
(١٤٥) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٣٥٧ ح٨٤١.
(١٤٦) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٨٠ ح١٠٠٦.
(١٤٧) النهاية لابن الأثير : ٤ / ١٦٨
(١٤٨) الكافي للكليني : ٣ / ٧١ ح٧.
(١٤٩) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٣٥٢ ح٨٢٥.
(١٥٠) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه للمجلسي الأول : ٦ / ٤٠١.
(١٥١) دعائم الإسلام للمغربي : ١ / ١٠٠ .
(١٥٢) هامش مسند زيد بن علي لزيد بن علي : ٧٥.
(١٥٣) الأمالي للصدوق : ٢٧٦ ح٣٠٧ .
(١٥٤) مستدرك الوسائل للنوري : ١ / ٣٥٨ ح٨٤٥.
(١٥٥) دعائم الإسلام للمغربي : ١ / ١٠٠.
(١٥٦) تفسير الإمام العسكري (ع) المنسوب إلى الإمام العسكري (ع): ٥٢١.

(١٥٧) الكافي للكليني : ٣ / ٧١ ح٧.
(١٥٨) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٥٩) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٦٠) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٦١) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٤٣٢ ح١١٣٤.
(١٦٢) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٦٣) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٦٤) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٦٥) الكافي للكليني : ٣ / ٧١ ح٧.
(١٦٦) تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٢١.
(١٦٧) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٦٨) الكافي للكليني : ٣ / ٧١ ح٧.
(١٦٩) تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٢١.
(١٧٠) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٧١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٢١.
(١٧٢) الكافي للكليني : ٣ / ٧١ ح٧.
(١٧٣) وسائل الشيعة للعاملي : ١ / ٣٩٦ ح١٠٣٦.
(١٧٤) تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٢١.
(١٧٥) تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٢١.

نظرة حول سورة براءة

(القسم الأول)

الشيخ عزيز حسن الخضران

المقدمة

هذا حديث موجز حول سورة براءة وما تضمنته آياتها من مواضيع مهمة، وتعتبر مرحلة مهمة من مراحل الإسلام العظيم، حيث إنّها احتوت على آيات كثيرة تتحدّث عن قتال المشركين، وعن نقض العهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله، وأنّه حان الوقت لتطهير الأرض الإسلامية من رجس المشركين، وهذا قد حصل في السنة التاسعة للهجرة وبعد عام واحد من فتح مكة المكرمة.

وكذلك تتحدث السورة في كثير من آياتها عن المنافقين، وقد أظهرت ما في صدورهم من نفاق ففضحتهم؛ ولذلك سميت بالفاضحة.

ونقسم الحديث إلى قسمين؛ نتحدث في القسم الأول عن ظروف نزول الآية وتبليغها إلى مشركي مكة لإعلان البراءة منهم، وعن الآيات التي نزلت حاثّة على قتالهم.

وسيأتي القسم الثاني -إن شاء الله تعالى- ونتحدّث فيه عن المنافقين، والآيات النازلة فيهم، وعن تقاعسهم عن القتال. فإليكم القسم الأول:

آخر ما نزل من القرآن الكريم:

ورد من طرقنا عن الإمام الجواد عليه السلام وكذلك من طرق العامة أن آخر سورة نزلت هي سورة النصر[1]. ومن المعروف عندنا أن آخر آية نزلت هي آية إكمال الدين من سورة المائدة، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **>كان القرآن ينسخ بعضه بعضا، وإنّما كان يؤخذ من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بآخره، فكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، فنسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء<**[2]. وورد من طرق العامة أيض عن عائشة وابن عمر أن سورة المائدة هي آخر سورة نزلت[3].

ولكن روي عن ابن عباس أن المائدة نزلت قبل سورة براءة[4]، وفي البخاري عن البراء قال: "آخر سورة نزلت كاملة براءة، وآخر سورة نزلت خاتمة سورة النساء {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ}"[5]، ونقل العلامة الحلي عن أبي حنيفة ذلك أيض[6].

وقد يكون المقصود أن سورة النصر آخر سورة نزلت دفعة واحدة، وأمّا المائدة وبراءة فقد يكون نزولهما في فترة متقاربة بحيث نزلت بعض الآيات من كليهما في عرض واحد، واكتملت براءة ثم تمّت المائدة، والله العالم.

زمن نزول السورة:

وعلى كل حال، فإن سورة براءة إنْ لم تكن آخر سورة نزلت، فلا شك في أنها من آخر السور التي نزلت، فهي قبل سورتي المائدة والنصر، وقد نزلت بعد فتح مكة، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **>كان الفتح في سنة ثمان، وبرائة في سنة تسع، وحجة الوداع في سنة عشر<**[7].

وعنه عليه السلام أيضا: **>نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة<**[8]، إذ فهذه السورة نزلت أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وبعدما قوي الإسلام وتمدّد في أطراف الجزيرة، والمهمّ في البحث كما سيأتي هو تأسيس مرحلة جديدة من خلال ما جاء في هذه السورة المباركة.

ترك البسملة

سورة براءة هي السورة الوحيدة التي خلت من البسملة، وروي أنّه سئل علي بن أبي طالب عليه السلام: "لمَ لمْ تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم، قال: >لأنَّ **بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان**<"[٩]، وقال ابن حجر في سبب ترك البسملة: "واختلف في ترك البسملة أولها، فقيل: لأنها نزلت بالسيف والبسملة أمان، وقيل: لأنّهم لمّا جمعوا القرآن شكّوا هل هي والأنفال واحدة أو ثنتان ففصلوا بينهما بسطر لا كتابة فيه، ولم يكتبوا فيه البسملة، روى ذلك ابن عباس عن عثمان، وهو المعتمد وأخرجه أحمد والحاكم وبعض أصحاب السنن"[١٠].

ولعلّه لأجل ذلك اختلف في كونها سورة مستقلة أو أنّها والأنفال سورة واحدة، قال في الميزان: "وقد اختلفوا في كونها سورة مستقلة أو جزء من سورة الأنفال، واختلاف المفسرين في ذلك ينتهي إلى اختلاف الصحابة ثم التابعين فيه، وقد اختلف في ذلك الحديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، غير أن الأرجح بحسب الصناعة ما يدلّ من حديثهم على أنها ملحقة بسورة الأنفال"[١١]. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: >**الأنفال والبراءة واحد**<[١٢]، ووردت روايات عديدة تقرن السورتين مع في أثر القراءة والثواب، منها ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه يقول: >**من قرأ سورة الأنفال وسورة البراءة في كلِّ شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين** عليه السلام<[١٣]، والله العالم.

أسمائها

ذكر في مجمع البيان أن: «أسماؤها عشرة:

(براءة): سمّيت بذلك؛ لأنها مفتتحة بها، ونزلت بإظهار البراءة من الكفار.

(التوبة): سمّيت بذلك؛ لكثرة ما فيها من التوبة.

(الفاضحة): وسمّيت بذلك؛ لأنّها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم.

(المبعثرة): عن ابن عباس؛ لأنّها تبعثر عن أسرار المنافقين، أي تبحث

عنها.

(المقشقشة): عن ابن عباس سماها بذلك؛ لأنّها تبرّئ من آمن بها من النفاق والشرك؛ لما فيها من الدعاء إلى الإخلاص.

(البحوث): عن أبي أيوب الأنصاري سماها بذلك؛ لأنّها تتضمن ذكر المنافقين، والبحث عن سرائرهم.

(المدمدمة): أي المهلكة.

(الحافرة). لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه.

(المثيرة): عن قتادة؛ لأنّها أثارت مخازيهم ومقابحهم.

(سورة العذاب): عن حذيفة بن اليمان؛ لأنّها نزلت بعذاب الكفار.

وروى عاصم بن زر بن حبيش، عن حذيفة، قال: يسمونها سورة التوبة، وهي سورة العذاب، فهذه عشرة أسماء»[١٤]، ونلاحظ أن أغلب الأسماء ناظرة إلى المنافقين وفضحهم، وهذا ما سيأتي إن شاء الله تعالى في القسم الثاني.

تبيلغ سورة براءة:

إن قصة تبليغ هذه السورة تحتوي على معانٍ كثيرة مهمّة فيما نتكلم فيه من المرحلة الجديدة التي بدأت بعد نزولها، ومن المهم جد التمعّن في مضمون الرسالة التي أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يوصلها للمشركين، ولكون هذه الرسالة تؤسّس لمرحلة جديدة، ولكونها أيض امتداد لهدف البعثة المحمدية المباركة من تثبيت التوحيد ونبذ عبادة الأوثان؛ حيث إنّها لا تختلف عما بدأ به النبي صلى الله عليه وآله بداية البعثة من حيث الهدف، بل يمكن القول أنّ الهدف يتحقّق ويكتمل إلى حد كبير بتبليغ هذه الرسالة، لأجل كل ذلك كان الشخص الذي يقوم بوظيفة إيصال الرسالة لا بدّ من أن يمثل النبي صلى الله عليه وآله تمثيلاً شخصي وعلى نحو الحقيقة، وليس مجرّد واسطة رسمية لإيصالها كما يحصل للحكام والملوك الذين يبعثون الرسل لإيصال رسالاتهم من دون أن يكون الرسول ممثلاً شخصي ،

ولا يبعثون الممثل الشخصي إلا إذا كانت المهمّة خطيرة ترتبط بأساس الدولة ومصيرها. ومن هنا كان اختيار هذا الشخص إنّما هو من قبل الله تعالى كما سنرى في النصوص والأخبار.

من بلّغ سورة براءة؟

اتّفق الجميع على أن الذي بلّغ سورة براءة هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وورد أن النبي صلى الله عليه وآله أرسل في البداية أبا بكر فنزل الوحي أن يردّه ويبعث مكانه علي عليه السلام، وأن الأمر نزل من السماء، وتواترت الروايات في ذلك من الفريقين وإن اختلفت في بعض التفاصيل الجزئية، وننقل بعض هذه النصوص حتى تكون الصورة واضحة:

ففي تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام: >لمّا نزلت الآيات من أوّل براءة دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، فلمّا خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد لا يؤدّي عنك إلا رجل منك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام في طلبه فلحقه بالروحاء فأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أأنزل الله فيَّ شيء؟ قال: لا، إنَّ الله أمرني أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل منّي<[١٥].

وفي تفسير العياشي: "عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على النّاس، فنزل جبرئيل فقال: لا يبلّغ عنك إلا علي، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً فأمره أن يركب ناقته العضباء، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقرأه على الناس بمكة، فقال أبو بكر: أسخطة؟ فقال: لا، إلا أنّه أنزل عليه لا يبلّغ إلا رجل منك<"[١٦].

وفي تفسير نور الثقلين: "عن الحارث بن ثعلبة قال: قلت لسعد: أشهدت شيئ من مناقب علي عليه السلام؟ قال: نعم شهدت له أربع مناقب، والخامسة شهدتها لأن يكون لي منهن واحدة أحبّ إليّ من حمر النعم، بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر ببراءة ثم أرسل

عليه عليه السلام فأخذها منه، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله أنزل في شيء؟ قال: >لا، إلا أنّه لا يبلغ عني إلا رجل مني<"[١٧]، وفي كلام سعد هذا ردّ على من أراد نفي كون هذه فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام.

ومن طرق العامة: عن سعد بن أبي وقاص: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر بالبراءة، ثم بعث عليه فأخذها منه، فرجع أبو بكر كابتا فقال: يا رسول الله فقال: >لا يؤدي عني إلا رجل مني<"[١٨].

وعن أنس قال: "بعث النبي صلى الله عليه وآله ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: >لا ينبغي أن يبلّغ هذا عني إلا رجل من أهلي< فدعا عليه فأعطاه إياه"[١٩].

وقال ابن شهر آشوب في المناقب: «ولّاه (أي: عليه عليه السلام) رسولُ الله صلى الله عليه وآله في أداء سورة براءة وعزل به أبا بكر بإجماع المفسرين ونقلة الأخبار، رواه الطبري والبلاذري والترمذي والواقدي والشعبي والسدي والثعلبي والواحدي والقرطي والقشيري والسمعاني وأحمد بن حنبل وابن بطة ومحمد بن إسحاق وأبو يعلى الموصلي والأعمش وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير وأبي هريرة وأنس وأبي رافع وزيد بن نقيع وابن عمر وابن عباس واللفظ له: أنه لما نزل براءة من الله ورسوله إلى تسع آيات أنفذ النبي أبا بكر إلى مكة لأدائها فنزل جبرئيل فقال: >أنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك<، فقال النبي لأمير المؤمنين: >اركب ناقتي العضباء والحق أبا بكر وخذ براءة من يده<، قال: ولما رجع أبو بكر إلى النبي جزع، وقال: يا رسول الله إنّك أهلتني لأمر طالت الأعناق فيه فلمّا توجهت له رددتني عنه، فقال صلى الله عليه وآله: >الأمين هبط إليّ عن الله تعالى أنّه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك، وعلي مني ولا يؤدي عني إلا علي<"[٢٠]. وغيرها من الروايات الكثيرة.

طائفة ثانية من الروايات

وفي مقابل هذه الروايات بعضُ الأخبار التي تنفي إرسال أبي بكر، منها ما عن إمامنا الباقر عليه السلام قال: >لا والله ما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر ببراءة، أهو كان

يبعث بها معه ثم يأخذها منه؟! ولكنَّه استعمله على الموسم، وبعث بها علياً بعدما فصل أبو بكر عن الموسم، فقال لعلي حين بعثه: إنّه لا يؤدي عني إلا أنا وأنت»[٢١].

ويؤيد ذلك ما نقله ابن حجر فقال: "وقد ذكر ابن إسحاق بإسناد مرسل قال: نزلت براءة وقد بعث النبي صلى الله عليه وآله عليا على الحج، فقيل: لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: **>لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي<** ثم دعا علياً، فقال: **>أخرج بصدر براءة وأذّن في النّاس يوم النحر بمنى إذا اجتمعوا<** فذكر الحديث"[٢٢]، وروى الهيثمي: "عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله استعمل أبا بكر على الحج، ثم وجّه ببراءة مع علي"[٢٣]، وذكر السيوطي في الدر المنثور أنّه: "أخرج إسحاق بن راهويه والدارمي والنسائي وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر رضي الله عنه: أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر على الحج، ثم أرسل علياً رضي الله عنه ببراءة فقرأها على النّاس في موقف الحجّ حتى ختمها"[٢٤]، وذكر روايات أخرى بنفس المضمون فراجع.

طائفة ثالثة من الروايات

وهناك طائفة ثالثة شاذّة من طرق العامة تذكر أن النبي صلى الله عليه وآله بعث علي عليه السلام مع أبي بكر، وبعضها لا تذكر إلا بعْث أبي بكر؟!! وهذه الروايات مخالفة لما تواترت عليه الروايات من إرسال علي عليه السلام وحده وإرجاع أبي بكر بأمر من السماء.

خشْيته من نزول شيء فيه

والنصوص المتقدمة وغيرها تذكر خوف أبي بكر من ذلك ووجله الشديد، وبألفاظ عديدة منها:

"**فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أأنزل الله فيَّ شيء؟**".

ومنها: "**فقال أبو بكر: أسخطة؟**".

ومنها: "فرجع أبو بكر كابتا".

ومنها: "ولما رجع أبو بكر إلى النبي جزع".

ومنها: "فأتى أبو بكر النبي ﷺ وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد أنزل فيه شيء".

لا يبلّغ عنك إلا علي

وما ورد في الأحاديث المتقدمة وغيرها من تعليل إرسال علي عليه السلام بدل أبي بكر يدلّ على ما ذكرناه من كون المهمّة خطيرة ومرتبطة بالرسالة، فقد ورد تارة على لسان جبرائيل عليه السلام، وتارة ابتداء من النبي صلى الله عليه وآله، فقد ورد أنه >نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك،< و>فنزل جبرئيل فقال: لا يبلغ عنك إلا علي<.

و>إنَّ الله أمرني أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل منّي<، و>إلا أنه لا يبلغ عني إلا رجل مني<، و>لا يؤدي عني إلا رجل مني<، و>إنّه لا يؤدي عني إلا أنا وأنت< و>أبى الله أن يبلّغ عن محمد إلا رجل منه<[٢٥]، وغيرها من التعابير.

والمهم فيها هو دلالتها على التدخّل الإلهي في مسألة تبليغ سورة براءة إلى المشركين، مما يدلّ على خطورة المسألة وأهميتها[٢٦]، وقد حاول البعض كابن كثير تبسيط هذه المسألة وأن السبب في بعث علي عليه السلام إنّما هو بسبب أن عادة العرب في نقض العهود أنّهم لا يبعثون لنقض العهد إلا عاقدُه أو رجلٌ من أهل بيته، وكذلك صاحب تفسير المنار، وقد أجاب عن هذه السخافات صاحبُ الميزان أحسن جواب[٢٧].

صعوبة المهمة على لسان الأمير عليه السلام

ويبيّن أميرُ المؤمنين عليه السلام نفسه صعوبة الأمر وخطورته، وأنّ المسألة ليست مجرد إرسال رسالة، فيقول عليه السلام في حديثه مع اليهودي: >وأما السابعة يا أخا اليهود؛ فإنّ رسول لله صلى الله عليه وآله لمّا توجه لفتح مكة أحبّ أن يعذر إليهم ويدعوهم إلى الله عز وجل آخراً كما دعاهم أولا؛ فكتب إليهم كتابا يحذّرهم فيه، وينذرهم عذاب الله، ويعدهم الصفح، ويمنيهم مغفرة ربهم، ونسخ لهم في آخره سورة براءة ليقرأها

عليهم، ثمّ عرض على جميع أصحابه المضي به فكلّهم يرى التثاقل فيه، فلمّا رأى ذلك ندب منهم رجلاً فوجّهه به، فأتاه جبرئيل فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك، فأنبأني رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ووجهني بكتابه ورسالته إلى أهل مكة، فأتيت مكة وأهلها من قد عرفتم ليس منهم أحد إلا ولو قُدِّر أن يضع على كل جبل مني إربا لفعل، ولو أن يبذل في ذلك نفسه وأهله وولده وماله، فبلغتهم رسالة النبي صلى الله عليه وآله وقرأت عليهم كتابه، فكلّهم يلقاني بالتهدد والوعيد ويبدى لي البغضاء، ويظهر الشحناء من رجالهم ونسائهم، فكان منّي في ذلك ما قد رأيتم»[٢٨].

انظروا إلى فعل أمير المؤمنين عليه السلام، وقارنوه بما رواه الطبري في تاريخه في حوادث سنة ست من الهجرة عن عكرمة "أن قريش بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين رجلًا وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وآله ليصيبوا لهم من أصحابه فأخذوا أخذ ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فعفا عنهم وخلّى سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله بالحجارة والنبل، ثم دعا النبي صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنّي أخاف قريش على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلّك على رجل هو أعزّ بها مني عثمان بن عفان، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنّما جاء زائر لهذا البيت معظم لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فنزل عن دابته فحمله بين يديه ثم ردفه وأجاره حين بلّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله "[٢٩].

مضمون ما بلّغه أمير المؤمنين عليه السلام

بعد فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، سمح النبي صلى الله عليه وآله للمشركين تلك السنة بالحج وهو ممّا يدلّ على بقاء بعض المشركين على شركهم، ولكن في هذه السنة (التاسعة) بدأت مرحلة جديدة من التعامل مع المشركين، حيث لا توجد عندهم فرصة إلا بمقدار أربعة أشهر كما في أول آيتين من السورة: {بَرَاءَةٌ مِنَ

اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}.

عن إمامنا الصادق عليه السلام: <وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل نزول سورة براءة أنْ لا يقاتل إلا من قاتله، ولا يحارب إلا من حاربه وأراده، وقد كان أنزل عليه في ذلك {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}[٣٠]، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقاتل أحدا قد تنحّى عنه واعتزله، حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله، إلا الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة إلى مدة: منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقال الله عز وجل: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد>[٣١].

وهذا أحد المضامين المهمة التي بلّغها علي عليه السلام، ونقل أنه عليه السلام جاء بأربع كلمات، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: <خطب عليٌّ عليه السلام الناس واخترط سيفه فقال: «لا يطوفن بالبيت عريان، ولا يحجن البيت مشرك، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته، ومن لم تكن له مدة فمدته أربعة أشهر>. وروي أنه عليه السلام قام عند جمرة العقبة وقال: <يا أيها الناس! إنّي رسول رسول الله إليكم بأن لا يدخل البيت كافر، ولا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وآله فله عهده إلى أربعة أشهر، ومن لا عهد له فله مدة بقية الأشهر الحرم>، وقرأ عليهم سورة براءة»[٣٢].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: <وكان يطوف في الناس ومعه السيف، فيقول: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، فلا يطوف بالبيت عريان بعد هذا ولا مشرك، فمن فعل فإنَّ معاتبتنا إياه بالسيف>[٣٣]، وهذا يعني أن المعركة لا بد أن تحسم ولو بالقوة وإعمال السيف في المشركين، والآيات تصرح بذلك فتقول: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ

تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، ولكن مع ذلك {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ}، فاستعمال السيف ليس لمجرد الانتقام بل لإخراج المشركين من الضلالة إلى الهدى.

انتظار النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام

وينقل المجلسي بعض تفاصيل ما قام به علي عليه السلام وانتظار النبي صلى الله عليه وآله له واغتمامه من تأخره، فروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه: >فانطلق علي عليه السلام حتى قدم مكة، ثم وافى عرفات، ثم رجع إلى جمع، ثم إلى منى، ثم ذبح وحلق، وصعد على الجبل المشرّف المعروف بالشعب فأذّن ثلاث مرات: ألا تسمعون يا أيها الناس إنّي رسول رسول الله إليكم؟ ثم قال: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} إلى قوله: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} تسع آيات من أولها، ثم لمع بسيفه، فأسمع الناس وكرّرها، فقال النّاس: "من هذا الذي ينادي في الناس؟ فقالوا: علي بن أبي طالب، وقال من عرفه من الناس: هذا ابن عم محمد، وما كان ليجترئ على هذا غيرُ عشيرة محمد"، فأقام أيام التشريق ثلاثة ينادي بذلك ويقرأ على الناس غدوة وعشية، فناداه الناس من المشركين: "أبلغ ابن عمك أن ليس له عندنا إلا ضربا بالسيف وطعنا بالرماح"، ثمّ انصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله يقصد في السير، وأبطأ الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر علي عليه السلام وما كان منه، فاغتمَّ النبي صلى الله عليه وآله لذلك غمّاً شديداً حتى رئي ذلك في وجهه، وكفَّ عن النساء من الهم والغم، فقال بعضهم لبعض: لعله قد نعيت إليه نفسه، أو عرض له مرض، فقالوا لأبي ذر: قد نعلم منزلتك من رسول الله، وقد ترى ما به، فنحن نحب أن تعلم لنا أمره، فسأل أبو ذر النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وآله: ما نعيت إليَّ نفسي، وإنّي لميّت، وما وجدت في أمتي إلا خيراً، وما بي من مرض، ولكن من شدّة وجدي بعلي

بن أبي طالب عليه السلام وإبطاء الوحي عني في أمره، فإنَّ الله عزّ وجلّ قد أعطاني في علي عليه السلام تسع خصال: ثلاثة لدنياي، واثنتان لآخرتي واثنتان أنا منهما آمن، واثنتان أنا منهما خائف، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلّى الغداة استقبل القبلة بوجهه إلى طلوع الشمس يذكر الله عزّ وجلّ، ويتقدّم علي بن أبي طالب عليه السلام خلف النبي صلى الله عليه وآله ويستقبل الناس بوجهه فيستأذنون في حوائجهم، وبذلك أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلمَّا توجّه علي عليه السلام إلى ذلك الوجه لم يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله مكان علي لأحد، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلّى وسلّم استقبل الناس بوجهه، فأذن للناس. فقام أبو ذر فقال: يا رسول الله لي حاجة، قال: انطلق في حاجتك. فخرج أبو ذر من المدينة يستقبل علي بن أبي طالب عليه السلام فلما كان ببعض الطريق إذا هو براكب مقبل على ناقته، فإذا هو علي عليه السلام فاستقبله والتزمه وقبّله وقال: بأبي أنت وأمي اقصد في مسيرك حتى أكون أنا الذي أبشّر رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ رسول الله من أمرك في غمّ شديد وهم، فقال له علي عليه السلام: نعم، فانطلق أبو ذر مسرعا حتى أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: البشرى، قال: وما بشراك يا أبا ذر؟ قال: قدم علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له: لك بذلك الجنّة، ثم ركب النبي صلى الله عليه وآله وركب معه الناس فلمّا رآه أناخ ناقته، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله فتلقاه والتزمه وعانقه ووضع خده على منكب علي، وبكى النبي صلى الله عليه وآله فرحا بقدومه، وبكى علي عليه السلام معه، ثمَّ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ما صنعت بأبي أنت وأمي؟ فإنَّ الوحي أبطأ عليَّ في أمرك، فأخبره بما صنع، فقال رسول الله: كان الله عزّ وجلّ أعلم بك مني حين أمرني بإرسالك»[٣٤].

آيات القتال في سورة براءة

للمتأمل في هذه السورة المباركة يرى أنّ لسانها كان شديد على المشركين، ومحذر لهم من البقاء على الشرك، وتشتمل على الوعيد بقتالهم، وحاثة للمؤمنين على عدم التهاون في مسألة القتال، وهذا من أوّل السورة إلى آخرها، ونكتفي بثلاثة مقاطع منها:

الأول: قتل المشركين أينما وجدوا:

تقول الآية الخامسة: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...}.

وقد تقدم قولُ الإمام الصادق عليه السلام: >حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله<، وكان قبل نزول سورة براءة لم يؤمر صلى الله عليه وآله إلا بقتال من تعرّض له.

الثاني: مقاتلة أئمة الكفر:

جاء في الآية الثانية عشر: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}.

وهنا لفتة أشار إليها صاحب تفسير الأمثل رحمه الله فقال: "مما يسترعي الانتباه أن الآيات محل البحث لا تقول : قاتلوا الكفار، بل تقول : فقاتلوا أئمة الكفر وهي إشارة إلى أن (القاعدة الجماهيرية) وعامة الناس تبع لزعمائهم ورؤسائهم، فينبغي أن يكون الهدف القضاء على رؤسائهم وأئمتهم، لأنهم أساس الضلال والتضليل والظلم والفساد، فاستأصلوا شجرة الكفر من جذورها وأحرقوها. فمواجهة الكفار لا تجدي نفعا ما دام أئمتهم في الوجود، أضف إلى ذلك فإن هذا التعبير يعدّ ضربا من ضروب النظرة البعيدة المدى وعلو الهمّة وتشجيع المسلمين، إذ عد أئمة الكفر في مقابل المسلمين، فليواجهوهم فذلك أجدر من مواجهة من دونهم من الكفار"[٣٥].

وأمّا من هم المقصودون من أئمة الكفر، فقد ذكرت عدة أقوال:

قال بعضهم : إنّ الآية تشير إلى اليهود، وإلى بعض الأقوام الذين نازلوا المسلمين وقاتلوهم بعد حين كالفرس والروم.

وقال بعضهم: هي إشارة إلى كفار قريش.

وقال بعضهم : بل هي إشارة إلى المرتدين بعد إسلامهم.

واستظهر صاحب تفسير الأمثل أنّ موضوعها هو جماعة المشركين وعبدة

الأصنام الذين عاهدوا المسلمين على عدم القتال والمخاصمة، إلا أنّهم نقضوا عهدهم . وكان هؤلاء المشركون في أطراف مكة أو سائر نقاط الحجاز[٣٦].

ونقل في التبيان عن قتادة والواحدي عن ابن عباس أنهم: "أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد وهم الذين همّوا بإخراجه"[٣٧]، ومن الواضح أن بعضهم قتل في بدر، وأن أبا سفيان أسلم عام الفتح، في السنة الثامنة، بينما السورة نزلت في السنة التاسعة.

وقال العلامة الطباطبائي في الميزان: "يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم وذكر أنّهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فإنهم ناكثون للإيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله : {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ} الآية . فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، أي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم وألغى أيمانهم وسماهم أئمة الكفر لانهم السابقون في الكفر بآيات الله يتبعهم غيرهم ممن يليهم، يقاتلون جميعا لعلهم ينتهون عن نكث الايمان ونقض العهود"[٣٨].

ما روي في تطبيق الآية من روايات:

تعددت الروايات في أنّ أهل هذه الآية لم يأت زمنهم بعد، أي لم يُقاتل أئمة الكفر زمن النبي صلى الله عليه وآله، بل أوّل من طبقت عليهم الآية هم من قاتل علي عليه السلام يوم الجمل.

ونقل عن حذيفة كاتم أسرار الرسول: صلى الله عليه وآله "لم يأت أهل هذه الآية"، وقال السيوطي في الدر المنثور: "أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه أنّهم ذكروا عنده هذه الآية فقال: "ما قوتل أهل هذه الآية بعد"، وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن زيد بن وهب رضي الله عنه في

قوله: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} قال: كنّا عند حذيفة رضي الله عنه فقال: "ما بقى من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة"(٣٩).

وعن الشعبي قال: قرأ عبدالله (الظاهر أنّه ابن مسعود) {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ} إلى آخر الآية ثم قال: "ما قوتل أهلها بعد"، فلمّا كان يوم الجمل قرأها علي عليه السلام ثم قال: >ما قوتل أهلها منذ يوم نزلت حتى [كان] اليوم<"(٤٠).

وروي من طرقنا كما في التبيان "عن أبي جعفر عليه السلام أنّها نزلت في أهل الجمل، وروي ذلك عن علي عليه السلام وعمار، وغيرهما"(٤١).

عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: >دخل عليَّ أناسٌ من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير؟ فقلت لهم: كانا من أئمة الكفر، إنّ عليا يوم البصرة لما صفّ الخيول قال لأصحابه: لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله عزّ وجلّ وبينهم، فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون عليَّ جوراً في حكم الله؟< قالوا: لا، قال: >فحيفا في قسم< قالوا: لا، قال: >فرغبت في دنيا أخذتها لي و لأهل بيتي دونكم فنقمتم عليَّ فنكثتم بيعتي؟< قالوا: لا، قال: >فأقمت فيكم الحدود وعطلتها عن غيركم؟< قالوا: لا، قال: >فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث؟ إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثمّ ثنى إلى أصحابه فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} فقال أمير المؤمنين عليه السلام: >والذي فلق الحبّة، وبرئ النسمة، واصطفى محمدا بالنبوة، إنّهم لأصحاب هذه الآية، وما قوتلوا منذ نزلت<(٤٢).

وطبّق الأمير عليه السلام الآية الرابعة عشر الآتية أيض عندما "برز العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وهو من قواد جيش الإمام عليه السلام) إلى رجل من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم، فتكافحا بسيفيهما مليـ من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لامته، إلى أن لاحظ العباس وهيـ في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي، وخرّ الشامي صريعـ بخده، وأم في الناس، وكبّر الناس تكبيرة

ارتجت لها الأرض، فسمعتُ قائلًا يقول: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام"[٤٣].

الثالث: أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم صاغرون:

الآية (٢٩) قوله تعالى: { ...قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}.

في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: >والسيف الثاني على أهل الذمة، قال الله تعالى : {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} نزلت هذه الآية في أهل الذمة ثم نسخها قوله عز وجل: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}، فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منهم إلا الجزية أو القتل وما لهم فيئ وذراريهم سبي، وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرّم علينا سبيهم وحرمت أموالهم وحلّت لنا مناكحتهم، ومن كان منهم في دار الحرب حلَّ لنا سبيهم وأموالهم ولم تحل لنا مناكحتهم ولم يقبل منهم إلا الدخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل<[٤٤].

والهدف الأول من هذه الجزية هو أن يؤدي أخذها إلى إسلام أهل الكتاب، فهم إمّا أن يُقتلوا وتسبى ذراريهم، أو يسلموا، أو تؤخذ منهم الجزية، فقد ورد عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: "ما حد الجزية على أهل الكتاب، وهل عليهم في ذلك شيء موظف لا ينبغي أن يجوزوا إلى غيره؟ فقال: >ذاك إلى الإمام أن يأخذ من كلّ إنسان منهم ما شاء على قدر ماله بما يطيق، إنّما هم قوم فدوا أنفسهم من أن يستعبدوا أو يقتلوا، فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يأخذهم به حتى يسلموا فإنّ الله تبارك وتعالى قال: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وكيف يكون صاغراً وهو لا يكثرت لما يؤخذ منه حتى يجد ذلاً لما أخذ منه فيألم

لذلك فيسلم..<"[٤٥].

آيات أخرى:

وهناك آيات أخرى في هذه السورة تتحدث عن القتال نكتفي بذكرها دون التعرض لمضامينها، منها الآيتين (١٣-١٤): {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}.

ومنها الآية (٣٦): {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.

ومنها الآية (١٢٣): {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.

ومنها الآية (٧٣): {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، وهذه الآية تقرن بين الأمر بقتال الكفار والمنافقين، وسيأتي إن شاء الله تعالى في القسم الثاني الحديث عن الآيات النازلة في المنافقين، وهناك ارتباط وثيق بين قتال المشركين والكفار وبين قضية المنافقين؛ حيث إنّ من ضمن ما جاء في السورة تثاقل المنافقين عن قتال الكفار والمشركين، وبعض ما حصل في المعارك خصوص في معركة تبوك التي نزلت السورة بعد وقوعها كما تقدم في الحديث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

***

الهوامش

(١) البحار، ج٨٩، ص٣٩، صحيح مسلم، ج٨، ص٢٤٣.

(٢) تفسير العياشي، ج١، ص٢٨٨.

(٣) راجع التبيان للطوسي، ج٣، ص٤١٣، وكذلك الغدير للأميني، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٤) الغدير للأميني، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨.
(٥) البخاري، ج٥، ص١١٥.
(٦) تذكرة الفقهاء، ج٩، ص١٥٨، وقال السيد الشهرستاني في وضوء النبي، ج١، ص٣٦: «علم بأنّ سورة المائدة كانت آخر ما نزل من القرآن -إلا براءة- باتفاق جميع المسلمين» والله العالم.
(٧) تفسير العياشي، ج٢، ص٧٣.
(٨) تفسير القمي، ج١، ص٢٨١-٢٨٢.
(٩) المستدرك للنيسابوري، ج٢، ص٢٣٠.
(١٠) فتح الباري لابن حجر، ج٨، ص٢٣٥.
(١١) تفسير الميزان، ج٩، ص١٤٦.
(١٢) مجمع البيان، ج٥، ص٦، وتفسير نور الثقلين، ج٢، ص١٧٧.
(١٣) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص١٧٦.
(١٤) مجمع البيان، ج٥، ص٦.
(١٥) تفسير القمي، ج١، ص٢٨٢، وعنه في البرهان، ج٣، ص٣٦١.
(١٦) تفسير العياشي، ج٢، ص٧٤، وعنه في البرهان، ج٣، ص٣٦٢.
(١٧) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص١٧٧.
(١٨) كتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم(م٢٨٧هـ)، ص٥٩٥.
(١٩) سنن النسائي، ج٥، ص١٢٨.
(٢٠) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، ج١، ص٣٩١، وعنه في البرهان، ج٣، ص٣٧١.
(٢١) تفسير العياشي، ج٢، ص٧٤، وعنه في البرهان، ج٣، ص٣٦٢.
(٢٢) فتح الباري لابن حجر، ج٨، ص٦٦.
(٢٣) مجمع الزوائد للهيثمي، ج٩، ص٥٠.
(٢٤) الدر المنثور، ج٣، ص٢١٠.
(٢٥) تفسير العياشي، ج٢، ص٧٤، وعنه في البرهان، ج٣، ص٣٦٢.
(٢٦) يقول العلامة الطباطبائي في الميزان: «وفيما نقلناه من الروايات وما تركناه منها وهو أكثر وفيما سيجيئ في هذا الباب نكتتان أصليتان.

إحداهما: أن بعث النبي صلى الله عليه وآله عليه ببراءة وعزله أبا بكر إنما كان بأمر من ربه بنزول جبرئيل: ﴿إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك﴾، ولم يقيّد الحكم في شيء من الروايات ببراءة أو نقض العهد فلم يرد في شيء

منهـا: لا يـؤدى بـراءة أو لا ينقـض العهـد إلا أنـت أو رجـل منـك، فـلا دليـل علـى تقييـده ببـراءة علـى مـا وقـع فـي كثيـر مـن التفاسـير، ويؤيـد الإطـلاق مـا سـيأتي. وثانيتهمـا: أن عليـا عليه السلام كمـا كان ينـادى ببـراءة، كذلـك كان ينـادي بحكـم آخـر وهـو أن مـن كان لـه مـدّة فهـو إلـى مدتـه، ومـن لـم يكـن لـه مـدة فمدتـه أربعـة أشـهر: وهـذا أيضـا ممّـا يـدلّ عليـه آيـات بـراءة. وبحكـم آخـر وهـو أنـه لا يطوفـن بالبيـت عريـان، وهـو أيضـا حكـم إلهـي مدلـول عليـه بقولـه تعالـى: {يَـا بَنِـي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُـمْ عِنْـدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ} الأعـراف: ٣١، وقـد ورد فـي بعـض الروايـات ذكـر الآيـة مـع الحكـم كمـا سـيجيئ....»، تفسـير الميــزان، ج٩، ص١٦٤.

(٢٧) تفسير الميزان، ج٩، ص١٦٨-١٧٢.

(٢٨) الخصال للشيخ الصدوق، ص٣٦٩.

(٢٩) تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٧٨.

(٣٠) النساء: ٩٠.

(٣١) تفسير القمي، ج١، ص٢٨١-٢٨٢.

(٣٢) البحار، ج٢١، ص٢٦٧.

(٣٣) تفسير فرات الكوفي، ص١٥٩، وعنه في مستدرك الوسائل، ج٩، ص٤٠٨.

(٣٤) بحار الأنوار، ج٣٥، ص٢٨٩.

(٣٥) تفسير الأمثل، ج٥، ص٥٤٨.

(٣٦) تفسير الأمثل، ج٥، ص٥٤٦، أسباب النزول للواحدي، ص١٦٣.

(٣٧) التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي، ج٥، ص١٨٣.

(٣٨) تفسير الميزان، ج٩، ص١٥٩.

(٣٩) الدر المنثور، ج٣، ص٢١٥.

(٤٠) تفسير العياشي، ج٢، ص٧٩.

(٤١) التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي، ج٥، ص١٨٣.

(٤٢) البرهان، ج٣، ص٣٧٤، وراجع نور الثقلين، ج٢، ص١٨٨-١٨٩.

(٤٣) تفسير العياشي، ج٢، ص٨١، ونور الثقلين، ج٢، ص١٦١، والبرهان، ج٣، ص٣٧٨.

(٤٤) الكافي، ج٥، ص١١.

(٤٥) الكافي، ج٣، ص٥٦٦.

الأدعية القرآنية وخصائصها

الشيخ محمد أحمد جواد التاجر

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في محكم كتابه: {وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[1].

من منطلق هذه الآية الكريمة التي في طيها معاني ودلالات كثيرة ومن أبرزها وأهمها الحث على الدعاء. لو تأملنا في سبب نزول هذه الآية المباركة لوجدنا بعض النكات المهمة فلا بأس بذكر سبب نزولها وهو <أنه سأل رجل رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أهو قريب ليناجيه بصوت خفي أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟>[2].

فنزلت هذه الآية المباركة.

ومنه نعرف أن رب العالمين قريب من عبده، لكن هل العبد قريب من الله أم لا؟ فلو كان بعيد فهذا بسبب معاصيه التي تبعده عن الله.

<رب العالمين إجابته دائمة لا موسمية بدلالة كلمة {أجيب} التي تعني الدوام. ولا نريد أن نتطرق إلى الحكمة الإلهية وسيرها في استجابة الدعاء وما هي شروط استجابة الدعاء هذا بحث في محله لكن محل الشاهد هو وظيفة العبد الدعاء>[3].

حثت السنة النبوية وسيرة الأئمة الأطهار على الدعاء وهناك روايات كثيرة نذكر منها : -

الرواية الأولى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: >**عليكم بالدعاء، فإنّكم لا تقربون إلى الله بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها، إنّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار**<[٤].

الرواية الثانية عن الإمام الرضا عليه السلام قال: >**عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال: الدعاء**<[٥].

الرواية الثالثة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: >**من فتح له من الدعاء منكم فتحت له أبواب الإجابة**<[٦].

الرواية الرابعة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: >**ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**<[٧].

وروايات كثيرة نكتفي بهذا القدر.

وهذا الحث على الدعاء يبيّن وجود أهمّية له يمكننا أن نوجزها في نقاط:

إن الإنسان ما هو إلا مخلوق ضعيف يحتاج في كل أوقاته إلى من يمده بما يحتاج إليه بل"هو فقر مطلق وهذه هي حقيقته الوجودية وبطبيعة الحال الفقير المطلق يحتاج إلى الغني المطلق ونجد أن الدعاء محرك أساسي لشعور الإنسان بالنقص وحاجته لرب العالمين الذي هو الغني المطلق"[٨].

الدعاء هو مخّ العبادة كما نقل في الروايات فقد روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: >**الدعاء مخّ العبادة ولا يهلك مع الدعاء أحد**<[٩] فكما أن الإنسان بدون مخّ يفقد كل شيء فكذلك العبادة بلا دعاء تفقد قيمتها الحقيقية. فهذه الكناية التي عبرت بأن الدعاء {مخّ} تبين عظمة الدعاء وأهميته البالغة.

يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: >**ادفعوا أبواب البلاء بالدعاء**<[١٠].

فالبشر محاطون بالبلاء ولا يمكنهم أن يضمنوا أمنهم من الشرور المختلفة، والدعاء أحد الوسائل في دفع هذا البلاء. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ

بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }[11].

الدعاء أمر وشعور فطري يلجأ إليه كل من يقع في الضرر وهذا ما نراه في حياتنا اليومية بكثرة، يقول تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[12]، إلى أين يذهب المخلوق إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه السبل ولا يدري إلى أين يتوجه فتراه يحن ويلجأ إلى رب العباد خالق هذا الكون ومدبره فهو المعطي الحقيقي الذي حين تتوجه إليه تفتخر بهذه الحالة المسماة بالدعاء، بعكس ما إذا طلبت من محتاج مثلك وما هو في حقيقته إلا محتاج فإنّك لا تشعر بالفخر فضلاً عن أنك قد تشعر بالذلّ.

"فالدعاء من ضروريات الحياة ويدفع البلاء وهو سلاح المؤمن فلذا نجد أن القرآن الكريم اشتمل على أدعية منها للأنبياء والأولياء والصالحين، ويكفيك بأنّ القرآن الكريم الذي هو دستور الحياة المنزّل على نبينا المرسل افتتح سورة الحمد بالثناء والدعاء"[13]. ويعتبر الدعاء من أبرز عوامل الانتصار على الأعداء لذلك عندما نتأمل في سيرة أئمتنا الأطهار نجدها محفوفة بالأدعية كالصحيفة العلوية ودعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة والصحيفة السجادية التي تُجسّد من هو الإمام وكيف كان يتلذذ في عباراته ومناجاته لله تعالى. ومما لا شك فيه أن الدعاء في حقيقته تأصيل العلاقة بين العبد وربه وأنّ رب العالمين كما أشارت كثير من الآيات والروايات يحب أن يسمع صوت الداعين وأنّه مجيب للدعوات لذلك تجد حثا من قبل القرآن الكريم والروايات الشريفة على الدعاء وبيان أهميته وآثاره. منهجية البحث قائمة في سرد الأدعية المذكورة في القرآن الكريم من أدعية الأنبياء والأولياء الصالحين وحاولت أن أستخلص خصائصها في نهاية المطاف.

عندما نتدبّر في هذا الكتاب العظيم فنرى أنّ أول دعاء فيه ذكر جاء على لسان النبيّ إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة: {وَإِذْ قَالَ إِبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا

آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ}[١٤]، فالأمن والرفاهية في العيش لأهل الإيمان من الأدعية ذات الصبغة السياسية -الاقتصادية، فعلى المؤمنين السعي إلى تحقيق الأمن والاستقرار الاقتصادي الإسلامي في العالم، فمن أجل أن يعيش المؤمنون أحرار آمنين في بلادهم معتمدين على أنفسهم مستقلين عن الآخرين رافعين لواء العبودية لله سبحانه في الأرضين، ندعوا بدعاء النبي إبراهيم عليه السلام وبه استجيبت دعوته عليه السلام.

وكذلك نرى آخر دعاء جاء في القرآن الحكيم على لسان نبي الله نوح عليه السلام الذي يطلب به من الله تعالى الغفران والرحمة له ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات حيث يقول: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}[١٥].

فما أشدّنا احتياج (الأمّة الإسلامية) أن ندعو ربّنا ونطلب منه الأمن والعيش الرغيد في الحياة الدنيا، ونرجوا منه الغفران والرحمة والفوز بالرضوان والدخول في الجنان يوم القيامة.

في رحاب القرآن الكريم

يتمكن الإنسان أن يتصل مباشرةً بربّه الكريم بلا واسطة، ومتى شاء وأينما كان، فلا حجاب ولا حاجب، ولا حرس، ولا نوم ولا سنة، ولا حاجز ولا موانع ولا فواصل مكانية ولا مواعيد مقررة من قبل {وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}[١٦] ولا يوجد مانع من الموانع التي نراها في حياتنا اليومية، فكلّما ازدادت الاتصالات تقدّم وانتشرت وسائل الإعلام ازدادت العقبات، فحاشى للساحة الربوبية من هذه العراقيل، فعليك أيّها الإنسان المسلم أن تتجه نحو البارئ بقلب سليم ونية خالصة، وتطلب حوائجك من الربّ الجليل كما فعل الأنبياء ^ عبر الدعاء، ولأجل أن نوضّح هذا المعنى نذكر هنا بعض من حوارات الأنبياء العظام، وحوار لإحدى النساء العظيمات.

١. النبيّ زكريا عليه السلام: -انظر كيف يصوّره القرآن الكريم:

قال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} فجاء النداء مشفوء بالإجابة الفورية: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا}[١٧].

"ما أعظمه من حوار، حيث يخاطب الإنسان ربه العزيز بلا مانع ولا راع ولا خوف، وبكلّ بساطة وارتياح خاطر، ثم يطلب منه العظيم والمستحيل (الإنجاب بعد العقم)"[١٨]، فتشمله العناية الإلهية وتُستجاب له الدعوة مباشرة وعلى الفور كما يستفاد من النص والحوار، فلا تجد حروف عطف ولا فواصل كلامية.

واعلم كلّما كان المطلوب عزيز كان على الله هين بسيط ، لأنّه القادر على كلّ شيء وبيده الأمور كلها فسبحان ربّنا القادر المتعال.

٢. النبيّ نوح عليه السلام:

{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا }[١٩].

وهذا هو النبي نوح عليه السلام يخاطب ربّ العالمين ويبث له شكواه عن قومه الكافرين ثم يذكر نهضته وما قام به من عمل دؤوب، ليلاً ونهار ، سر وإعلانا،

يجاهد في سبيل الله لا يخاف لومة لائم، ولكن لم يصل إلى النتيجة المطلوبة، فدعا عليهم بالفناء. وتتجلّى في هذا الحوار الأمور التالية:

١. الاتصال بالله مباشرة بلا أية واسطة.
٢. الاستجابة مباشرة وفورية.
٣. الكلام العادي والبسيط وليس فيه ارتعاش وخوف.
٤. وفي نهاية المطاف فيه طلب الغفران.

هكذا تصنع الأدعية عندما تُسدّ الأبواب في وجوه العباد.

٣. امرأة عمران؛ ويبدأ بالحوار كما يلي:

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}[٢٠].

"ما أروع هذا الكلام، البساطة تغمر العبارات، الجمل ليست فيها ذبذبات للخوف، والكلام آخذ مجراه الطبيعي، ثم انظر إلى هذا الإنسان الضعيف كيف يخاطب الربّ العظيم من دون تلكؤ في الكلام، وكأنّه يخاطب صديق حميم ، بل هو أرحم الراحمين، ولكن أين القلوب الواعية والأسماع المصغية، فما أحوجنا اليوم إلى الأذن والقلوب الواعية حتى نصنع بها معاجز عصرنا الحاضر وتبقى خالدة مدى العصور والأزمان والأجيال القادمة"[٢١].

الإجابة السريعة:

مما لا ريب فيه أنّ الله نعم المجيب، وهو الربّ الجليل، {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}[٢٢]، فهو المالك لكل شيءٍ وبيده الخير، فلا تأخير ولا تأجيل في الإجابة، وإنّه الجواد الكريم، إذ هو صاحب خزائن السموات والأرضين، فلنعم الربّ، ربّنا الغفور الشكور. وهو كذلك سريع الإجابة كما صرّحت الآيات التالية:

١. {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ}[٢٣].
٢. {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا

مَا بِهِ مِن ضُرٍّ}[٢٤].

٣. {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى}[٢٥].

فإنّك لترى بوضوح أنّ الاستجابة جاءت مع نوح عليه السلام مقرونة بالنجاة، ومع أيوب عليه السلام اقترنت بكشف الضرّ، ومع زكريا عليه السلام بالهبة، فما أحلى هذه الاستجابات، إذ هي من أكبر العبر لنا، وما أحوجنا أن نقتدي بأسوتنا هؤلاء الكرام من الأنبياء العظام.

ومن جهة ثانية إنّ الله العزيز لن يهمل ولن يترك البشر بل توجهت العناية السماوية إليهم كما اتجهت نحو الأنبياء ^ حيث يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله قائلاً: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[٢٦]. فالربّ العظيم ينظر الدعوة من عبده، فهو أقرب إليه من الآخرين وسريع الإجابة كما كان يستجيب دعاء المرسلين، وثمّ أمرنا أن ندعوه حيث قال: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[٢٧] .فالإجابة مضمونة يقينا بلا أدنى شكّ وترديد، إلهي وربّي أدعوك كما أمرتني فاستجب لي كما وعدتني.

طوائف الداعين

قال تعالى: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ}[٢٨]، فهو السلام ويحبّب الناس عن طريق رسله و آياته إلى دار الخلد، ثم يدعو الأمم ليحط من ذنوبهم وليرضى عنهم حيث يقول عزّ من قائل: { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ}[٢٩]، فهو المقتدى في هذا السبيل والقائد لأصحاب الرسالات وأهل الإيمان إلى هذا الطريق، وأمّا الطائفة الأخرى فهم الأماثل والأفاضل من أهل الدين والتقوى عباد الله المخلصون، قادة الشعوب إلى ساحل الأمن، والحكّام على القلوب، الهداة للحقّ، وأصحاب اليقين، قدوة للصالحين والعاملين، عبّاد زهّاد في الدنيا، أصحاب الجاه العظيم عند الربّ الكريم ألا وهم الأنبياء والصالحون عليهم آلاف التحية والسلام. فالدعوة إلى

الحقّ تجلّت في خاتم أنبيائه ورسله محمدﷺ وكانت فيها:

أولاً: الحياة، حيث قال تعالى في حقّ رسولهﷺ: {اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[٣٠].

ثانيا : الإيمان، قال تعالى: {وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}[٣١].

ثالثا : الهدى، قالعزّوجلّ: {وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[٣٢]، فالدعوة إلى الصراط هو طلب الهداية، والهداية من لوازم الإيمان حتى يصل الإنسان إلى رضوانه تعالى. ولكن ترى من جانب آخر أنّ هذه الأمور ليست هيّنة، فهناك أناس يقفون سد أمام الأنبياء ^ والمصلحين، ويفضلون حياة الجهل والذّلّ والظلم والشرك على دعوة الأنبياء، ويصعب على الظالمين تلبية نداء السماء والرضوخ للأنبياء ^ كما عبّر عنهم الخالق قائلاً: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}[٣٣].

أدعية الأنبياء والمرسلين ^ :

هي كثيرة ونشير إلى بعضها:

أدعية الرسول محمدﷺ: فطلبات الرسولﷺ من الله تعالى تحدّدها المواقف المختلفة من سياسية وفردية واجتماعية و...

أولاً: الأدعية السياسية، وهي أيض ًتحددها الأدوار الزمنية المختلفة التي عاصرت الرسولﷺ منها قوله تعالى: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}[٣٤]، فالاستعانة بالله لأداء حقّ الرسالة لعظم شأنها ونشرها بين الجماهير ما هي إلا حركة سياسية عقائدية تقوم على أسس ومبادئ التوحيد والإيمان ونفي الشرك بين الشعوب. ويذكر صاحب مجمع البيان في هذا الصدد قائلاً: "اختلف المفسرون في معنى أدخلني... (وانني أرى هذا المعنى يناسب الآية أكثر) حيث يقول: أي أعنّي على الوحي والرسالة، والدليل على ذلك ما قام بشرحه في القسم الثاني من الآية، واجعل لي عز امتنع به

ممّن يحاول صدّي عن إقامة فرائضك وقوة تنصرني بها على من عاداني فيك"[٣٥]، فطلب التصدي لأعداء الدين من المشركين والضالين والتحدي لهم ما هي إلا حركة إصلاحية سياسية وليس من ورائها إلا إقامة التوحيد ونشر الإيمان بين الأمم.

ومن تلك الدعوات السياسية الاجتناب عن الطواغيت: ففي موطن من القرآن الكريم يقول الباري تعالى عن لسان نبيّه صلى الله عليه وآله: {رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٣٦]، فالرسول صلى الله عليه وآله يتبرأ من أصحاب الظلم والشرك ويطلب من الله سبحانه أن يُنجّيه من الظالمين ومقاطعتهم، وما هذه الحركة إلا حركة ونشاط سياسي آخر للرسول صلى الله عليه وآله.

ثانيا: الطلبات الفردية، منها طلب الزيادة في العلم، حتى يكون الإنسان على بيّنة من أمره، فالعلم مصباح لأهل الإيمان وأساس لأهل اليقين حيث يقول العزيز مخاطبا نبيّه الكريم: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[٣٧]، ومنها الاستعاذة بالله العظيم من الشيطان الرجيم الذي يغوي الناس أجمعين ثم يتبرأ منهم أمام رب العالمين في يوم الدين، فالنبي صلى الله عليه وآله يعلم الأخطار التي يقوم بها هذا اللعين من الإغواء والتمرد والفساد ونشر الشرك بين الشعوب فإنّه يستعيذ بالله منه قائلاً: {رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ}[٣٨].

ومنها الشكوى لربّ العباد من قومه الذين تركوا القرآن العظيم وراء ظهورهم وعدم الاعتناء به حيث تركوا العمل بأحكامه وجروا وراء أهوائهم الضالة حيث يحكي الله عن لسان النبي صلى الله عليه وآله: {يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}[٣٩].

ومنها طلب الغفران والرحمة، فبهما تنال السعادة الأبدية من الربّ، واعلم إن لم تكن المغفرة من قبل الجليل فماذا ستكون عواقب العاصين؟ فالعفو بيد الغفور الرحيم يتجاوز عن المذنبين بين الحين والحين، بل يتداركهم بالرحمة والشفقة، لأنّه كتب على نفسه الرحمة، وأرسل إلينا رسول الرحمة، وأنزل علينا

كتاب الرحمة، فنحن في رحمة الله الواسعة غارقون، وفي ظل الرحمة سائرون، وإليها راغبون، ومن أجل هذا نرى الرسول الكريم ﷺ يدعو الربّ العزيز قائلاً: {رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}(٤٠).

دعاء النبي آدم وحوّاء عليهما السلام:

الدعاء قرين الإنسان منذ الأزل وإلى يومنا هذا وإلى الأبد، فهو من أعظم المساند لظهر البشر، ومن أقوى الأسلحة لأهل الإيمان، به تتسامى الأعمال الصالحة، ويصل الناس إلى الكرامة والعزّة، فهذا أبونا آدم عليه السلام وهذه أمّنا حواء قالا لربّ العظمة والكبرياء، {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(٤١)، فالاعتراف بالذنب فضيلة، فلا بدّ لنا من أن نقرّ بالأخطاء لربّ العباد ونعترف بالذنوب أمامه، فالندم يمثل المرحلة الأولى للتوبة وثمّ نطالب الكريم أن يتجاوز عن الذنب العظيم، فهو السميع المجيب، ومن ثمّ نرجوا من الله الرحمة كما صنع أبونا آدم عليه السلام، فلا بدّ من أن نشير هنا إلى أنّ الرحمة ملازمة للغفران فلا ننسى ذلك.

أدعية نوح عليه السلام:

نوح عليه السلام شيخ المرسلين بحكم كبر سنه عاش سنين ومضى في سبيل ربّه مبلغ رسالاته لاقي المصائب الكثيرة من المعاندين فجاءت أدعيته عليه السلام في القرآن الكريم على محاور عديدة منها:

١. الأدعية السياسية: حيثُ يطالب الله العزيز بالنصر القريب قائلاً: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}(٤٢)، فطلب الانتصار على الأعداء ودحر الخصماء وإزاحتهم عن المجتمع الإنساني وتطهير الأرض من المشركين وإقامة شعائر الدين ما هو إلاّ دعاء سياسي، وتراه عليه السلام في موطن آخر يقول: {رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ}(٤٣)، فالانتصار على كيد الأعداء الذين اتهموه بالكذب والافتراء، حيث لم يجدوا طريق لضرب الرسالة السماوية إلاّ عن طريق التهمة ليحطّوا من مقامه عليه السلام

في أنظار الناس فبادر حينئذ بطلب الانتصار على أعداء الدين، فكانت دعوته سياسية أيض .

٢. الأدعية الاجتماعية: ما زال الإنسان يعيش مع الآخرين جنب إلى جنب، ولا يستغني الإنسان في حياته عن بني نوعه.

فلا بدّ من أن تتوثق الأواصر الاجتماعية فيما بينهم، وأفضل طريق في هذا المجال هو الدعاء، حيث قام بهذه المهمة نبيّ الله نوح عليه السلام عندما قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}(٤٤). فالدعاء، هذا وأمثاله سيزيد من الروابط والعلاقات الاجتماعية فيما بين أهل التقوى والدين، وسيمضي المجتمع نحو الإصلاح والرقي، وستكون العاقبة للمؤمنين، ومنها ما جاءت بصورة شكوى عن قومه الجهّال حيث يخاطب الباري تعالى بقوله: {رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا}(٤٥)، أو يقول: {رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ}(٤٦)، فالإنسان فطري بحاجة إلى من يشكو له آلامه حتى يسكن روحه ولبّه، ومن أفضل من الله معين ؟

٣. الأدعية الفردية: من أجل إصلاح النفس الأمارة بالسوء، ومن أجل التغلب على الوساوس الشيطانية ومن أجل حطّ الذنوب عن النفس، يجب علينا التوسل إلى الله تعالى كما فعل نوح عليه السلام قائلاً: {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ}(٤٧)، فطلب المغفرة المقرونة بالرحمة ما هي إلا سعادة البشر.

ونراه عندما يريد الهبوط على الأرض من بعد الطوفان يسأل ربّه قائلاً: {رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}(٤٨).

٤. الدعاء ضد الأعداء: وإن كان هذا العنوان يشعر بالجانب السياسي إلا أنّ من الجيّد أن نفرد له بحث خاص حتى نقف على أهمية هذا الدعاء الذي يقول فيه: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}(٤٩). "فالطلب بإبادة الكفار ومحوهم من على وجه الأرض لأنهم

بؤرة الفساد بين العباد، ولا رجاء فيهم ولا في نسلهم القادم، فالدعاء هذا يدل على وقوف نوح عليه السلام على ذات وماهية هؤلاء القوم حيث توارث فيهم الكفر والإلحاد ولا أمل عنده في إصلاحهم وإصلاح ذريتهم فدعا عليهم بالويل والثبور والفناء"[٥٠].

أدعية النبي إبراهيم عليه السلام:

ذكر القرآن الكريم أدعية كثيرة عن لسان النبي إبراهيم عليه السلام وذلك لما كان يواجهه من المشاكل الصعاب من قبل الكفر والشرك والطغيان، فاتخذ أكثر دعائه عليه السلام الطابع السياسي كما يرينا ذلك القرآن الكريم حيث يقول: {وَإِذْ قَالَ إِبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}[٥١]، فالدعاء هذا منطلقه سياسي طلب عليه السلام من الله تعالى الأمن والأمان لبيته الحرام وعطف عليه طالب منه الرزق الحلال لأهل الإيمان، فالأمن والاقتصاد عاملان أساسيان لبقاء الحكومة كما نرى ذلك مشهود اليوم. وأدعيته عليه السلام تسير على المدارات التالية:

١. إقامة الصلاة: فالسمة السياسية البارزة لأهل التوحيد والإيمان هي إقامة الصلاة بين العباد على الأرض حيث قال الله تعالى: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ}[٥٢]، فالتمكن السياسي والاجتماعي والاقتصادي يتجلّى في إقامة الصلاة، حيث إنّ إبراهيم عليه السلام سيّد رسل الله تعالى كان واقف على أهمية الصلاة فطلب من الله تعالى أن يكون هو وذريته من الذين يقيمون الصلاة حيث يعبّر البارئ عن دعائه عليه السلام قائلاً: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي}[٥٣].

٢. الذرية الصالحة: من سعادة المرء أن يورثه الله أولاد صالحين من أهل الإيمان واليقين ولا يتأتى ذلك إلا بالدعاء والطلب من الرحمن كما طلب إبراهيم عليه السلام: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}[٥٤]، فعلينا أن نتأسى بالنبيّ إبراهيم عليه السلام ونرجوا من الله تعالى أن يرزقنا أولاد صالحين لإقامة شعائر الدين، واعلم أن الاستجابة هنا جاءت عن طريق البشارة له عليه السلام.

٣. القضاء والإلحاق بالصالحين: أراد إبراهيم عليه السلام من الله القضاء الذي يتجلّى مع القانون والنبوة كما عبّر عن ذلك الله سبحانه قائلاً: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ}(٥٥)، حتى يحكم بين الناس بالعدل والحقّ، ومن المعلوم اليوم أنّ من أحد الأركان المهمة في الحكومة هو القضاء، فقال: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}(٥٦)، فاستجاب له قائلاً: {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}(٥٧)، أي أعطاه القضاء وزيادة على ذلك ألا وهو الاعتدال في القضاء وإدخاله إيّاه يوم القيامة في زمرة الأناس الصالحين الذين يرضى الله عنهم ثمّ يأمل من الله العزيز الحكيم أن يجعل ذكره حسن عند الأجيال القادمة، ويرجو منه أن يكون من أصحاب جنة النعيم، ثمّ يطلب الغفران لنفسه ولأبيه وأخير أراه دعا بدعاء قيّم (وإن كانت جميع الأدعية قيمة) وذلك بعدم الفضيحة يوم الدين وعلى رؤوس الأشهاد فالأولى بنا أن ندعو كما دعا إبراهيم عليه السلام.

٤. الإعجاز: علينا عند الدعاء أن نطلب منه سبحانه بما يعجز عنه الآخرون، وأن يكون مطلوبنا عظيم وليس في قدرة الناس، ولو كان بعضهم لبعض ظهير ، حيث طلب إبراهيم عليه السلام قائلاً: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}(٥٨)، فطلب منه إحياء الأموات، والعمل هذا ليس بهيّن بل إنّه عظيم وليس باستطاعة أحد الناس أن يقوم بهذا العمل إلّا الله ربّ العالمين، فبناء على هذا يا أخي المسلم عليك بالدعاء وطلب الإعجاز من الله سبحانه.

٥. الغفران: ما أرى الهدف من وراء الدعاء إلا الغفران والرضوان ومحو السيئات والدخول في الجنان، فإنّك لترى هذا المعنى بوضوح في الآيات البينات وفي مختلف نواحي القرآن، ومنها ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام قائلاً: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}(٥٩)، حيث يطلب من الله سبحانه أن يتغاضى عن ذنوب أهل الإيمان يوم القيامة وبذلك يحرز الإنسان الفوز بالجنّة إن شاء الله تعالى.

٦. التسليم: من أبرز مظاهر العبودية هو التسليم لربّ العالمين في جميع

الأمور تسليم محض بلا تعلل ولا تبرير، فلا يحيدان عن الحقّ بل مطيعين ومنقادين له ولا نعبد إلا إياه، وكما خاطب الجليل السّموات والأرضين: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}(٦٠)، والأمر المشكل هو أنّ الإنسان الذي يملك العقل والاختيار لن يستسلم بسهولة ولن يرضخ لربّ العالمين ببساطة حتى يكتشف ويجرّب الأمور بيده، وفي النهاية إما أن يستسلم وإما أن يطغى، فنرجوا منه العون والمساعدة على ذلك حتى نرتقي سُلّم الإيمان والسعادة.

٧. إرسال الأنبياء ^ : إنّ نعم الله على الناس كثيرة، {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا}(٦١)، ومن أكبر النّعم على البشر جميع ، هو إرسال الأنبياء لنجاة الإنسان من الجهل والكفر والشرك إلى الإيمان والتقوى، ثم تزكية النفوس وتطهير القلوب من الأرجاس كما طلب إبراهيم عليه السلام: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ}(٦٢). فما أحوج الشعوب في عالم اليوم إلى المصلحين السائرين على نهج الأنبياء الطاهرين وذلك بعد ما تلوثت الإنسانية بالشرّ والشرك والكفر والطغيان من جراء أعمال المستعمرين والصهاينة المردة الذين أفسدوا البلاد والعباد، فاليوم الحاجة ماسة للمسلمين أن يظهر فيهم رجل عظيم كالإمام الخميني الكبير & وإنّ ربّنا لنعم المجيب.

٨. أدعية متنوعة: وإنّك لتجد في مطاوي القرآن الكريم أدعية أخرى جاءت على لسان إبراهيم عليه السلام فمنها الإقرار والاعتراف بعلم ربّ العباد الذي ليس له مثيل حيث يقول: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ}(٦٣)، وهذا الكلام يعد بمثابة مدح في مقدمة الدعاء ومنها إظهار الشكوى من أصحاب الأصنام حيث تراه يقول عليه السلام: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ}(٦٤) وأخير نختم كلامنا حول إبراهيم عليه السلام حيث يقول: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء}(٦٥).

دعاء لوط النبي عليه السلام:

وأما لو نظرنا إلى أدعية لوط عليه السلام فما نجد فيها إلّا الصبغة السياسية، فهو يدعو ربّ العزة النجاة مما جرى له من الظالمين ومن أعمالهم الفاسدة التي تجلّت في عمل اللواط القبيح وما سبقهم أحد من العالمين في ارتكاب هذا الذنب العظيم، وكذلك ينتظر الانتصار عليهم من قبل ربّ السموات والأرضين حيث يقول عليه السلام: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}(٦٦)، فالإجابة تجلّت في نجاته وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرت عليهم السماء مطر المنذرين فأبادتهم أجمعين جزاء لكفرهم وانتصار للوط عليه السلام.

وهناك آية أخرى تؤيد ما أشرت إليه (من حملها الصبغة السياسية) فإنّه عليه السلام يطلب من الرحمن النصرة على الأعداء الذين هم من أهل الفسق والفجور، فطلب النجاة من الظالمين والانتصار على المعتدين وما هو إلا حرب ضد المشركين والكافرين.

أدعية النبي موسى عليه السلام:

إنّ موسى عليه السلام يعدّ من أئمة الثوار ضد الطغاة حيث شغلت مآثره أرجاء القرآن، نبيّ كريم من أصحاب أولي العزم، ابتُلي بقوم عصاة طغاة مردة من اليهود الذين لم يكن لهم مثيل في التاريخ، بهم تضرب الأمثال في العصيان ولهم تُذكر الشواهد من سوء الأعمال في القرآن الكريم، عبرة لأولي الأبصار، فجاءت أدعيته عليه السلام مطابقة لما لاقاه من اليهود الجبناء الذين عاصرهم وتحمّل ما تحمّل من أذاهم، وكانت دعواته عليه السلام كما يلي:

١. الإدارة السياسية: لمّا وُظف النبيّ موسى عليه السلام بأمر الرسالة من قبل السماء في طور سيناء وجاءه البلاغ الرسمي -النبوة- من قبل الله تعالى، كان عليه السلام محيط وعالم بزمانه ومكانه وموقعه الاستراتيجي لدى الأمّة فالتفت نحو السماء رافع يديه إلى الله طالب منه الاستعانة للمنصب الجديد وأن يوفّر له قسط من العوامل

الإدارية السياسية التي يحتاج إليها كلّ قائد محنك منها:

أ. سعة الصدر: وذلك حين قال موسى عليه السلام: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}[٦٧] حتى يتحمل كل المصاعب والآلام، فمن ضاق صدره في إدارة شؤون البلاد ليس بمستوى المدير، ولا يليق بهكذا إنسان أن يتصدى لمقام النبوة، وذلك لما في الناس من إفراط وتفريط في الأعمال ولما عند بعضهم من أطماع وغيرها "فمن صفات القائد اللائق الذي يُدير شؤون البلاد والعباد أن يمتلك سعة صدر تكون بمساحة بلاده، وأن يتجلى فيه الصبر والحلم، وإلا سيكون الخسران حليفه"[٦٨].

ب. تسهيل الأمر: حيث قال عليه السلام: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}[٦٩]، أي أمر الرسالة، فإنّها من أعظم الأمور السياسية، وليست بالهينة، فأمر النبوة ثقيل، ومن يتحمّل العبء الثقيل على عاتقه لا بدّ من أن تتداركه الرحمة الإلهية.

ج. فهم الخطاب: لا بدّ للنبيّ من أن يتصل بالشعب عن طريق لغة التفاهم والتخاطب، ويبلّغ رسالته عبر الكلام ويُبيّن مقاصده وآراءه عبر اللسان، فمن أجل إدراك الحقائق بسرعة طلب موسى عليه السلام من ربه سبحانه أن يُحلّ عقدة لسانه حتى يدركه القوم كاملاً ويصل إلى أهدافه المنشودة بلا نقص في بيان.

د. الوزير من آل البيت: بما أنّ الرسالة النبوية ذات عبء ثقيل على كاهل الأنبياء والمرسلين، طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يُعينه بشخص من أهل بيته ومن أقربائه، عالم بالأمور واثق به، معتمد لديه، ألا وهو هارون عليه السلام أخوه، حتى يشدّ موسى به ظهره ويبذل له الجهد حتى يقيما حدود الله في الأرض، وكذلك طلب من الجليل أن يُشاركه في النبوة حتى يكون أحرص على معاضدته ولم يُقصر في النشر، باذلاً نفسه في رسالته، فأصبح الأمر على ما يرام من بعد أن استجيب دعاء موسى عليه السلام في حقّ أخيه.

٢. طلب المغفرة والرحمة: إنّنا رأينا مسبقاً أن الأنبياء ^ أكثر من طلبوا من الله الغفران والرحمة فهذا موسى عليه السلام سائر في المنهج القويم ويطلب من الجليل: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[٧٠]، وتارة

أخرى يدعو حسبما يتطلبه الموقف قائلاً: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ}(٧١)، فإنّك لتجد الإجابة السريعة في الكلام، فعلينا في حياتنا أن نقتدي بهؤلاء العظام لطلب المغفرة من الربّ الكريم.

٣. مقاطعة الظالمين: لا بدّ للمؤمنين من الاستعانة بالرب العظيم للقضاء على الظالمين وكذلك لا بدّ للمؤمنين من عدم الارتكان عليهم في الأمور مهما كلّف الأمر، حيث قال موسى عليه السلام في هذا الشأن: {رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}(٧٢)، {رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ}(٧٣)، فالجزاء الحسن والشكر على النعم الربانية تستوجب عدم الاستناد إلى الظالمين في جميع الأمور، حتى تسقط دولتهم.

٤. الدعاء ضد المجرمين: لا شك في أنّ أصحاب الرسالة هم الذين تُستجاب دعواتهم ضد الكفار والمنافقين، وهو يدعو لأجل إبادة المشركين من على وجه المعمورة، فجاءت دعوتان لموسى عليه السلام في هذا المجال الأولى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ}(٧٤)، والثانية؛ جاءت ضد الطاغية فرعون حيث يقول: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} {فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}(٧٥)، فمتى شئت أيّها المؤمن ادعُ كما دعا الأنبياء عليهم السلام فسترى المعاجز والاجابة السريعة.

دعاء زكريا النبي عليه السلام:

من أبرز سمات الدعاء عند زكريا عليه السلام هو طلب الاعجاز، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه أولاد صالحين ومرضيين، فالذرية الطاهرة تُحيي ذكرى صاحبها والذرية الطالحة تمحوها، زكريا عليه السلام بعد الأياس وعقر زوجته وهب الله له ذرية طيبة كما أراد هو، حيث يقول عليه السلام: {رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}(٧٦)، وكذلك طلب من الله سبحانه أن تكون هذه الذرية مرضية، حيث يقول عليه السلام: {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}(٧٧)، فاستجابت له السماء قائلة: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ

بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى}[٧٨]، فانظر إلى إعجاز ربّك الذي يقول: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء}[٧٩]، فمن أراد الإعجاز فعليه بالدعاء.

أدعية النبي سليمان عليه السلام:

توالت النّعم على سليمان عليه السلام من كلّ جانب، فطلب من البارئ العون على إسداء الشكر على جميع هذه النعم التي أحاطتْ به وبأبيه عليه السلام فكان دعائه عليه السلام يسير وفق لمتطلبات عصره وعلى المحاور التالية:

١. الشكر على النّعم: فهو عليه السلام يطلب من الله تعالى مرار أن يوفقه للشكر على ما أنزل عليه من النّعم، حيث يقول عليه السلام: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ}[٨٠]، "فالشكر على النّعم يضاعف النّعمة، ولما تتوفر النّعم يزداد الاقتصاد رونقاً ويعمّ الانبساط بين طبقات الناس، ومن جهة أخرى سيفرض التوحيد كلمته سياسيا في العالم"[٨١].

٢. التوفيق للعمل: إنّ من أبرز صفات المؤمن العمل الصالح، خلافاً للآخرين من أصحاب الأقاويل، فسليمان عليه السلام يرجو من الله أن يُعينه على العمل الصالح وأن يكون ذلك العمل مرضيا له، ومن ثمّ يُثاب عليه، حيث يقول عليه السلام: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[٨٢].

٣. إصلاح الذرية: دأب الأنبياء ^ أن يطلبوا من السماء الذرية الطاهرة وإصلاحها، كنبي الله إبراهيم عليه السلام وزكريا عليه السلام وكذلك سليمان عليه السلام الذي يقول: {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي}[٨٣]، فما أجدر بنا أن نقتدي بهؤلاء الكرام الأسوة العظام في طلب إصلاح الذرية وجعلها طاهرة مرضية.

٤. الإعجاز: ممن تولّى من الأنبياء الحكومة السياسية اثنان وهما يوسف عليه السلام وسليمان عليه السلام، على ما يقصّه القرآن الكريم.

لقد أشرنا من قبل إلى أنّ علينا بالدعاء وأن نطلب من السماء بما لا

يُطيقه البشر، وبعبارة أخرى لا بدّ من أن نطلب المعجزة في الدعاء كما فعل سليمان عليه السلام وغيره من الأنبياء، وإنّك تراه بعد ما طلب الغفران من الربّ السبحان قال عليه السلام: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}(٨٤)، "فعجيبٌ لهذه الرؤية العظيمة الواسعة المفتوحة كلّ الانفتاح على العالم جميع ، خلاف للأنظار الضيقة من العباد الذين يرون الحاجات الآنية فيكتفون بها"(٨٥).

فيجب أنّ نعتبر بهذه الرؤية العظيمة وندعو الله بالنصر والفوز لأهل الإيمان في مشارق الأرض ومغاربها بثورة عارمة يقودها إمامنا المنتظر المهدي # ، وأن يهب له ما وهب لسليمان عليه السلام بل وأكثر من ذلك.

دعاء يوسف النبي عليه السلام:

"ابُتلي يوسف عليه السلام بشرّ ابتلاء من قبل امرأة على ما يحكيه القرآن، ولكن العناية الربانية وإرادته القوية أنجته من براثين الضلال والظلام بعد ما التجأ نحو السماء داعيً ربه بإخلاص"(٨٦)، فالإرادة والدعاء صنعت من يوسف عليه السلام بطلاً يُقتدى به في الأخلاق، فحبّذ العيش في السجن على دعوة الضلال، وانتصر أخير بعزم وإرادة حيث يقول عليه السلام: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(٨٧)، فإنّك لترى النصر كان حليفه ونجى أخير من تلك الفتنة، عالي الرأس، راضيً عنه الربّ، محمود الذكر، والعاقبة على خير، فما أحرى بنا اليوم أن نقتدي بهذا البطل العظيم ونسير على خطاه حتى لا تزلّ أقدامنا ويطهر مجتمعنا من المفاسد الأخلاقية.

دعاء يونس النبي عليه السلام :

يعاني الإنسان في حياته مشاكل عديدة ومصائب شديدة بحيث تغلق في وجهه جميع الأبواب والآمال، ويقف الإنسان حيراً مكتوف اليدين وليست له القدرة على تغيير شيء، حيث الإرادة مسلوبة، والطاقة ضعيفة، فلا طرق للحلّ، ولا أفكار منجية، ولا أسانيد ولا... فيصبح اليأس ثوبً يرتديه الإنسان، مقهور

إلى الوراء، محكوم عليه بالسجن المؤبد أو الإعدام، تكاد حياته تندحر، هذا وإنّ لله تعالى جزاء وعقاب ينتقم به من أعدائه وأحياناً يؤدّب به أولياءه، وإنّ حادثة يونس بن متى عليه السلام تظلّ وتبقى درس وعبرة خالدة لمن يخشى ربّه، فقصته معجزة، حيث بقى حيّ في بطن الحوت ولم يمت، ودعاؤه عليه السلام بعد ما اعترف بالظلم على نفسه فأنجاه الله من الكرب العظيم وهو أيضاً القادر على نجاة المؤمنين عند الشدة والمصائب، حيث يقول الباري في هذا المجال: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}(٨٨)، دخل يونس عليه السلام انفرادية وليس له حول ولا قوة ولا سير ولا حركة إلا الدعاء الساحر، فما أشدّ ما لاقاه من مصيبة وما أعظمه من جزاء، فلو لم يكن من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، فكن يا أخي المؤمن من الذاكرين ولا تكن من الغافلين، وهذا إعجاز آخر للدعاء فاعتبروا يا أولي الأبصار.

دعاء النبي عيسى عليه السلام :

لقد رأينا الإعجاز في كثير من الأدعية التي جاءت على لسان الأنبياء ^ : من مثل إبراهيم ويونس وزكريا وعيسى وسليمان عليهم السلام ، فللدعاء أثر عظيم في نفوس الداعين فما بالك لو حصل الإعجاز من وراء ذلك.

فلا بد علينا من السير قدماً نحو الله تبارك وتعالى الذي يقول: {مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}(٨٩)، فمن أراد الإعجاز فعليه بالدعاء ومن أراد الانتصار على الأعداء فعليه بالدعاء ومن أراد أولاد صالحين فعليه بالدعاء، وهذا نبيّ الله عيسى بن مريم عليه السلام يحدّثنا القرآن عنه لما طلب من السماء أن تنزل عليه وعلى أصحابه مائدة من الطعام فاستجيبت دعوته حينما قال: {اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}(٩٠)، فما أحلى هذا الدعاء وما أعذب الإجابة والإعجاز.

أدعية أصحاب الإيمان:

وإلى جانب هذه الأدعية العظيمة من قبل الأنبياء ^ فهناك أدعية أخرى زيّنت ساحة القرآن الكريم من قبل عباد الله المؤمنين ونشير هنا إليها حسب استطاعتنا:

دعاء الراسخين في العلم:

بالعلم يُطاع الله ويُعبد، وبالعلم قامت السموات والأرض، وبالعلم نكشف الحقائق ونبتعد عن الجهل... فالعلم مصدر نور وهداية وفي الوقت نفسه مصدر ضلال وعماية إذا تعرّى عن الإيمان والأخلاق، فلا بدّ للراسخين في العلم من أن يرجوا من الله سبحانه وتعالى الاستقامة والثبات ومواصلة الطريق على معرفته وعدم الميلان لغيره، وأحيانا يُصادف الإنسان بالفشل أثناء الطريق وينحرف عن المسير، فلأجل البلوغ إلى الكمال والرشاد يطلب الراسخون في العلم من الله الثبات على الإيمان والهداية والمواصلة حتى النهاية وتراهم يقولون: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}(٩١).

دعاء أصحاب الجنة:

لأصحاب الجنّة دعوتان الأولى التسبيح حيث يقول العزيز: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ}(٩٢)، والثانية التحميد حيث قال: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(٩٣)، وبمعنى آخر أنهم يبتدئون دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه ويختمونه بشكره والثناء عليه، فكلّ من التنزيه والتحميد ويعدّ دعاء برأسه.

أدعية المؤمنين:

"هم الزبدة من الخلق، وهم الطلائق الربانية، وهم المهتدون ولهم جاءت الرسل، وإليهم يتوجه الخطاب الرحماني ولأجلهم أرسلت الشرائع وبهم ينتشر الإيمان والهدى

وما عساني أن أقول فيهم؟ فهم هم، لأنّهم أولياء الله وخلفاؤه على الأرض فما كانت طلباتهم من الله تعالى؟"[٩٤].

فسنجد بعضها مشتركة مع الأنبياء ^ الذين هم سادات المؤمنين، والأخرى خاصة بهم فأمّا الأدعية المشتركة مع الأنبياء ^ :

١. استجابة الدعاء: فدعاء أصحاب الإيمان مستجاب كدعاء الأنبياء ^ وذلك لأنّهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وينشرون الدعوة الربانية بين الناس، فهم يطلبون من الرحمن النصرة على الأعداء كما عبّر عنهم تعالى بقوله: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}[٩٥]، ويقول في موطن آخر: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ}[٩٦]، والاستجابة هي العطية على موافقة الطلب.

٢. طلب الغفران والرحمة: هذا ما صنعه الأنبياء ^ وبهم يقتدي أصحاب الإيمان، فإنّهم يطلبون العفو والمغفرة وإدخالهم الجنّة حيث يعبّر عنهم ربّ العالمين قائلاً: {وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ}[٩٧]، وهم أيض يطلبون من الرحمن الغفران من أجل الإيمان كما تشير الآية الكريمة إلى ذلك: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}[٩٨]، أو يقول في موطن آخر: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[٩٩]، أو اقرأ هذه الآية: {ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}[١٠٠]، وأخير يقول عنهم الباري: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١٠١] وهم بذلك يطلبون الرحمة من عند الله لا من عند غيره كما قال العزيز: {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}[١٠٢]، فتراهم طامعين في المغفرة الإلهية حيث يقول: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا}[١٠٣] وكذلك يطلبون الغفران للسابقين من أهل الإيمان: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}[١٠٤]، فلا تجد عندهم ذرّة من الأنانية.

٣. مقاطعة الظالمين: وهو هدف من أهداف الأنبياء ^ ، فأصحاب الإيمان

يقتدون بهم حيث يقول الباري: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا}[١٠٥]، أو نراهم في هذه الآية يقولون: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[١٠٦]، فالابتعاد عن الظالم وطلب النجاة منهم ما هي إلا مقاطعة سياسية عمل بها الأنبياء ^ وسار عليها أصحاب الإيمان.

٤. الذرية الصالحة: بما أنّ الأنبياء ^ طلبوا من الله عزّ وجلّ أن يرزقهم أولاد صالحين، فإنّ المؤمنين كذلك طلبوا هذه العطية من ربّهم قائلين: {هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}[١٠٧].

وأمّا الأدعية الخاصة بالمؤمنين فهي:

١. الإنقاذ من النار: من أكبر أهداف أهل الإيمان الدخول في الجنان والفوز بالرضوان والنجاة من النار التي أُعدّت للكافرين، فأصحاب الإيمان يطلبون من الرحمن أن ينقذهم من عذاب النار كما تبيّن لنا هذه الآية الكريمة: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[١٠٨]، لأنّ الخزي والعار يوم القيامة للذين يدخلون النار صعب جد ، وهم كذلك مصرون على صرف عذاب نار جهنم عنهم حيث يقولون: {رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ}[١٠٩].

٢. الفوز بالجنة: فما أعظمه من هدف وما أسماه من غاية وما أحلاه من ثمرة، على أصحاب الإيمان أن يكتسبوا الجنان بالتقوى والعمل الصالح ليشملهم دعاء الملائكة: {وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم}[١١٠].

٣. مع الشاهدين: يرغب أصحاب الإيمان واليقين أن يكونوا مع الشاهدين وذلك لما أعدّه الله لهم من الأجر والثواب الجزيل، والفوز بالدرجات العالية والوصول إلى الكرامة الإلهية، وقد صرّح الزمخشري والطبرسي في تفسيرهما للآية الشريفة هذه: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}[١١١]. أنّ المقصود بـ (مع الشاهدين) أي مع أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله، وكفانا فخر وعز بأنّنا من أمّته ومن أتباعه وأنصاره إن شاء الله.

٤. مع الأبرار: الأبرارُ هم أهل الفضل والإحسان حيث أثنى عليهم سبحانه قائلاً: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}[١١٢] فما من صفة حميدة إلا ويتمنّاها أصحاب الإيمان أن تكون لهم في الدنيا حتى يحرزوا بها المقام الرفيق في الآخرة، وهم يرجون من الله تعالى في آخر لحظات حياتهم أنْ يفارقوا الدنيا وهم جنب إلى جنب أصحاب الفضل والبرّ كما عبّر عنهم القرآن قائلاً: {وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}[١١٣]، وكذلك يقول عنهم: {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}[١١٤].

٥. تطهير القلوب: من الصفات البارزة لأهل الإيمان أن يدلّ ظاهرهم على باطنهم، فلا تظاهر في السلوك، ولا نفاق في القول والعمل، وإنّه من المعروف أنّ القلب مركز للأحقاد والأضغان والعداوات، فهم يطلبون تطهير هذا المركز من كلّ رجس كما تصرح الآية؛ {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا}[١١٥].

٦. نفي سلطة الكفر: ما جعل الله سبيلاً لحكومة الكفر على أصحاب الإيمان، وإنّه جعل الولاية له ولرسوله وللمؤمنين، وبناء على هذا القانون يرجوا أهل الإيمان ألا يكونوا ضحية للكافرين، ويتجلّى هذا الأمر في كلامهم: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}[١١٦].

٧. الصبر: الصبر والإيمان توأمان كما صرحت بذلك الأخبار عن العترة الطاهرة، فالمؤمن المجاهد في سبيل الله بأمس الحاجة إلى الصبر حتى يستقيم في الطريق ويقاوم الظلم والشرك، ويستمر في نشر التوحيد، ويحتاج في هذا المجال إلى إفراغ الصبر عليه كما يفرغ الماء من الإناء، فالمؤمن من يستعين بالله قائلاً: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}[١١٧].

٨. النصر والفتح: كل مؤمن مجاهد عامل في سوح الإيمان بعد التوكل على الله يتمنّى من السماء النصر على الأعداء ويرجو الفتح القريب المظفّر من الله حيث يقول: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}[١١٨].

٩. عدم العقاب في حالتي النسيان والخطأ: المؤمن ليس بمعصوم والشيطان ليس بمأمون فهو المترصّد له في زوايا الحياة ينتظر الغفلة والنسيان

من الإنسان حتى يغويه ويضلّه، فالمؤمن يطلب من الربّ القدير أن يتجاوز عن نسيانه وخطائه الصادر منه بلا عمد حيث يقول: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}(١١٩).

١٠. ردّ ما لا يطاق: إن الله لا يكلّف نفسا إلا وسعها {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا}(١٢٠).

١١. حسنة الدنيا والآخرة: قوله تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}(١٢١).

أدعية الناس:

"الناس بصورة عامة ينظرون بمنظار ضيق على ما هو كائن حولهم فهم يشعرون باللذة الموقتة، والمنافع الآنية فهم يلمسون ظواهر الأشياء بشكل جيد، فيظنون أن السعادة محيطة بهم وإن أصابهم شر يحسبون أن القيامة قد قامت، وأن البلاء لا شك نازل عليهم، فطائفة من الناس في هذه الحالة لا يهدؤن لحظة عن الدعاء بل يدعون ربهم ماشين أو جالسين أو قائمين"(١٢٢) ، بل يدعونه ليلاً ونهار فهم في الشدة يعرفون الله حقّ معرفته ولهذا عبّر عنهم القرآن الكريم قائلاً: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ}(١٢٣)، أي أنّه يطيل في دعائه لربّه، وطائفة من الناس في هذه الحالة سيكونون آيسين من رحمة الله كما عبر عنهم القرآن قائلاً: {وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ}(١٢٤)، وطائفة ثالثة في مثل هذه الحالة يستسلمون لربّ العالمين ما دام البلاء قائم والخوف باقي والضرر جليّ ، فإذا ذهب عنهم الخوف والضرر عادوا على ماكنوا عليه من قبل، فقد ذمّ الله هذه الفرقة قائلاً: {دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(١٢٥)، أو كما يقول الله عنهم في موضع آخر: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ}(١٢٦)، فهذا يدلّ على أن الإنسان يبطر ويطغى ويستغني عن ربّه زمن الرخاء، وفي الشدة والحاجة يلتجئ إليه. وهناك طائفة رابعة أثنى الله عليهم لأنّهم يتجهون

نحوه في حالتيْ الشدة والرخاء واليسر والعسر يدعون ربّهم رغبة في ثوابه (الجنة) وخوفٌ من عقابه (النار)، لأنّهم أيقنوا أنّ ربّهم ذو عقاب شديد وذو رحمة واسعة ويشير الباري إلى هذه الحالة بين الناس قائلاً: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}(١٢٧).

أدعية أصحاب النار:

المتدبر والمتأمل في القرآن يرى أدعية أهل النار ما هي إلا اعتراف بذنوبهم وبعض أمانيهم في الخروج من النار، فما أصبرهم على النار، وإليك أمانيهم:

١- الخروج من النار: يتمنّى أصحاب النار الخروج منها وهم مستعدون لدفع الضمان -الاعتراف بالذنوب- حيث تشير الآية إلى هذا المعنى: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}(١٢٨).

٢- العودة إلى الدنيا: إنّ العصاة المردة يتمنون الرجعة إلى الدنيا حتى يُسدّوا العجز والنقصان ويعملوا صالحٍ بعد ما رأوا العذاب الأليم وذاقوا طعم المرّ الشديد، ويحدّثنا الله تعالى عنهم قائلاً: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}(١٢٩)، فيكون الجواب رادعٌ لهم بـ(كلا) وليس لهم مفر من عقاب الله وعذابه.

٣- كشف العذاب: ما هو واضح من الآيات القرآنية أنّ العذاب في الآخرة لهو أشدّ من الدنيا، حيث يشير الله تعالى إلى ذلك أنّ لهم ثيابٌ قُطعت من النار ويسقون الماء الحميم، فأصحاب النار يتمنّون زوال العذاب كما كانت الحالة في الدنيا، بل فاتهم أنّ العذاب في الآخرة باقٍ ما بقى الله سبحانه حيث الخلود والبقاء الأبدي، لذا نراهم يطلبون من الله قائلين: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ}(١٣٠)، كلا وألف كلا.

٤- ضعف العذاب: أصحاب النار يرجون العذاب الضعف لكبرائهم والمسؤولين عن إضلالهم حيث يقولون: {رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا

مِّنَ النَّارِ}[١٣١]، وجاء في موضع آخر: {رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}[١٣٢]، وكذلك جاء في قوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ}[١٣٣]، وأخير يتمنى أصحاب النار سحق رؤوس قاداتهم بالأقدام كما يقول الله سبحانه: {رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا}[١٣٤].

الخاتمة:-

بعد استعراض أدعية الأنبياء في القرآن الكريم أود أن أوجز النتائج التي تم التوصل إليها:

إن الدعاء ذو أهمية كبيرة، ومكانة عظيمة في العقيدة الإسلامية وأعظم تطبيق له تجده في حياة الأنبياء.

تنبع أهمية الدعاء في حياة الأنبياء من حاجتهم للتعبد والصلة الدائمة والمباشرة مع الله والتوجه إليه رغبة ورهبة، كما تنبع من مهمتهم الدعوية وحاجتهم البشرية.

تميزت أدعية الأنبياء بآداب من شأنها أن تجعله مستجابا، فتناول دعاؤهم أدب الكلام من حيث الثناء على الله والتضرع والخضوع وإظهار الافتقار إليه.

تميز دعاء الأنبياء بإيجاز العبارة وغزارة المعاني.

كان لدعاء الأنبياء أثر عظيم في تعليم الناس كيفية الدعاء مع خالق الكون وعدم اليأس كما كان ذلك في دعاء النبي زكريا حين طلب الذرية على رغم كبر سنه وامرأته عاقر .

كما لاحظنا بأنّ القرآن الكريم مشمول بأدعية كثيرة وفي شتى المواضيع على اختلاف الطوائف الداعية فلا بأس في استعراض بعض خصائص الأدعية القرآنية ومنها:

إنّ الأدعية القرآنية في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة.

السهولة واليسر.

إنّ الأصل في دعاء المؤمنين قبوله إلا أن يحصل مانع يحول بينه وبين استجابة الدعاء.

لم تذكر أداة النداء (يا) في الأدعية القرآنية.

شمولها الدارين.

تضم جوامع الدعاء وكوامله.

لو تأملنا في الآيات لوجدنا دروس وعبر كثيرة أودّ أن أذكر بعضها:

في الدعاة دعوة العالم بأجمعه إلى تعظيم رب العباد ومناجاته ودعوة إلى تأصيل العلاقة بين العبد وربه عن طريق الدعاء.

تطهير النفس من الغرور والعجب.

الحث على التأسي بالأنبياء والمؤمنين.

التحذير من سلوك مسلك الكفار وإبليس وبيان عواقب من يقع في ذلك.

لفت أنظار الخلق إلى نعم الله الكثيرة عليهم وأكبرها نعمة استجابة الدعاء.

الهوامش

(١) البقرة/ ١٨٦.
(٢) تفسير النور – المجلد الأول ص ٢٧٩ – ٢٨٠.
(٣) تفسير النور – المجلد الأول ص ٢٧٩ – ٢٨٠.
(٤) ميزان الحكمة ص ١١٦٤ / الحديث ٥٥٧١.
(٥) ميزان الحكمة ص ١١٦٠ / الحديث ٥٥٤٠.
(٦) ميزان الحكمة ص ١١٦٦ / الحديث ٥٥٨١.
(٧) مكارم الأخلاق للشيخ رضى الدين الطبرسي، تحقيق علاء آل جعفر، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٢، ١٤١٦ هـ قم المقدسة: الجزء ١، صفحة ٨، الحديث ١.
(٨) الدعاء إشراقات و كمالات -سيد كمال الحيدري ص ٢٢- ص ٢٣.
(٩) ميزان الحكمة صفحة ١١٥٨ / حديث ٥٥١٩.
(١٠) ميزان الحكمة ص ١١٦٢ / الحديث ٥٥٦٠.
(١١) الرعد / ٢٨.
(١٢) النمل / ٦٢.
(١٣) تأملات في آيات الدعاء في القرآن الكريم أستاذ حسين عبدالله دهنيم.

(١٤) البقرة / ١٢٦.
(١٥) نوح / ٢٨.
(١٦) البقرة/ ١٨٦.
(١٧) مريم/ ٣-٤.
(١٨) أدعية القرآنية ظروفها الموضوعية و آثارها الوضعية- سيد هادي المدرسي.
(١٩) نوح/ ٥- ٢٨.
(٢٠) آل عمران ٣٥- ٣٧.
(٢١) أدعية القرآنية ظروفها الموضوعية و آثارها الوضعية- سيد هادي المدرسي.
(٢٢) الصافات /٧٥.
(٢٣) الأنبياء / ٧٦.
(٢٤) لأنبياء / ٨٤.
(٢٥) الأنبياء /٩٠.
(٢٦) البقرة / ١٨٦.
(٢٧) غافر / ٦٠.
(٢٨) يونس / ٢٥.
(٢٩) إبراهيم / ١٠.
(٣٠) الأنفال/ ٣٤.
(٣١) الحديد / ٧.
(٣٢) المؤمنون / ٧٣.
(٣٣) الشورى ١٣.
(٣٤) الإسراء / ٨٠.
(٣٥) الطبرسي - مجمع البيان ج٣: ٤٣٥.
(٣٦) المؤمنون / ٩٤.
(٣٧) طه / ١٤.
(٣٨) المؤمنون /٩٧.
(٣٩) الفرقان /٣.
(٤٠) المؤمنون/ ٨٨.
(٤١) الأعراف/ ٢٣.
(٤٢) القمر/ ١٠.
(٤٣) المؤمنون/ ٢٦.
(٤٤) نوح /٢٨.
(٤٥) نوح / ٢١.

(٤٦) الشعراء ١١٧.
(٤٧) هود / ٤٧.
(٤٨) المؤمنون / ٢٩.
(٤٩) نوح/ ٢٧- ٢٦.
(٥٠) القرآن الكريم و الدعاء- دكتور سيد خليل باستان.
(٥١) البقرة / ١٢٦.
(٥٢) الحج / ٤١.
(٥٣) إبراهيم / ٤٠.
(٥٤) الصافات/ ١٠١-١٠٠.
(٥٥) الإنعام/ ٨٩.
(٥٦) الشعراء / ٨٣.
(٥٧) البقرة / ١٣٠.
(٥٨) البقرة / ٢٦٠.
(٥٩) إبراهيم/ ٤١.
(٦٠) فصلت / ١١.
(٦١) إبراهيم / ٣٤.
(٦٢) البقرة / ١٢٩.
(٦٣) إبراهيم ٣٨.
(٦٤) إبراهيم / ٣٦.
(٦٥) إبراهيم/ ٤٠.
(٦٦) الشعراء / ١٦٩.
(٦٧) طه / ٢٥.
(٦٨) القرآن الكريم و الدعاء - دكتور سيد خليل باستان.
(٦٩) طه /٢٦.
(٧٠) الأعراف / ١٥١.
(٧١) القصص / ١٦.
(٧٢) القصص/٢٤.
(٧٣) القصص/ ١٧.
(٧٤) الدخان / ٢٢.
(٧٥) يونس ٨٨.
(٧٦) آل عمران / ٣٨.
(٧٧) مريم / ٦.

(٧٨) مريم / ٢.
(٧٩) آل عمران / ٤٠.
(٨٠) النمل / ١٩.
(٨١) تأملات في آيات الدعاء في القرآن الكريم - أستاذ حسين عبد الله دهنيم.
(٨٢) النمل / ١٩.
(٨٣) الأحقاف ١٥.
(٨٤) ص/ ٣٦.
(٨٥) تأملات في آيات الدعاء في القرآن الكريم - أستاذ حسين عبد الله دهنيم.
(٨٦) القرآن الكريم و الدعاء - د سيد خليل باستان.
(٨٧) يوسف / ٣٤.
(٨٨) الأنبياء / ٨٨- ٨٧.
(٨٩) الفرقان / ٧٧.
(٩٠) المائدة / ١١٤.
(٩١) آل عمران / ٨.
(٩٢) يونس/ ١٠.
(٩٣) يونس / ١٠.
(٩٤) القرآن الكريم و الدعاء - د سيد خليل باستان.
(٩٥) الأنفال / ٩.
(٩٦) آل عمران / ١٩٥.
(٩٧) البقرة / ٢٨٦.
(٩٨) المؤمنون /١٠٩.
(٩٩) آل عمران / ١٦.
(١٠٠) آل عمران/ ١٤٧.
(١٠١) التحريم / ٨.
(١٠٢) الكهف / ١٠.
(١٠٣) الشعراء /٥١.
(١٠٤) الحشر/ ١٠.
(١٠٥) النساء / ٧٥.
(١٠٦) الأعراف / ٤٧.
(١٠٧) الفرقان/٧٤.
(١٠٨) آل عمران / ١٩١.
(١٠٩) الفرقان / ٦٥.

(١١٠) غافر / ٨.
(١١١) آل عمران / ٥٣.
(١١٢) الانفطار / ١٣.
(١١٣) آل عمران/ ١٩٣.
(١١٤) الأعراف/ ١٢٦.
(١١٥) الحشر / ١٠.
(١١٦) الممتحنة/ ١٥.
(١١٧) الأعراف ١٢٦.
(١١٨) الأعراف /٨٩.
(١١٩) البقرة / ٢٨٦.
(١٢٠) البقرة / ٢٨٦.
(١٢١) البقرة / ٢٠١.
(١٢٢) أدعية القرآن الكريم ظروفها الموضوعية و آثارها الوضعية - سيد هادي المدرسي.
(١٢٣) فصلت / ٥١.
(١٢٤) فصلت / ٤٩.
(١٢٥) يونس / ٢٢.
(١٢٦) يوسف / ١٢.
(١٢٧) الأنبياء / ٩٠.
(١٢٨) المؤمنون / ١٠٧.
(١٢٩) السجدة / ١٢.
(١٣٠) الدخان/ ١٢.
(١٣١) الأعراف/ ٨٣.
(١٣٢) الأحزاب / ٦٨.
(١٣٣) ص / ٦١.
(١٣٤) فصلت / ٢٩.

بحثٌ في تحريف القرآن الكريم

الشيخ علي أحمد الجفيري

بسم الله المتعهّد بحفظ كتابه، وخير الصلاة على محمّدٍ محل خطابه، الّذي وعاه في قلبه ولُبابه، وعلى آله ترجمان الوحي، ومُبطل صونه وأسبابه، الأدلّاء على الله وأبوابه، وأركس الله أعداءهم في ويله وعذابه..

وبعدُ، قال عزّ من قائلٍ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(1).

تطرّقت هذه الآية المباركة إلى موضوعٍ يُعدّ من أهمّ المواضيع الحسّاسة من حيث ما يترتّب عليها من آثارٍ هامّةٍ، ممّا أدّى إلى بحثه في أكثر من علمٍ وفن.

مقدّمة: لماذا الحديث حول تحريف القرآن؟

الحديث حول هذا الموضوع لأنّ القرآن هو المرجع، والقول بالتحريف في بعض معانيه ينافي حجّيّته، قال الفيض الكاشانيّ &: "لو كان تطرّق التحريف والتغيير في ألفاظ القرآن، لم يبقَ لنا اعتمادٌ على شيء منه؛ إذ على هذا يحتمل كلّ آية منه أن تكون محرّفة، ومغيّرة، وتكون على خلاف ما أنزله الله، فلا يكون القرآن حجّة لنا، وتنتفي فائدته، وفائدة

الأمر باتّباعه، والوصية به، وعرض الأخبار المتعارضة عليه"[٢]، وفي ذلك تهديدٌ كبيرٌ للهويّة الإسلاميّة عند جميع المسلمين أمام بقيّة الأمم.

ولأنّ القول بالتحريف يستلزم إبطال دليل النبوّة، وكذا قد يلزم منه إزالة جميع -أو بعض- الآثار المترتّبة على نفس وجود القرآن المجيد.

ثمّ إنّ هناك من قال بالتحريف من بعض علماء الشيعة صراحةً، وكذلك من الصحابة، ومن العامّة التزامًا، بل صراحةً أيضًا، فكان ذلك داعيًا لرفع شبهة واقعيّة، لا مجرّد فرضيّة محضة، لا واقع لها.

ولأنّنا متّهمون بالتحريف كشيعةٍ أوّلًا، وكمسلمين ثانيًا -ممّا يستوجب تثبيت كلّ ما يترتّب على القول به علينا-، فوجب الحديث عن التحريف لردّ ذلك كلّه، وذلك في عدّة نقاط: الأولى: في تحقيق معنى التحريف. الثانية: في استعراض الأقوال في التحريف. الثالثة: حول مستندات شبهة التحريف. الرابعة: في ردّ شبهة التحريف.

النقطة الأولى: معنى التحريف:

للتحريف عدّة معانٍ متصوّرة، بل أغلبها واقع، ويغنيك عن استقرائها ما أفاده السيّد الخوئيّ + في البيان، حيث قال:

"يطلق لفظ التحريف ويراد منه عدة معان على سبيل الاشتراك، فبعض منها واقع في القرآن باتفاق من المسلمين، وبعض منها لم يقع فيه باتفاق منهم أيضا، وبعض منها وقع الخلاف بينهم. وإليك تفصيل ذلك: الأول: نقل الشيء عن موضعه، وتحويله إلى غيره، ومنه قوله تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ}[٣].

ولا خلاف بين المسلمين في وقوع مثل هذا التحريف في كتاب الله، فإنّ كل من فسّر القرآن بغير حقيقته، وحمله على غير معناه فقد حرّفه.

الثاني: النقص أو الزيادة في الحروف أو في الحركات، مع حفظ القرآن، وعدم

ضياعه، وإن لم يكن متميز في الخارج عن غيره.

والتحريف بهذا المعنى واقع في القرآن قطع ، فقد أثبتنا لك فيما تقدم عدم تواتر القراءات، ومعنى هذا أنّ القرآن المنزل إنّما هو مطابق لإحدى القراءات، وأما غيرها فهو إما زيادة في القرآن، وإما نقيصة فيه.

الثالث: النقص أو الزيادة بكلمة أو كلمتين، مع التحفظ على نفس القرآن المنزل.

والتحريف بهذا المعنى قد وقع في صدر الإسلام، وفي زمان الصحابة قطعا، ويدلنا على ذلك إجماع المسلمين على أن عثمان أحرق جملة من المصاحف وأمر ولاته بحرق كل مصحف غير ما جمعه، وهذا يدل على أنّ هذه المصاحف كانت مخالفة لما جمعه، وإلا لم يكن هناك سبب موجب لإحراقها، وقد ضبط جماعة من العلماء موارد الاختلاف بين المصاحف، منهم عبد الله ابن أبي داود السجستاني، وقد سمى كتابه هذا بكتاب المصاحف. وعلى ذلك فالتحريف واقع لا محالة إما من عثمان أو من كتاب تلك المصاحف، ولكنا سنبين بعد هذا إن شاء الله تعالى أنّ ما جمعه عثمان كان هو القرآن المعروف بين المسلمين، الذي تداولوه على النبي صلى الله عليه وآله يد بيد. فالتحريف بالزيادة والنقيصة إنّما وقع في تلك المصاحف التي انقطعت بعد عهد عثمان، وأما القرآن الموجود فليس فيه زيادة ولا نقيصة.

وجملة القول: إنّ من يقول بعدم تواتر تلك المصاحف -كما هو الصحيح- فالتحريف بهذا المعنى وإن كان قد وقع عنده في الصدر الأول إلا أنّه قد انقطع في زمان عثمان، وانحصر المصحف بما ثبت تواتره عن النبي صلى الله عليه وآله، وأما القائل بتواتر المصاحف بأجمعها، فلا بد له من الالتزام بوقوع التحريف بالمعنى المتنازع فيه في القرآن المنزل، وبضياع شيء منه. وقد مرّ عليك تصريح الطبري، وجماعة آخرين بإلغاء عثمان للحروف الستة التي نزل بها القرآن، واقتصاره على حرف واحد.

الرابع: التحريف بالزيادة والنقيصة في الآية والسورة مع التحفظ على القرآن المنزل، والتسالم على قراءة النبي صلى الله عليه وآله إياها.

والتحريف بهذا المعنى أيضاً واقع في القرآن قطعاً . فالبسملة -مثلاً- مما تسالم المسلمون على أنّ النبي صلى الله عليه وآله قرأها قبل كل سورة غير سورة التوبة، وقد وقع الخلاف في كونها من القرآن بين علماء السنة، فاختار جمع منهم أنّها ليست من القرآن، بل ذهبت المالكية إلى كراهة الإتيان بها قبل قراءة الفاتحة في الصلاة المفروضة، إلا إذا نوى به المصلي الخروج من الخلاف، وذهب جماعة أخرى إلى أن البسملة من القرآن.

وأما الشيعة فهم متسالمون على جزئية البسملة من كل سورة غير سورة التوبة، واختار هذا القول جماعة من علماء السنة أيضاً -وستعرف تفصيل ذلك عند تفسيرنا سورة الفاتحة-.

إذاً فالقرآن المنزل من السماء قد وقع فيه التحريف يقيناً ، بالزيادة أو بالنقيصة.

الخامس: التحريف بالزيادة بمعنى أنّ بعض المصحف الذي بأيدينا ليس من الكلام المنزل.

والتحريف بهذا المعنى باطل بإجماع المسلمين، بل هو مما علم بطلانه بالضرورة.

السادس: التحريف بالنقيصة، بمعنى أنّ المصحف الذي بأيدينا لا يشتمل على جميع القرآن الذي نزل من السماء، فقد ضاع بعضه على الناس.

والتحريف بهذا المعنى هو الذي وقع فيه الخلاف، فأثبته قومٌ، ونفاه آخرون"[٤].

وملخّص القول: إنّ التحريف اصطلاحاً -حسب الاستقراء- على معانٍ متعدّدة، أوّلها -حسب الترتيب المزبور- هو: تغيير المعنى المقصود، والتصرّف في بيانه خلاف مراد المتكلّم، وهو ما يُعرف بالتحريف المعنويّ.

وثانيها هو: حصول الزيادة والنقيصة في الحروف، والحركات؛ بسبب تعدّد القراءات، رغم حفظ القرآن الأصليّ المنزل قطعاً في أحدها، دون أن يتميّز من بينها في الخارج.

وثالثها هو: وقوع النقص -أو الزيادة- في الواقع إلى زمان معيّن في بعض نسخ القرآن، رغم وجود وتعيّن القرآن الأصليّ دون زيادةٍ، أو نقيصةٍ.

والرابع منها هو: وقوع الزيادة والنقيصة مع التسالم على قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله لها.

وأمّا الخامس والسادس فواضحان، وقد اتّضح أيضاً من كلامه + ما هو ممكنٌ ثبوتاً من بين هذه المعاني، وما هو غير ممكن، ثمّ ما هو واقعٌ منها إثباتاً، وما هو غير واقع.

ثمّ لإثبات المعنى الأخير، سيقت مجموعةٌ من الأدلّة لدى القائلين به، ستتّضح في النقطة الثالثة إن شاء الله تعالى، وقبل التعرّض إليها، لا بدّ من استعراض الأقوال في مسألة التحريف أوّلاً.

النقطة الثانية: الأقوال في مسألة التحريف:

لا بأس بالتعرّض إلى الأقوال في مسألة التحريف الأعمّ من معناه الخامس والسادس؛ وذلك لأنّ بعضها سينفع في الإجابة عن الشبهة كما سوف يتّضح، وهي بالإحصاء السريع كالتالي:

القول الأوّل: هو القول بالزيادة في بعض المواضع المستقرأة، والجزم بوقوعها، كما هو لازم ما اشتُهر عن ابن مسعود من نفيه لجزئيّة المعوّذتين، ونهيه عن قراءتهما على أنّهما قرآنٌ، وحكهما عن مصحفه، -وإن كانت هذه النسبة باطلة عند جملة من المحقّقين-[٥]، وكذلك هو ظاهر من يقبل ببعض الروايات الّتي تفيد في ظاهرها الزيادة، وكذلك من يلتزم بزيادة البسملة.

وهذا قولٌ شاذ، لا يضرّ بالإجماع على عدم الزيادة؛ لأنّه مردودٌ عليه بما سيأتي، ممّا يبين القطع باشتباه من قال به، حيث إنّه محجوج بالتواتر كما عن العلّامة الطباطبائي + [٦].

القول الثاني: هو القول بالنقيصة، كما هو متبنّى بعض المحدّثين، كالسيّد نعمة الله الجزائري، والشيخ يوسف البحرانيّ، والمحدّث النوريّ(رحمهم الله

جميعًا)[٧]، وكما هو لازمٌ من تصحيح الروايات الصريحة في القول بالنقصان عند الكثير من علماء الجمهور، وإن صرّحوا بخلافه قولًا في هذا العصر.

القول الثالث: من نفى التحريف مقيدًا بما يُخل بأوصاف القرآن الكريم، وبما أُنزل من أجله، مع احتمال وقوعه بنقيصةٍ في حركةٍ، أو حرفٍ، أو جملةٍ، أو حتّى آيةٍ مكرّرةٍ مثلًا، أو تغييرٍ في الترتيب، بحيث لا يؤدّي ذلك إلى تغيير معاني الآيات، ولا يؤثّر في حجّيّة القرآن، ولا أوصافه، ولا آثاره، كما هو ظاهر العلّامة الطباطبائيّ في ميزانه، حيث قال + : "فالّذي بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبي صلّى الله عليه وآله بعينه، فلو فُرض سقوط شيء منه، أو تغيّر في إعراب، أو حرف، أو ترتيب، وجب أن يكون في أمر لا يؤثّر في شيء من أوصافه، كالإعجاز، وارتفاع الاختلاف، والهداية، والنوريّة، والذكريّة، والهيمنة على سائر الكتب السماويّة، إلى غير ذلك، وذلك كآية مكرّرة ساقطة، أو اختلافٍ في نقطة، أو إعراب، ونحوها"[٨].

القول الرابع: وهو القول المشهور شهرةً عظيمةً بين علماء الإماميّة، وعليه جلّ علمائنا، وهو القول بنفي التحريف بالزيادة والنقيصة جملةً، وتفصيلا، وقد التزم به الأعمّ الأغلب من الأصوليّين والأخباريّين[٩] على حد سواء، ومن القائلين بهذا القول: رئيس المحدّثين ابن بابويه الصدوق، والسيّد المرتضى علم الهدى، وشيخ الطائفة الطوسيّ، والعلّامة الحلّيّ، والمحدّث الخبير الحرّ العامليّ، ومن المتأخّرين: العلّامة السيّد شرف الدين الموسويّ، وزعيم الحوزة العلميّة، أستاذ الفقهاء السيّد الخوئيّ، والإمام العظيم روح الله الموسويّ الخمينيّ، وغيرهم من العظماء.

النقطة الثالثة: أدلّة شبهة التحريف:

وبعد استعراض الأقوال في المسألة، واتّضاح وجود قولين بالتحريف، أحدهما بمعنى الزيادة، والآخر بمعنى النقيصة، وبعد اتّضاح شذوذ القول

بالزيادة، ومخالفته للإجماع، ينحصر الحديث في مناقشة القول بالنقيصة، والعمدة في أدلّة القائلين بوقوع التحريف -بهذا المعنى- مسائل:

الدليل الأوّل: دلالة طبيعة الأشياء، فما نُقل من طريقةٍ لجمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر بنفسه يؤدّي إلى الإذعان بحتميّة وقوع النقيصة فيما بين أيدينا من مصحف؛ حيث إنّ ما نُقل من عدم جمع القرآن في عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإرجاء جمعه في مصحف واحد إلى ما بعد رحيله صلّى الله عليه وآله باقتراحٍ من غير المعصوم -بحيث كانت العمليّة -حسب النقل- برمّتها بعيدةً عن المعصوم عليه السلام-، والاختلاف في قبول هذا الاقتراح، ثمّ كون الفيصل في الركون إليه أمرًا غيبيّا غير واضح البرهان كما ادعي في هذا النقل[10]، ثمّ طريقة الجمع الّتي ادعي أنّها كانت بتكليف زيد بن ثابت، وجمعه للقرآن من صدور الرجال، واللخاف، والعسب، والأكتاف[11]، وإثبات ما جيء به إذا شهد عليه اثنان، وإسقاط ما لم يشهد عليه إلّا واحد، -ما نُقل- يدلّ على تقريب حدوث التحريف طبعًا، وعادةً.

الدليل الثاني: الروايات الدالّة على ذلك في كتب الفريقين، وهي تنقسم إلى عدّة طوائف، منها ما دلّ على الزيادة، ومنها ما دلّ على النقيصة.

الدليل الثالث: القول بتواتر القراءات السبع، والّذي يساوق القول بالتحريف كما لا يخفى.

والردّ على هذه الأدلّة سيتّضح ممّا يلي في النقطة الرابعة.

النقطة الرابعة: الاستدلال على عدم التحريف:

وهناك أدلّةٌ كثيرةٌ تدلّ على الجزم واليقين بعدم وقوع التحريف الأعمّ من معناه الخامس والسادس، نذكر منها ما يلي:

الدليل الأول -ولعلّه عمدة الأدلّة-: القول بتواتر القرآن الكريم، إمّا تواتر

أصله فحسب، دون قراءاته مطلق ، وإمّا تواتر قراءته المشهورة فقط، أعني: رواية حفص عن عاصم، وإمّا تواتر جميع قراءاته السبع، وفي المسألة أقوال، وصلاحيّة القول بالتواتر للدلالة على نفي التحريف الأعمّ من معناه الخامس والسادس، إنّما تنسجم -تمام الانسجام- مع ثاني هذه الأقوال دون الأوّل والثالث كما يظهر، وهي لا تنسجم معهما إلّا بتكلّف، وتأوّل؛ حيث يلزم من القول الأوّل -الّذي يقول بعدم تواتر جميع القراءات- أن يبقى رسم القرآن -الّذي ينحفظ به أصل القرآن حسب المدّعى- مردّد بين كلمتين بمعنيين مختلفين، لا ندري أيّهما هو القرآن -بعد نفي تواتر كلا القراءتين-، وهذا هو عين عدم الانحفاظ! حيث كيف لي أن أكتفي بانحفاظ القرآن بتواتره في أصله الّذي يدل عليه الرسم قبل التنقيط، مع أنّ ذلك لا يوصلني إلى التنزيل، ويبقيني في حيرةٍ أمام معنيين مختلفين؟! وهل القرآن إلّا معانيه أوّلاً، وألفاظه ثانٍ ، ورسمه ثالث ؟! فإذا انحفظ الرسم دون أن يكون صالحًا للدلالة على خصوص اللفظ المنزل، فالمعنى، فأيّ انحفاظ للقرآن حينئذٍ؟! وهل سيفيدنا تواتر أصل القرآن -بهذا المعنى- في ردّ شبهة التحريف بالزيادة والنقيصة، مع أنّ لازم عدم تواتر جميع القراءات ليس سوى القول بهذا النوع من التحريف كما يظهر؟!

وأمّا القول الثالث، فلزوم التحريف منه أوضح، حيث مفاده أنّ كلّا من مثل: (ننشرها)، و(ننشزها) متواترٌ، رغم علمنا من جهة أخرى بصحّة إحداهما فقط، وهل هذا إلّا عين القول بالزيادة والنقيصة؟!

وسيأتي مزيد توضيحٍ لذلك في مناقشة الشبهة الثالثة، فانتظر.

وكيفما كان، فإنّ القول بتواتر القرآن مفيدٌ في الجملة لردّ شبهة التحريف؛ لأنّ التواتر يفيد العلم، ولذلك ركّزت عليه كلمات علمائنا، قال السيّد المرتضى: "إنّ العلم بصحّة نقل القرآن كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإنّ العناية اشتدّت، والدواعي توفّرت على نقله،

وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه في ما ذكرناه؛ لأنّ القرآن معجزة النبوّة، ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينيّة، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كلّ شيء اخُتلف فيه، من إعرابه وقراءته، وحروفه، وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّر ، أو منقوص ، مع العناية الصادقة، والضبط الشديد؟!"(١٢).

وقال العلّامة الحلّيّ: "الحقّ أنّه لا تبديل، ولا تأخير، ولا تقديم فيه، وأنّه لم يزد، ولم ينقص، ونعوذ بالله تعالى من أن يُعتقد مثل ذلك، وأمثال ذلك؛ فإنّه يوجب التطرّق إلى معجزة الرسول صلى الله عليه وآله المنقولة بالتواتر"(١٣).

وقال الحرّ العامليّ: "إنّ من تتبّع الأخبار، وتفحّص التواريخ والآثار، علم -علمًا قطعيًّا- بأنّ القرآن قد بلغ أعلى درجات التواتر، وأنّ آلاف الصحابة كانوا يحفظونه، ويتلونه، وأنّه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مجموعًا، مؤلّفًا"(١٤).

وقال السيّد شرف الدين: "فإنّ القرآن العظيم، والذكر الحكيم، متواترٌ من طرقنا بجميع آياته، وكلماته، وسائر حروفه، وحركاته، وسكناته، تواترًا قطعيّا عن أئمّة الهدى من أهل البيت ^ ، لا يرتاب في ذلك إلّا معتوهٌ، وأئمّة أهل البيت كلّهم أجمعون رفعوه إلى جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله، عن الله تعالى، وهذا أيضًا ممّا لا ريب فيه"(١٥).

وعلى أساس ثبوت التواتر، فإنّ كلّ ما دلّ ظاهرًا -ولو كان بسندٍ صحيحٍ- على تحريف القرآن -إن لم يمكن تأويله، وكذا ما دلّ عليه نصّا-، فيجب طرحه؛ لأنّ روايات الآحاد -الّتي غاية ما تورثه ظنّا- لا تصمد أمام التواتر المفيد للعلم، وبهذا يتّضح الجواب على ما سيق من روايات تدلّ على التحريف، فهي بالإضافة إلى سقم سند الكثير منها، وعدم دلالة الكثير منها على التحريف محلّ النزاع، -حيث مضمون الكثير منها ناظرٌ إلى التحريف المعنويّ-، لا يمكن أن تعارض تواتر القرآن معارضةً مستقرّةً، حتّى لو كان بعضها صحيح السند.

نعم، ادّعى بعضٌ تواتر روايات التحريف أيضًا، وقد رُدت هذه الدعوى بتفصيلٍ ذكره جملةٌ من الأعلام، حيث أنكروا صحّة هذه الروايات، فضلًا عن

تواترها، قال السيّد المرتضى: "نقلوا أخبارًا ضعيفةً ظنّوا صحّتها، لا يُرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحّته"[١٦]، والعجيب أنّ بعض مدّعي تواتر روايات التحريف، هم أنفسهم من نفى التحريفَ بعباراتٍ صريحةٍ في مواضع أخرى من كتبهم، وذلك كصاحب البحار، وصاحب الوسائل، وقد ذُكرت وجوهٌ لتأويل كلامهم، وفي الجمع بين ما تضارب منه في ذلك[١٧].

هذا، وقد عرفت أنّ دليل التواتر لا يمكن له أن يردّ شبهة التحريف إلّا بعد تحديد متعلّقه أنّه الرواية المشهورة على الخصوص، وإلّا وقعنا به فيما هربنا عنه!

الدليل الثاني: ما أسماه الشهيد السيد محمّد باقر الحكيم + بـ(دلالة طبيعة الأشياء)، وهو نفس ما استدلّ به بعضٌ على التحريف كما تقدّم، والمقصود بها: "مجموع الظروف والخصائص الموضوعيّة والذاتيّة المسلمة واليقينيّة الّتي عاشها النبيّ والمسلمون والقرآن، أو اختصّوا بها، ممّا يجعلنا نقتنع بضرورة قيام النبيّ صلى الله عليه وآله بجمع القرآن في عهده"[١٨]، وملخّص ما ذكره & أنّ هذه الظروف والخصائص هي ما يلي: (أهمّيّة القرآن الكريم/ والخطر في تعرّضه للتحريف بدون التدوين/ وإدراك النبيّ صلى الله عليه وآله لهذا الخطر/ ووجود إمكانات التدوين/ وحرص النبيّ صلى الله عليه وآله على القرآن، والإخلاص له)، وبمجموع ذلك ينبغي الالتزام بأنّ ما تقتضيه طبيعة هذه الأشياء المذكورة، هو تحقّق الجمع في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله بيد المعصوم عليه السلام، لا كما نُقل في دليل التحريف.

وكذلك قال السيّد العامليّ في مفتاح الكرامة: "والعادة تقضي بالتواتر في تفاصيل القرآن من أجزائه، وألفاظه، وحركاته، وسكناته، ووضعه في محلّه؛ لتوفّر الدواعي على نقله من: ١)المُقِرّ؛ لكونه أصلًا لجميع الأحكام. ٢) والمنكِر؛ لإبطاله؛ لكونه معجز . فلا يُعبأ بخلاف من خالف، أو شكّ في المقام"[١٩]، وتقدّم في كلام السيّد المرتضى ما يشير إلى ذلك أيضًا.

ولمّا كان الأمر كذلك، يمكن نفي نظريّة جمع القرآن بعد عهده المبارك ﷺ، -والّتي تؤدّي إلى حتميّة القول بالتحريف-؛ حيث إنّ طبع ما ذكرته روايات هذه النظريّة يحدث قوّة احتمال التحريف، إن لم يورث الاطمئنان به، وبهذا يتبيّن الجواب على الدليل الأوّل لشبهة التحريف، حيث إنّ ما ذُكر فيه ليس معقولًا أوّلًا، ومنافٍ لقدسيّة النبيّ ﷺ ثانيًا، ونقولاته مضطربةٌ ومتضاربةٌ دلالةً ثالثًا، فضلًا عن الحديث حول سندها رابعًا، حيث هي روايات عامّية كما اتّضح، لا تنسجم مع المنقول من طرق أهل البيت ^ في هذا الشأن، من أنّ الجامع هو عليّ عليه السلام، إمّا في عهد النبيّ ﷺ، وإمّا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ﷺ بتكليف منه.

ومن هنا نقول: إنّ دلالة طبع الأشياء على العكس تمامًا ممّا ذُكر في الاستدلال على التحريف، فهي تقضي بحتميّة جمع القرآن، وكتابته في عهد النبيّ ﷺ، وأنّ جمعه لم يُترك إلى استقراء -وتتبّع- ما كُتب منه هنا أو هناك، أو حُفظ منه في صدر هذا أو ذاك، وكذلك لم يُترك إلى الاجتهاد، ولا إلى إقامة البيّنة، وغير ذلك ممّا يوجب بطبعه فوات بعض آياته على الأقلّ، بل إنّه كان بيد من خوطب به ﷺ، وتحت مسؤوليّته الخاصّة، إمّا مباشرةً، وإمّا بتفويضه الأمر إلى المؤتمن المعصوم، أمير المؤمنين عليه السلام، كما دلّت عليه بعض الروايات من طرقنا، وعليه: فلا مكان لادّعاء إمكان فوات شيءٍ منه، كما لا محلّ لادّعاء ورود ما هو زيادة عليه فيه أيضًا.

الدليل الثالث: الأحاديث الصحيحة -بل المتواترة في بعضها- الّتي لازمها نفي التحريف، وإلّا لزمت لوازم فاسدة، وهي أوضح دلالةً، وأقوى سندًا من الأحاديث المستدلّ بها على التحريف، منها:

١) أخبار الثقلين، فقد تواتر عن النبيّ ﷺ حديث الثقلين، الّذي رواه جمهور علماء المسلمين بأسانيد متكثّرة، متواترة، وبألفاظ مختلفةٍ متنوّعةٍ، عن

أكثر من ثلاثين صحابي وصحابيّةٍ، وأحد ألفاظه: >إنّي تاركٌ فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض<[٢٠].

٢) وكذلك أخبار وجوب عرض الأخبار على الكتاب مطلقًا، أو عند التعارض، فعن الإمام الصادق عليه السلام، عن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله: >إنّ على كلّ حقٍّ حقيقةً، وعلى كلّ صوابٍ نورًا، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه<[٢١]، وعن الصادق عليه السلام: >إذا ورد عليكم حديثان مختلفان، فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه<[٢٢].

٣) وكذلك الأحاديث الّتي تبيّن أنّ الموجود من القرآن بين الناس، هو كتاب الله تعالى، والّذي تترتب عليه آثار قرآنيّته جميعًا، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: >كتاب ربّكم فيكم، مبيّناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه..<[٢٣]، وعن أبي جعفر عليه السلام أنّه كتب في رسالته إلى سعد الخير: >وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرّفوا حدوده، فهم يروونه، ولا يرعونه، والجهّال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية<[٢٤].

٤) الأخبار الّتي تأمر بالأخذ بهذا القرآن المنتشر بين المسلمين، وعدم اعتراض الأئمّة ^ عليه، بل احتجاجهم به.[٢٥]

٥) الأحاديث المبينة لفضل سور القرآن، وآياته، ممّا يدلّل على كونه مجموعًا في عهد النبي صلى الله عليه وآله، متلقّى منه عند كافّة المسلمين.[٢٦]

٦) الأحاديث الّتي تذكر أنّ جملةً من الصحابة قد ختموا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته عدّة مرّات، كعبد الله ابن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وغيرهما[٢٧].

ووجه الملازمة بين عدم تحريف القرآن، وبين دلالات هذه الطوائف المتعدّدة من الروايات الشريفة ظاهرٌ، وبعض هذه الطوائف إن أمكن الإيراد

على وجه الملازمة فيه، فإنّ بعضها الآخر معتصمٌ -بقوّة دلالته- عن ذلك.

الدليل الرابع: بعض الآيات الشريفة، وذلك بضميمة الإجماع على عدم الزيادة، إمّا في القرآن ككل، وإمّا في خصوص الآيات محلّ الاستدلال؛ لكي لا يلزم الدور، وكذلك بضميمة ضرورة إمضاء أهل البيت ^ للقرآن الموجود، والّذي تعدّ هذه الآيات جزءًا مشمولًا منه لهذا الإمضاء.

ومن تلك الآيات: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(٢٨)، {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}(٢٩)، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}(٣٠)، بناءً على أنّ المقصود من النور هو القرآن، كما وصفه الله تعالى بذلك في قوله: {فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}(٣١)، وقوله: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}(٣٢)، و: {وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ}(٣٣).

وبعض هذه الآيات وإن نوقش في دلالته على نفي التحريف -كما فعل صاحب الحدائق مثلًا-، إلّا أنّ بعضها الآخر ليس كذلك، ولا سيما الآية الأولى.

الدليل الخامس: منافاة القول بالتحريف مع إعجاز القرآن، وبطلان النبوة بذلك، وهذا لازم فاسد لا يمكن الالتزام به؛ لأنّه ثبت قطعًا أنّ الإسلام هو الدين الخاتم الّذي أراد الله له البقاء، فلا بدّ من بقاء معجزته للدلالة المستمرّة عليه.

الدليل السادس: نفس فصاحة -وبلاغة، وأسلوب- القرآن الكريم، الّتي هي محفوظةٌ في جميع آياته، ونفس ما نلمسه من آثاره الّتي أخبر هو بها، وذلك دال ذاتًا على عدم التحريف، واختار هذا القول العلّامة الطباطبائيّ & بما ينسجم مع قوله المتقدّم في التحريف، قال & : "والتعويل في ذلك على ما قدمناه من الحجّة في أوّل هذه الأبحاث، أنّ القرآن الّذي بأيدينا واجدٌ للصفات الكريمة الّتي وصف الله سبحانه بها القرآن الواقعيّ، الّذي أنزله على رسوله ﷺ، ككونه قولًا فصلًا، ورافعًا للاختلاف، وذكرًا، وهادًيا، ونورًا، ومبيّنًا للمعارف الحقيقيّة، والشرائع الفطريّة، وآيةً معجزةً، إلى غير ذلك من صفاته الكريمة.

ومن الحريّ أن نعوّل على هذا الوجه؛ فإنّ حجّة القرآن على كونه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وآله، هي نفسه المتّصفة بهاتيك الصفات الكريمة، من غير أن يتوقّف في ذلك على أمر آخر وراء نفسه، كائنًا ما كان؛ فحجّته معه أينما تحقّق، وبيد من كان، ومن أيّ طريقٍ وصل.

وبعبارة أخرى: لا يتوقّف القرآن النازل من عند الله إلى النبيّ صلى الله عليه وآله -في كونه متّصفًا بصفاته الكريمة- على ثبوت استناده إليه صلى الله عليه وآله بنقلٍ متواترٍ، أو متظافرٍ، وإن كان واجدًا لذلك، بل الأمر بالعكس؛ فاتّصافه بصفاته الكريمة هو الحجّة على الاستناد، فليس كالكتب، والرسائل المنسوبة إلى المصنّفين، والكتّاب، والأقاويل المأثورة عن العلماء، وأصحاب الأنظار، المتوقّفة صحّة استنادها إلى نقل قطعي، وبلوغ متواترٍ، أو مستفيضٍ مثلًا، بل نفس ذاته هي الحجّة على ثبوته"[٣٤]، وقريبٌ منه ما ذكره الشيخ زين الدين البياضيّ العامليّ، حيث قال: "ولو زيد فيه أو نُقص، لعلمه كلّ عاقلٍ، وإن لم يحفظه؛ لمخالفة فصاحته، وأسلوبه"[٣٥].

وبجميع ما تقدّم تتّضح الإجابة عن الدليلين الأوّلين من أدلّة القول بتحريف القرآن، وبقيت الإجابة فقط عمّا يتعلّق بتواتر القراءات السبع، والّذي لازمه التحريف، والجواب عن هذه الشبهة بوجوهٍ:

الأوّل: أنّ تواتر القراءات السبع بأجمعها غير ثابتٍ، بل هو معلوم البطلان، -كما أثبته السيّد الخوئي+ في كتابه البيان، وكما استدلّ عليه الشيخ جعفر السبحاني كذلك في موسوعة طبقات الفقهاء، وسيأتي نقل محلّ الشاهد منه بعد قليل-، ولا بدّ هنا من ضميمة، وهي: القول بتواتر القراءة المشهورة، فيتمّ بذلك ردّ هذه الشبهة؛ وذلك لما تقدّمت الإشارة إليه من أنّ لازم نفي تواتر جميع القراءات، والاكتفاء بتواتر أصل القرآن فقط، غير كافٍ في ردّ شبهة التحريف.

وعليه: فإنّ وجود قراءاتٍ ست غير القراءة الأصليّة، غير ضار بالقراءة

المتواترة المشهورة، وهو لا يعني تحريفًا بعد سقوطه عن الاعتبار بمعارضته للمتواتر، وحاله في ذلك هو حال محاولات التحريف الكثيرة الّتي باءت بالفشل، فإنّ عدم التحريف لا يعني عدم وقوعه مطلقًا كمحاولة ولو تكوينًا، بل يكفي في صدقه فشل أيّ محاولة فيه.

وقد يرد عليه: أنّ هذا قياسٌ مع الفارق، حيث محاولات التحريف الّتي صدرت من بعض العرب لم ترقَ إلى حد تُقرأ فيه كقرآنٍ منزلٍ، بل بانت بشريّتها من أوّل الأمر، بينما في القراءات الستّ، نحن نتحدث عن مصاحف، وقراءاتٍ متداولةٍ بين ملايين المسلمين كقرآن منزلٍ من الله سبحانه! فهي وإن لم تكن معتبرةً شرعًا -حسب هذا القول-، إلّا أنّها نجحت في منادّة القرآن الكريم في بعض المناطق الإسلاميّة لا أقلّ!

وقد لا ينفع في ردّ ذلك القول بأنّ القراءات مرجعها إلى مجرّد الاختلاف في الاجتهاد النحويّ، مع بقاء جوهر القرآن الكريم محفوظًا مصانًا عن التحريف، وهذا ما استقربه بعضهم، وقد دلّت عليه بعض الروايات، قال الشيخ السبحانيّ: "والدليل الواضح على أنّها من اختراعات القرّاء: إقامتهم الحجّة على قراءتهم، ولو كان الجميع من صميم القرآن لما احتاجوا إلى إقامة الحجّة، ويكفيهم ذكر سند القراءة إلى النبي صلّى الله عليه وآله، ومع ذلك فالقرآن مصونٌ عن هذا النوع من التحريف؛ لأنّ القراءة المتواترة هي القراءة المتداولة في كلّ عصر، أعني: قراءة عاصم برواية حفص، القراءة الموصولة إلى علي عليه السلام، وغيرها اجتهادات مبتدَعة، لم يكن منها أثرٌ في عصر النبيّ صلّى الله عليه وآله، ولذاك صارت متروكةً، لا وجود لها إلّا في بطون كتب القراءات، وأحيانًا في ألسن بعض القرّاء؛ لغاية إظهار التبحّر فيها"(٣٦).

وما ذكره عليه السلام في ردّ ما ذكرناه قبل قليل، خلاف ما يشهد به الواقع من انتشار هذه القراءات، واعتمادها في بعض المصاحف، ولو في بعض مناطق المسلمين.

وممّا يقوّي القول بوجود التلازم بين أصل وجود القراءات الستّ -فضلًا عن ممارسة قراءتها- وبين القول بنوع من أنواع التحريف، ما جاء عن عبد الأعلى قال: >قال أبو عبد الله عليه السلام: أصحاب العربيّة يحرّفون كلام الله عزّ وجلّ عن مواضعه<[٣٧]، فإنّ ظاهر هذه الرواية أنّ وجود القراءات المختلفة -الأعمّ من الستّ- يعدّ تحريفًا.

وقد عالج السيّد الخوئيّ + هذه الإشكاليّة الّتي نبّهت عليها الرواية بقوله: "إنّ الظاهر من الرواية تفسير التّحريف باختلاف القرّاء، وإعمال اجتهاداتهم في القراءات. ومرجع ذلك إلى الاختلاف في كيفية القراءة مع التحفّظ على جوهر القرآن وأصله.. فهذه الرواية لا مساس لها بمسألة التّحريف بالمعنى المتنازع فيه"[٣٨].

وظاهر هذا الكلام منه + أنّه يستظهر من هذه الرواية المعنى الثاني المتقدّم منه في معاني التحريف، وقد تقدّم عدم البأس في الالتزام بوقوعه، كما هو لازم إثبات وقوعه، وقد أبرز هنا وجه عدم البأس في ذلك بقوله: (ومرجع ذلك..).

وقد نسأل هنا: أنّه كيف يمكن حصر اختلاف القراءات فيما يرجع إلى مقولة الكيف فقط، رغم أن كثيرًا من مواضع الاختلاف في القراءات لا مفرّ من القول بأنّه راجعٌ إلى مقولة الجوهر، والمادّة؟! ألا ترى الفرق -مثلًا- بين قولك: {كَيْفَ نُنْشِزُهَا}[٣٩]، وبين قولك: {كيف ننشرها} أنّه راجعٌ إلى المادّة لا إلى مجرّد الكيف؟!

ثمّ كيف لنا أن نخرج مفاد هذه الرواية عن مسألة التحريف بمعنى النقيصة، والحال أن الاختلاف بين القراءات يؤدّي في كثير من مواضعه إلى القول بالنقيصة؟! فعلى قراءة (ننشرها) مثلًا، نقصت كلمة (ننشزها)، وزادت كلمة: (ننشرها).

أقول: هو أدرى بمراده + .

وصفوة القول: إنّه لما ثبت بطلان تواتر القراءات الستّ، فإنّه ليست

لهذه القراءات حجّيّةٌ أصلًا، فلا تصلح للمعارضة؛ إذ الظّنّيّ ليست فيه قابليّة المعارضة للقطعيّ، وإلى هنا يكون الحديث نافعًا في إثبات عدم التحريف بمعنى أن تكون هناك زيادةٌ أو نقيصةٌ حجّةٌ، أمّا هل ينفع ذلك في ردّ التحريف بمعنى أن تكون هناك كلماتٌ وحروفٌ منسوبةٌ -ولو كانت غير حجّةٍ- على نحو الزيادة إلى كتاب الله بحيث يُعمل بها كحجّة -ولو اشتباهًا-؟ أو أن تكون هناك حروفٌ وكلماتٌ سقطت من الكتاب الأصليّ كذلك؟ أقول: إنّ ما ذُكر غير كافٍ في ردّه، والله العالم.

وما يسهّل الأمر أنّ هذا المعنى من التحريف غير المردود -حسب الدعوى- لا مانع من الالتزام به، بعد افتراض أنّه لا يتحقّق به شيءٌ من المحاذير المتقدّمة اللازمة للقول بالتحريف المُشْكل، شأنه في ذلك شأن سائر معاني التحريف الأخرى، الّتي ثبت وقوعها دون أن يلزم منها محذورٌ عقلي، وذلك كما تقدّم في المعنى الأول، والثالث، والرابع، فقد ثبت وقوع هذه المعاني دون لزوم أيّ محذورٍ يلزم منه إبطال حجّيّة القرآن، أو دليل الإعجاز، وغير ذلك من المحاذير الّتي تقدّمت.

الثاني: أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وبالتالي فإنّ القراءات السبع كلّها تعدّ أفرادًا حقيقيّةً لعنوان القرآن.

وفيه: أنّ تواتر القراءات السبع كلّها مردودٌ كما تقدّم، فلا يصلح غير المتواتر للاحتجاج به، فليس من المعلوم أنّ خصوص هذه القراءات -غير القراءة الثابتة بالتواتر- هي بعينها ما نزل من القرآن على سبعة أحرف ليكون مصداقًا له، خصوصًا مع ملاحظة أنّ القراءات -في الواقع- أكثر من سبعٍ، بل من عشرٍ، وحمل هذه الروايات على خصوص المشتهر منها تحكّمٌ لا دليل عليه، بعد أن كانت هذه القراءات لاحقةً لزمان التنزيل، لا مقترنةً به.

هذا إن التزمنا بوضوح صحّة ظاهر دلالات هذه الروايات في إفادتها هذا

المعنى من النزول على سبعة أحرف، ولكنّ هذه الروايات -على فرض صحّة ذلك- مؤولةٌ بالبطون، أو بغيرها ممّا ذُكر في محلّه، وذلك وفقًا للقرائن الصارفة لها عن هذا الظاهر المدعى.

الثالث: أنّ هذا المقدار من التحريف الناشئ عن الاختلاف في القراءة لا يضرّ في صدق قضيّة: عدم وقوع التحريف؛ لأنّ المقصود من عدم وقوع التحريف هو: عدم وقوع ما يبطل الغرض من إنزال القرآن الكريم، بأن يبطل حجّيّته، أو إحدى صفاته الثابتة، أو آثاره، وبركاته، وواضحٌ أنّ تعدّد القراءات ليس له هذا المفعول، فالقرآن الّذي أراد الله تعالى بقاءه، واستمراره، وقصد حفظ حجّيّته، وصفاته، وبركاته، وسائر آثاره، باقٍ رغم تعدّد قراءاته، ولا تنافي بين الأمرين.

وهذا الجواب -كما ترى- إنّما يتلاءم مع مبنى العلّامة الطباطبائيّ في نفيه لتحريف القرآن الكريم بالمعنى الّذي تقدّم منه &.

وبهذا كلّه يتبيّن أنّ القرآن مصونٌ عن التحريف المشكل، وأنّ كلّ ما أوهم خلاف ذلك لا يُعبأ به؛ لكونه قد خالف طريقًا يقينيًّا في إثبات عدم تحريف القرآن الكريم بالمعنى الّذي تلزم منه المحاذير العقليّة، والنقليّة القطعيّة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا.

***

الهوامش

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) الوافي، الفيض الكاشاني، ج٩، ص١٧٧٨، تحقيق ضياء الدين الحسيني، ط الأولى، س ١٤٠٦ هـ.

(٣) سورة النساء: ٤٦.

(٤) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ص١٩٧-٢٠٠.

(٥) راجع: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، السيد علي الحسيني الميلاني، ص١٥٨، ط٢، س ١٤١٧ هـ، وقد قال: (فمن الزيادة في القرآن -في

السـور- مـا اشـتهر عـن عبـد الله بـن مسـعود، وأتباعـه، مـن زيـادة المعوّذتيـن، فقـد روى أحمـد -وغيـره- عـن عبـد الرحمـن بـن يزيـد: (كان عبـد الله يحـكّ المعوّذتيـن مـن مصاحفـه، ويقـول: إنّهمـا ليسـتا مـن كتـاب الله تعالـى، وفـي الإتقـان: قـال ابـن حجـر فـي شـرح البخـاري: (قـد صـحّ عـن ابـن مسـعود إنـكار ذلـك))، وكذلـك استبعده عـن ابـن مسـعود جملـة مـن المحققيـن السـنة والشـيعة، كالفخـر الـرازي، والباقلانـي، وابـن حـزم، بـل عـدّه بعضهـم نسـبة كاذبـة علـى ابـن مسـعود، وكذلـك علـى أبـيّ بـن كعـب -الّـذي نسـبت إليـه هـذه التهمـة أيضـا بنحـو مخفّـف-؛ تحقيقـا لغـرض سـلطوي يمـسّ فضيلـة للحسـنين عليهما السلام، راجـع: تدويـن القـرآن، الشـيخ علـي الكورانـي، ص١٠٢، ط الأولـى، س ١٤١٨هـ.

(٦) تفسير الميزان، العلّامة الطباطبائي، ج٢٠، ص٣٩٤، مؤسسة النشر الإسلامي.

(٧) راجـع: الـدرر النجفيـة مـن الملتقطـات اليوسـفية، الشـيخ يوسـف البحرانـي، ج٤، ص٦٦، تحقيـق شـركة دار المصطفـى صلى الله عليه وآله لإحيـاء التـراث، ط الأولـى، س ١٤٢٣هـ. وراجـع: كتـاب فصـل الخطـاب للمحـدّث النـوري.

(٨) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج١٢، ص١٠٧، مؤسسة النشر الإسلامي.

(٩) قـد يتوقّـف البعـض فـي إمـكان الالتـزام بنسـبة القـول بعـدم التحريـف إلـى بعـض المحدّثيـن، رغـم أنّهـم قـد رووا رواياتـه فـي كتبهـم! والجـواب: أنّ الروايـة أعمّ مـن الاعتقـاد.

(١٠) وأعنـي بـه مـا جـاء فـي الخبـر مـن أن إقدامهـم علـى الجمـع -رغـم اختلافهـم فيـه فـي بـادئ الأمـر- كان متّكئًـا علـى مـا ذكـروه مـن أنّ الله شـرح صدرهـم لذلـك! ففـي البخـاري: (عـن زيـد بـن ثابـت، قـال: بعـث إلـيّ أبـو بكـر لمقتـل أهـل اليمامـة، وعنـده عمـر، فقـال أبـو بكـر: إنّ عمـر أتانـي، فقـال: إنّ القتـل قـد اسـتحرّ يـوم اليمامـة بقـرّاء القـرآن، وإنّـي أخشـى أن يسـتحرّ القتـل بقـرّاء القـرآن فـي المواطـن كلّهـا، فيذهـب قـرآنٌ كثيـر، وإنّـي أرى أن تأمـر بجمـع القـرآن. قلـت: كيـف أفعـل شـيئًا لـم يفعلـه رسـول الله (صلـى الله عليـه و[آلـه و] سـلم)؟! فقـال عمـر: هـو والله خيـر. فلـم يـزل عمـر يراجعنـي فـي ذلـك، حتّـى شـرح الله صـدري للّـذي شـرح لـه صـدر عمـر، ورأيـت فـي ذلـك الّـذي رأى عمـر. قـال زيـد: قـال أبـو بكـر: وإنّـك رجـل، شـاب، عاقـلٌ، لا نتّهمـك، قـد كنـت تكتـب الوحـي لرسـول(الله صلـى الله عليـه و[آلـه و] سـلم) فتتبّـع القـرآن، فاجمعـه. قـال زيـد: فـوالله لـو كلّفنـي نقـل جبـل مـن الجبـال، مـا كان بأثقـل علـيّ ممّـا كلّفنـي مـن جمـع القـرآن. قلـت: كيـف تفعـلان شـيئًا لـم يفعلـه رسـول الله(صلـى الله عليـه و[آلـه و] سـلم)؟! قـال أبـو بكـر: هـو والله خيـر. فلـم يـزل يحـثّ مراجعتـي، حتّـى شـرح الله صـدري للّـذي شـرح الله لـه صـدر أبـي بكـر وعمـر، ورأيـت فـي ذلـك الّـذي رأيـا، فتتبّعـت القـرآن، أجمعـه مـن

العسب، والرقاق، واللخاف، وصدور الرجال، فوجدت آخر سورة التوبة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها مع خزيمة، أو أبي خزيمة، فألحقتها في سورتها). صحيح البخاري، البخاري، ج٨، كتاب الأحكام، ص ١١٨، سنة الطبع: ١٤٠١هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(١١) جاء في لسان العرب: (واللخاف: حجارة بيض عريضة رقاق، واحدتها: لَخْفة). وفيه –توضيحا لمعنى العسب-: (والعسيبُ من السعف: كُوَيْق الكَرِب، لم ينبت عليه الخوصُ؛ وما نَبت عليه الخُوصُ، فهو السعفُ. وفي الحديث: أنه خرج وفي يده عَسيبٌ؛ قال ابن الأثير: أي: جريدَةٌ من النخل، وهي السعَفة، مما لا يَنْبتُ عليه الخُوصُ.، وجمعه: عُسُبٌ). وفي معنى الأكتاف قال: (الكتف عظم عريض، يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدوابّ، كانوا يكتبون فيه؛ لقلة القراطيس عندهم).

(١٢) نقله عنه الشيخ الطبرسي في مجمعه، عن جواب المسائل الطرابلسيات، راجع: تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٤٣، ط الأولى، سنة ١٤١٥هـ.

(١٣) أجوبة المسائل المهنائية، العلامة الحلي، المسألة ١٣، ص١٢١، ط الأولى، س ١٤٠١.

(١٤) راجع: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، السيد علي الحسيني الميلاني، ص٢٤، ط٢، س ١٤١٧ هـ..

(١٥) أجوبة مسائل جار الله، السيد شرف الدين، المسألة الرابعة، ص٣٤، ط الثانية، س ١٣٧٣ ش.

(١٦) راجع: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٤٣، ط الأولى، س ١٤١٥هـ..

(١٧) راجع: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، السيد علي الحسيني الميلاني، ص٨٦، ط٢، س ١٤١٧ هـ .

(١٨) علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، ص١٠١، ط الثالثة، س ١٤١٧هـ..

(١٩) مفتاح الكرامة، السيد محمد جواد العاملي، ج٧، ص٢١٠، تحقيق الخالصي، ط الأولى، س ١٤٢١هـ.

(٢٠) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٢٧، ص٣٣، ط الثانية، س ١٤١٤هـ، وقد قال رحمه الله: (أقول: وقد تواتر بين العامة والخاصة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:.. الحديث).

(٢١) الكافي، الكليني، ج١، ص٦٩، تحقيق الغفاري، ط الخامسة، س ١٣٦٣ ش.

(٢٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٢٧، ص١١٨، ط الثانية، س ١٤١٤هـ.

(٢٣) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، شرح محمد عبده، الخطبة الأولى، ج١، ص٢٥، ط الأولى، س ١٤١٢هـ.

(٢٤) الكافي، الكليني، ج٨، ص٥٣، تحقيق الغفاري، ط الرابعة، س ١٣٦٢ ش.

(٢٥) راجع: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، السيد علي الحسيني الميلاني، ص٤٦/٤٩، ط٢، س ١٤١٧ هـ
(٢٦) راجع: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، السيد علي الحسيني الميلاني، ص٤٤، ط٢، س ١٤١٧ هـ
(٢٧) راجع: حقائق هامة حول القرآن الكريم، السيد جعفر مرتضى العاملي، ص٧٢، ط الأولى، س ١٤١٠، مؤسسة النشر الإسلامي.
(٢٨) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٢٩) سورة فصلت، الآية: ٤٢.
(٣٠) سورة الصف، الآية: ٨.
(٣١) سورة التغابن، الآية: ٨.
(٣٢) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٣٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٣٤) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج١٢، ص١٢٦، مؤسسة النشر الإسلامي.
(٣٥) الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، الشيخ زين الدين علي بن يونس البياضي العاملي، ج١، ص٤٥، تحقيق البهبودي، ط الأولى، س ١٣٨٤.
(٣٦) موسوعة طبقات الفقهاء (المقدمة)، السبحاني، ج١، ص٣٧، ط الأولى، س ١٤١٨هـ.
(٣٧) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٤، ب٢٤، ح٨، ص٢٨٠، تحقيق مؤسسة آل البيت ^ لإحياء التراث.
(٣٨) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ص٢٢٨، ط الرابعة، س ١٩٧٥م.
(٣٩) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

التفسير عند السيد الخوئي

السيد ياسين السيد قاسم الموسوي

* مقدمة:

لا تنتهي المخاضات العلمية ورؤى التجديد في الحوزات العلمية المباركة، وإنّ مفردة إشكالية ثنائي العمل بـ>القرآن والسنة< من الجدليات المطروحة اليوم بنحو وآخر، فالدراسات الفقهية لا تنفك عن علومٍ آليةٍ مقدميةٍ لها، أهمها علما: أصول الفقه، والتفسير، إلا أنّ الباحث يجد السّعة الكمية والكيفية في الدورات والموسوعات الفقهية الأصولية في المكتبة الإسلامية، إلا أنّه قد لا يجد مثلها في الموسوعات الفقهية التفسيرية؛ فيلاحظ التنامي الواسع للدراسات المعنيّة بالفقه وأصوله، وذلك لطبيعة الارتباط الوثيق بينهما؛ حتى صارا مدار للمنافسات العلميّة في الأوساط العلمية في الحوزات، وهو أمر طبيعي حين تكون عملية الاستنباط تعتمد بشكل أساسي على دوائر معينة وهي العمل على المقدمات الفقهية المباشرة والقريبة الموصلة لما تفرغ معه ذمة المكلّف تجاه تكاليفه الشرعية، وهو ما يمثّله علم الأصول بدرجة كبيرة وهو الأداة المهمة لفهم النصوص الشريفة والتي من أبرزها آيات الأحكام أو ما يعبّر عنه

بـ>التفسير الفقهي<؛ إلا أنّ هذا لا يعني أبد ما يقال من إقصاء القرآن وتفسيره من الوسط الحوزوي؛ فإنّه هو المصدر الأول للتشريع وأخذ الأحكام الشرعية، وبالتالي هو محور البحوث والدراسات عند الفقهاء، وما السنة الشريفة إلا شارحة ومبينة له ومفصلة لأصوله وكلياته، فكل ما يدرس من علوم مختلفة في الحوزة العلمية كـ(علوم اللغة والمنطق والأصول والفلسفة) إلا مقدمات لفهم كتاب الله وتفسيره وتبيين مراداته، وهكذا فإنّ الغاية الأساسية من دروس التفسير هي وضع الأدوات التي يمكن للطالب أن يطبّقها في مقام التعامل مع الآيات الشريفة وشرحها وبيانها وهي غاية متحققة جزم في الدروس اليومية الحوزوية خصوص منها الدروس الفقهية الاستنباطية؛ لأنّ محور التحقيق فيها هو الآيات الكريمة والروايات الشريفة.

السيد الخوئي فقيه ومفسر

مكانة السيد الخوئي + العلمية والتحقيقية الفقهية والأصولية والتفسيرية مما لا يخفى على مطّلع على تاريخ الحوزات العلمية المعاصر، وقد أُطنب الكلام في بيان منزلته العلمية في بُعديها الأوّلين دون الثالث -أعني البعد التفسيري-، لذا سأسعى هنا للتركيز عليه فأقول:

يتميّز الفقيه بفهمه الواعي الأقرب للمراد الواقعي لله تعالى؛ لأنه يعتمد في فهمه واستنباطه على الجمع بين الآيات والاهتداء بالسنة المطهرة الصحيحة الثابتة، ولذا يكون قريب الأفق من المعاني الحقيقية للآيات القرآنية.

فكيف بمن سبر أغوار الكتاب والسنة ونقّح مقدمات فهمها، وأصّل لها أسس متينة وقواعد علمية دقيقة؛ وهو الإمام المحقق الخوئي & .

* تاريخ علاقة السيد الخوئي بالقرآن وتفسيره

لقد تنبّه & مبكّر [1] على أهمية الدراسات القرآنية والتفسير وهو ما يعود

إلى أربعينيات القرن الماضي؛ حيث يقول في رسالة كتبها لأحد تلامذته: "بدأتُ منذ الشهر الماضي -وبما أن الأيام أيام عطلة- بإلقاء البحوث التفسيرية وكتابتها، وأعتقد أن آثارها ستكون أكثر من غيرها بالنسبة للدين بشكل عام وللعالم الشيعي بشكل خاص، أسألك دعاء خاصّ أن أوفّق لإنهائها، وبفضل الله ستكون دائرة معارف للعلوم الإسلامية"[٢].

ورغم كثرة انشغالاته في تدريس العلوم المختلفة وتربية مئات العلماء والفقهاء ورعايتهم ومن ثم التصدي لشؤون المرجعية إلا أنه آثر العمل على دراسات وتحقيقات تفسيرية وكتابتها بنفسه؛ وقد ذكر ذلك في رسالة أخرى يقول فيها: "بالنسبة لنسخ أجزاء التفسير، فإنّ جناب الشيخ سلمان[٣] أبدى استعداده لنسخها إمّا بنفسه أو بتكليف أحدٍ آخر، ولكن كتاباتي في التفسير غير قابلة لنسخ بواسطة أحد آخر غيري لوجود الكثير من التعديلات والحواشي عليها"[٤].

ولقد كانت أمنيته إتمام مشاريعه القرآنية والتفسيرية على وجه الخصوص؛ لما كان يراه من نفعها الكبير وأثرها البالغ للدين والأمّة أكثر من سائر مؤلفاته، وهو ما سأل الباري سبحانه التوفيق له، وقد صرّح بهذا بقوله: "منذ عدّة سنوات وفي حرم الكاظميين المطهر طلبت من حضرة الحق جل وعلا أن لا يجعل من نصيبي المرجعية بالدرجة التي لا أقدر على القيام بأعبائها، والتي تسبّب لي الأذية من الجهات الشرعية -وفي حال كانت حياتي ملازمة لهذا الأمر، أن يجعل الله نصيبي عالم الموت- وأن أترك بعد مماتي آثار مكتوبة وأشخاص أكون قد ربيتهم؛ حتى يكونوا من أسباب الرحمة عليّ.

أستجيب الجزء الثاني من دعائي وبحمد الله أنا مسرور للآثار المكتوبة التي من جملتها >البيان< ... كنت أرغب كثير بإنهاء التفسير، لكنّ ضعف المزاج وكثرة المشاغل لا تسمح لي بذلك، وقد لاحظت أنّ إتمام هذا التفسير بهذه الكيفية يحتاج إلى عشرين سنة من النشاط والفراغ، وهذا الأمر بدون شك لن يتهيّأ لي؛ لذلك قررت

بالتوفيق الإلهي كتابة آيات الأحكام تحت عنوان >فقه القرآن على المذاهب الخمسة<[٥] ربما كان هذا الأثر أهم من باقي الآثار التي كتبتها"[٦]، وهذا ما يكشف عن دوره الشخصي المميّز والفريد من نوعه علمي في الحوزات العلمية والأبحاث الفقهية والتفسيرية، وقد ذكر بعض تلامذته أنه كتب بالفعل تفسير لبقية السور غير الفاتحة والإخلاص في >البيان< ولكنها لم تطبع[٧]، وأما ما ذكره صاحب كتاب الروح المجرد في ضمن قصة حيث قال: "نقل المرحوم آية الله الشيخ مرتضي المطهريّ للحقير عن سماحة آية الله الحاجّ السيّد رضي الشيرازيّ دامت بركاته أنّه قال: قلتُ لأحد المراجع العظام المشهورين والمعروفين في إحدى سفراتي الأخيرة إلى العتبات المقدّسة: لماذا لا تشرعون بدرس التفسير في الحوزة؟ قال: ليس ذلك ممكن مع وضعنا وموقعنا الحاليّ! قلتُ: لماذا كان ذلك ممكنا للعلاّمة الطباطبائيّ حين جعله درس رسميّ في حوزة قم العلميّة؟! قال: لقد قام بتضحية حين فعل ذلك"[٨] وقيل أن المسؤول هو السيد الخوئي + ، فيحتمل في قوله: قام بالتضحية وجوه عدة: منها أن درس التفسير يحتاج إلى تفرّغ وهذا لا يكون إلا بالتضحية له على حساب أشياء أخرى للتصدي للمرجعية.

ومع ذلك فإنّ الحوزات العلمية بعلومها وأدواتها العلمية هي التي أهّلت وخرّجت كبار المفسرين والمبدعين في الدراسات والبحوث القرآنية، وفي ذلك بُعد مهم في الحوزات العلمية وهو وجود التخصصات واحترامها وذلك لضرورة التنوّع في الأدوار وهو ما يقتضيه اختلاف الميول والرغبات الذي يصب في سد مختلف الحاجات وإثراء المكتبات الإسلامية.

وهكذا فقد ذكر بعض من عاصر السيد الخوئي أنّه كان يحثّ تلامذته على البحوث القرآنية بقوله: "لقد حثّ الخوئي تلاميذه على الانتباه مليّ للقرآن، تاريخه ومناحيه السياقيّة. وما يؤكد هذا الأمر أنّ اهتمامه بالقرآن تأسس على سعيه لإيجاد منهجيّةٍ موسّعةٍ في ممارسة الفقه. مضاف إلى ذلك أراد الخوئي أن يقدم مقدّمةً

تعريفيّةً لتفسير القرآن من وجهة النظر الشيعيّة، ولا سيّما أنّ المادّة المتوفرة حول الموضوع كانت أساس من وجهة النظر السنّيّة"[٩].

ما هي شروط المفسّر عند السيد الخوئي؟

ذكر العلماء شروط كثيرة للمفسر عند الخاصة والعامة يكمّل بعضها بعض ، إلا أنّ ما ذكره الإمام الخوئي & في ذلك فريد ومتميّز، ومما ذكره:

الموضوعية: في مقابل الذاتية، ونعني بها التجرّد من الفكر القبلي، وعدم لي عنق الآية وفق لما يتبناه من رأي وفكر فـ"على المفسر: أن يجري مع الآية حيث تجري، ويكشف معناها حيث تشير، ويوضح دلالتها حيث تدل".

الشمولية: في مقابل النظرة الجزئية والفهم المبتور، فحيث إنّ القرآن يمثل دائرة معارف في حقول علمية مختلفة فلا بد من أن يكون المفسّر له شمولية في معرفة العلوم وصاحب نظر فيها وله رؤيته الواسعة في ذلك فـ"عليه أن يكون حكيم حين تشتمل الآية على الحكمة، وخلقي حين ترشد الآية إلى الأخلاق، وفقيه حين تتعرض للفقه، واجتماعي حين تبحث فى الاجتماع، وشيئاً آخر حين تنظر فى أشياء أخر".

العمق: فكما يجب أن يكون واسع أفقي في العلوم المختلفة كذلك لا بد من أن يكون واسع عمودي يتعمّق في فهم الآيات من مختلف زواياها بتأمّل ونظر "وعلى المفسر: أن يوضح الفن الذي يظهر في الآية، والأدب الذي يتجلى بلفظها، عليه أن يحرر دائرة لمعارف القرآن إذا أراد أن يكون مفسر ، والحق أنّي لم أجد من تكفّل بجميع ذلك من المفسرين"[١٠] وهو حين يتصدّى لذلك يرى أنّ الله قد وهبه قدرة لتحرير دائرة معارف من خلال تفعيله لعلمه وتوظيفه لقدراته وقدرته في التفسير.

عدم اتباع ما لا حجية له: فلا ينبغي للمفسّر حين يسعى لفهم كتاب الله

العزيز المليء بالعلم القطعي أن يتوسل بأدوات ظنية بحتة فـ>لا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت أنه حجة من طريق العقل، أو من طريق الشرع، للنهي عن اتباع الظن، وحرمة إسناد شيء إلى الله بغير إذنه قال الله تعالى: {قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[11]، وقال الله تعالى: {وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}[12].

ضرورة الاجتهاد والاستقلال في فهم النصوص: الاجتهاد الفقهي يعني الاجتهاد والاستقلال في آيات الله وعدم التقليد فيها للآخرين فالحجة في حق المجتهد بينه وبين الله هو اجتهاده لا اجتهاد غيره؛ لأنّ >الآيات والروايات الناهية عن العمل بغير العلم، والروايات الناهية عن التفسير بالرأي مستفيضة من الطريقين؛ ومن هذا يتضح أنه لا يجوز اتباع أحد المفسرين في تفسيره، سواء أكان ممن حسن مذهبه أم لم يكن، لأنه من إتباع الظن، وهو لا يغني من الحق شيئا<.

اتباع ظواهر القرآن الكريم: وهو بحث مهم بحثه السيد الخوئي مفصلاً في علم الأصول وذكر الأدلة الساطعة على حجية ظواهر الكتاب العزيز و>لا بد للمفسر من أن يتبع الظواهر التي يفهمها العربي الصحيح<.

اتباع العقل الفطري: فالعقل حجة في فهم الكتاب والتمسك بأوامره والانتهاء عن نواهيه فلا يمكن للمفسر أن يبلغ مرام الباري سبحانه إلا بضم النقل إلى العقل فهما الحجتان من الله تعالى فلاّبد له أن >يتبع ما حكم به العقل الفطري الصحيح فإنّه حجة من الداخل كما أن النبي ' حجة من الخارج<[13].

اتباع ما ورد عن أهل البيت ^ : فهم القرآن الناطق وهم عدل الكتاب وترجمانه كما جاءت بذلك الروايات المتواترة فلا بد للمفسر أن >يتبع ما ثبت عن المعصومين ^ فإنّهم المراجع في الدين، والذين أوصى النبي صلى الله عليه وآله بوجوب التمسك بهم فقال: >إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي،

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا<[١٤].

هل يجب أن يكون الفقيه مفسر والعكس؟

من خلال ما اشترطه الإمام الخوئي من شروط ينبغي توافرها في المفسّر فإنّه يرى بوضوح ضرورة كون المفسّر فقيه وأنّه لا يمكن أن يكون المتصدي لتفسير القرآن بمستوى دون الفقاهة والاجتهاد، خصوص من خلال الشرط الخامس بل وسائر الشروط، وقد ذكر بعض الأعلام أنّه: "لا بد للفقيه من معرفة تفسير القرآن، وخصوص آيات الأحكام منه، وقد قالوا: إنّها نحو من خمسمائة آية، ولكننا نرى أنّها تزيد على ذلك كثير ، ولبيان وجه هذا الرأي والآيات الزائدة على العدد المذكور مكان آخر"[١٥]. وعبارته صريحة في حاجة المجتهد إلى علم التفسير، وهذا يكشف عن مرجعية مطلقة للقرآن الكريم، وأساسية، وعدم حصر دوره في خصوص آيات الأحكام.

وهكذا فقد ذكر صاحب الكفاية في بحث الاجتهاد والتقليد ما يحتاجه المجتهد من علوم وقال: "ومعرفة علم التفسير كذلك"[١٦] أي: أن لا يكتفي المجتهد بالتعرف على آيات الأحكام فحسب بل معرفة علم التفسير بقواعده وأدواته وإن كان لا يجب عليه معرفته تفصيلاً وإنّما في الجملة وفي ما يبتني عليه الاجتهاد وذلك بقوله >كذلك<.

وقد بسط هذا الأمر وأوضحه مفصّلاً بعض العلماء المعاصرين حيث يقول: "التفسير للقرآن الكريم وكذلك الاجتهاد في الشريعة الإسلامية واحد من التخصصات التي يتوقف التوفر عليها على دراسة مستفيضة للعلوم المرتبطة بهذا التخصص كعلوم العربية والنحو والصرف وعلم المعاني والبيان والبديع وعلم المنطق وعلم الرجال والدراية والطبقات وعلم الأصول وعلم الفقه بتمام تشعباته والتأريخ الإسلامي وغيرها من العلوم.

فإذا استوعب الإنسان كل هذه العلوم وبلغ فيها مستوى الملكة الراسخة كان قادر على التفسير والاجتهاد وإلا كان متطفلًا ومتقمص لمقام على غير أهليّة، فهو كمن مارس الطبابة لمجرد معرفته بعض قواعدها العامة، فأخذ يدّعي تشخيص الأمراض ووصف الأدوية ومباشرة العمليات الجراحية.

أيكون ذلك مقبولًا منه بنظر العقلاء؟! وهل يُعذر مَن يقبل بتشخيصه ووصفه للدواء ويسلم نفسه إليه ليعالجه بجراحة قد لا تكون مضاعفاتها متداركة، ألا يرى العقلاء أن في ذلك سفاهة من المريض وتجنياً من المدعي؟

وهذا المتقمص لمهنة الطبابة على غير أهلية لو كان فيلسوف أو مهندس فهل يخوله ذلك بنظر العقلاء مزاولة مهنة الطبابة والحال إنّها تخصص آخر غير الفلسفة والهندسة"[١٧].

مكانة القرآن في البحوث الفقهية:

اتفقت أغلب كلمات علماء المسلمين على أنّ أوّل مدرك من المدارك المقررة ومصدر للأحكام الشرعية وعملية الاستنباط وهو القرآن الكريم، وصرحوا بأنّها أربعة أركان أصلية >الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل< وهي التي تسمّى بـ>الأدلة الأربعة<، فالقرآن الكريم هو المصدر الأوّل الذي يستمد منه المسلمون تعاليمهم الشرعية، وقوانينهم العامة في كافة مجالات حياتهم، وأمور معاشهم، ويكتسب القرآن الكريم مكانته من خلال كونه كلام الله سبحانه، وأنّه أهمّ وأوّل المصادر التي يعتمد عليها في استنباط الأحكام الشرعية لفراغ ذمّة المكلف مما اشتغلت به من تكاليف، وهو مقدم على السنة الشريفة، بل إنّ السنة المباركة تكتسب حجيتها من خلاله، كما سوف نبحثه لاحق إن شاء الله.

وقد تناول القرآن الكريم في آياته الحياة الإنسانية من جوانب مختلفة، بحيث يمكن تصنيف الآيات الشريفة من خلال ذلك إلى أصناف كثيرة:

العقائدية، الأخلاقية، القانونية، آيات الأحكام الفقهية وهي الآيات التي تضمنت الحديث عن الأحكام الموجهة للمكلف سواء في مجال العبادات، أم في مجال المعاملات.

ومنه يتضح أنّ دور الفقيه في التعامل مع القرآن الكريم لن يكون منحصر في استنباطه للأحكام الفرعية من آياته، بل إنّ تعاطيه معه يشمل نظره في الآيات العقدية، وبالتالي استخراج أحكام عقدية منها، وكذا استخراج أحكام أخلاقية من الآيات الأخلاقية، وأحكام اقتصادية من الآيات الاقتصادية، وحتى القوانين والآداب الاجتماعية، وهكذا.

دور علم أصول الفقه في فهم وتفسير القرآن:

علم أصول الفقه هو ما يمكن التعبير عنه بـ>منطق الفقه<[١٨] فهو المعيار والمنهج الذي تعصم مراعاته عملية الاستنباط من الخلل والزلل.

وقد جاء هذا العلم مبثوثاً في الشريعة الإسلامية قولاً وعملاً في الكتاب والسنة المطهرة للنبي صلى الله عليه وآله ^ وأخذه الصحابة من الرسول وأهل بيته ^ ، إلى أن صار علم مستقلاً تم تدوينه بين دفتين.

ولا يخفى ما وصل إليه من تطور هائل على يد كبار العلماء والعباقرة، وصار مدار لعملية الاجتهاد وأساس لعملية الاستنباط لا يمكن الاستغناء عنه، فصار محور في منظومة الدراسة العلمية الحوزوية؛ كل ذلك لأنّه أداة فهم النصوص المقدسة وتحديد الوظيفة العملية للمكلف، فهو: "العلم بالقواعد التي تقع بنفسها في طريق استنباط الأحكام الشرعية الكلية الإلهية من دون حاجة إلى ضميمة كبرى أو صغرى أصولية أخرى"[١٩]، وبعبارة أخرى هو العلم بقواعد ومبادئ تصديقية لعلم الفقه تكون نتيجتها معرفة الوظيفة الفعلية وتشخيصها في كل مورد، فهو يتكفّل بالتمهيد والتأسيس والتنقيح لقواعد عملية الاستنباط الفقهي.

وهذه القواعد والمبادئ على أقسام كما ذكر السيد الخوئي + [٢٠] منها: ما يوصل إلى الحكم الشرعي بعلم وجداني، وما يوصل إليه بعلم تعبدي، وهذا القسم الثاني على ضربين: مباحث الألفاظ، ومباحث الحجج.

والضرب الأول وهي مباحث الألفاظ من أهم مباحث علم الأصول وهي مبتنية على كبرى مسلّمة لم يختلف فيها أحد وهي كبرى >حجية الظهور<، وهذه هي عصب عملية فهم النصوص المباركة وتفسيرها واستنباط الحكم الشرعي منها، فعلم أصول الفقه أداة مهمة للفهم الصحيح والتفسير الأقرب للواقع لكلام الله سبحانه؛ لأنّ ما يحكم فهم الكتاب العزيز ليس علم واحد فحسب كعلم اللغة أو النحو أو الصرف، وإنّما كل هذه لا تكون لها قيمة ودور إلا بضميمة كبريات علم الأصول وتطبيق قواعده في الفهم والاستنباط.

ومن أمثلة البحوث الأصولية المهمة في التفسير هي عدة بحوث منها:

حجية الظهور.

مباحث الدلالة والوضع.

مباحث المفاهيم.

بحث السياق وأثره في دلالات الألفاظ، فدور السياق في فهم النصوص وضبط معانيها مهم جد .

ملامح المنهج التفسيري عند السيد الخوئي &

كان للإمام الخوئي & منهج علمي رصين في التعامل مع الآيات القرآنية، وكما يمكن استفادة هذا المنهج من استقراء تفسيره للآيات واقتناصه منها فقد أوضحه السيد & نفسه في طيات بحوثه خصوص في تفسيره >البيان< وسنعرض هذا المنهج مستفيدين من مختلف كلماته وبحوثه:

أولاً: دور العقل في التفسير عند السيد الخوئي &

دعا القرآن الكريم نفسه في آيات كثيرة لإمعان النظر في آياته، والتدبر فيها، والتعقل في أعماقها؛ بل جعله أفضل سبيل للتأكد من صحة المفاهيم القرآنية، وصدورها عن الله تبارك وتعالى، ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}[٢١]. ثم شدد النكير على أولئك القوم الذين لا يعون حقائق القرآن، ولا يستمعون لنداءاته، فقال سبحانه: {فَمَالِ هَـؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}[٢٢]. ثم أثنى على أولئك القوم الذين يتفاعلون مع الآيات القرآنية، ويتحركون في ضوء دلالاتها وتوجيهاتها ومعانيها، فقال عزّ من قائل: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً}[٢٣].

فنرى أنّ كل هذه الآيات تؤكد أنّ القرآن الكريم أراد منّا التعامل معه على أساس وحي العقل وتأملاته واستنـتاجاته المنطقية؛ ذلك لأنّ آياته تنسجم مع المسلّمات العقلية تمام الانسجام، وقد صرّح الخوئي بهذه الحقيقة عندما كان يقارن بين الجاهلية ونظام الإسلام التشريعي فيقول: "فإنّ للقرآن في أنظمته وتعاليمه مسلكاً يتمشى مع البراهين الواضحة، وحكم العقل السليم، فقد سلك سبيل العدل، وتجنّب عن طرفي الإفراط والتفريط"[٢٤].

إذ لا يمكن للمفسّر أن يستغني عن العقل في الوصول إلى مرادات الشارع:

إما بأن يوصله بفطنته وذكائه وحدسه إلى معنى الآيات الشريفة من خلال الجمع بين الآيات والروايات والقرائن المختلفة المحتفة بها، وقد سمي العقل هنا بـ>المصباح<.

وإما باستنباط معانيها من المبادئ التصورية والتصديقية النابعة من المصدر الذاتي للعقل البرهاني والعلوم المتعارفة، وقد سمّي هنا بـ>المصدر<[٢٥].

فلا بد للمفسر -كما يصرّح الخوئي & - من أن "يتبع [في التفسير] ما حكم به العقل الفطري الصحيح فإنّه حجة من الداخل كما أنّ النبي ﷺ وحجة

من الخارج"[٢٦]، بل إنّ الحجة الظاهرة وهو المعصوم × حجيته ترجع إلى العقل، فحجية العقل هي أساس الحجج الأخرى -وهو مذهب العدلية القائلين بالحسن والقبح العقليين-؛ ولذا يرى الخوئي & ضرورة التزام ما ثبتت حجيته بالعقل في التفسير، وعدم جواز الحياد عنه، حيث قال: "التفسير هو إيضاح مراد الله تعالى وكتابه العزيز فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان ولا على شيء لم يثبت أنّه حجة من طريق العقل أو من طريق الشرع للنهي عن إتباع الظن وحرمة إسناد شيء إلى الله بغير أدلة..."[٢٧]، وقد التزم الإمام الخوئي نفسه بهذا المنهج في تفسيره وقد صرح بذلك بقوله: "وسيجد القارئ أنّي لا أحيد فى تفسيري هذا عن ظواهر الكتاب ومحكماته وما ثبت بالتواتر أو بالطرق الصحيحة من الآثار الواردة عن أهل بيت العصمة، من ذرية الرسول ﷺ وما استقل به العقل الفطري الصحيح الذي جعله الله حجة باطنة كما جعل نبيه ﷺ وأهل بيته المعصومين ^ حجة ظاهرة"[٢٨].

ثانيا : نظرية تفسير القرآن بالقرآن

هي طريقة أئمة أهل البيت ^ فإنّ المتابع لرواياتهم يلاحظ أنّهم كثير ما يفسرون آية بذكر آية أخرى توضح المراد منها، وهم بهذا يرشدون أتباعهم إلى كيفية تفسير القرآن والتدبر في آياته بالاستفادة من الآيات الأخرى في تفسير ما أُبهم من معانيها، يقول العلامة الطباطبائي: "وقد كانت طريقتهم ^ في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها على ما وصل إلينا من أخبارهم في التفسير، هذا هو الطريق المستقيم والصراط السويّ الذي سلكه معلّمو القرآن وهداته صلوات الله عليهم"[٢٩].

بل صرّحوا ^ بهذه الحقيقة في عدد من الروايات: ‹وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، ولكن نزل يصدّق بعضه بعضاً›[٣٠] وفي النهج الشريف عن الأمير × : ‹ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض›[٣١].

بل وتعتمد هذه النظرية على أساس أنّ القرآن الكريم يمثل بمجموعه كتاباً واحد من مصدر واحد، وبالتالي فهو يمثل رؤية واحدة للقضايا لا اختلاف فيها، كما قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً}[٣٢].

ويمكن أن يقال بأن القرآن الكريم يدعو إلى هذا المنهج، فلاحظ قوله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ}[٣٣]، حيث إنّ هذه الآية واضحة في عدم السماح بتبعيض القرآن الكريم وفهم معانيه على أساس النظرة التجزيئية لآياته وسوره.

ويجدر بنا الوقوف هنا مع ما يتبناه الإمام الخوئي & من مباني لهذه النظرية، بعد تسليم قبوله لها، بل واطرائه لها فقد سُئل & عنها، فأفتى: "أحسن التفسير تفسير القرآن بالقرآن، حيث فهم الآية من خلال آيات أخرى"[٣٤].

فما هي حقيقة هذه النظرية عند الخوئي والذي قد يختلف رأيه في مبانيها عن رأي زميله[٣٥] العلامة الطباطبائي رائد هذه النظرية في العصور المتأخرة؟ وحيث إنّها نظرية لها أبعاد وقواعد تفسيرية وقواعد على صعيد أصول الفقه وقواعد على صعيد نفس الفقه ولها مناشئ كلامية أو معرفية لذا لا بد من تتبع كلمات الإمام الخوئي & في هذه الأبحاث وجمعها. وحتى تتضح هذه الفروق بين النظريتين أكثر نقف أولاً مع رؤية ومباني النظرية عند العلامة الطباطبائي؛ ثم آراء ومباني الإمام الخوئي المباينة والمختلفة معه ثانيا ، ثم ملاحظات الفروق الأساسية بين النظرية عند العَلَمين، فالبحث في جهات ثلاث:

الجهة الأولى: مباني نظرية تفسير القرآن بالقرآن عند العلامة الطباطبائي

أوضح العلامة + نظريته في مواضع متعددة في تفسيره >الميزان< والتي تبتني على كبرى >هيمنة القرآن< وأعظمية حجية القرآن على السنة وأن حجية النبي صلى الله عليه وآله منبثقة من حجية القرآن، وقد استدل لها بثلاثة أدلة على الأقل منها:

الدليل الأول: إنّ القرآن نورٌ كما عرّف نفسه في آيات عديدة[٣٦]، والنور

لا يحتاج إلى غيره ليستنير به، فيقول & : "وجعله هدى ونور وتبيانا لكل شيء، فما بال النور يستنير بنور غيره؟ وما شأن الهدى يهتدي بهداية سواه؟ وكيف يتبين ما هو تبيان كل شيء بشيء دون نفسه"[٣٧]، وقد قال سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}[٣٨].

الدليل الثاني: إنّ تحدّي القرآن لجميع الخلق حتى الكفار في الوصول إلى معارفه ومكنوناته يعني أن فهمه ميسّر لهم جميع بمقتضى معجزيته، ولا يحتاج إلى بيان غيره حتى النبي صلى الله عليه وآله، يقول & : "فإن قلت: لا ريب أنّ القرآن إنّما نزل ليعقله الناس... قلت: قد مرّ فيما تقدم أنّ الآيات التي تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقّل القرآن وتأمّله والتدبر فيه، وخاصة قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً}[٣٩]؛ تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر والبحث، ويرتفع به ما يتراءى من الاختلاف بين الآيات، والآية في مقام التحدي"[٤٠].

الدليل الثالث: في روايات كثيرة جاء الأمر بالتمسك بالقرآن وعرض الروايات عليه، وهذا يعني أنّ كل ما في الروايات يمكن استفادته من القرآن الكريم، وعليه: لو توقف فهم القرآن على الروايات للزم من ذلك الدور، يقول & : "على أنّ الأخبار المتواترة عنه صلى الله عليه وآله المتضمنة لوصيته بالتمسك بالقرآن، والأخذ به، وعرض الروايات المنقولة عنه صلى الله عليه وآله على كتاب الله لا يستقيم معناها إلا مع كون جميع ما نقل عن النب صلى الله عليه وآله مما يمكن استفادته من الكتاب، ولو توقّف ذلك على بيان النبي صلى الله عليه وآله كان من الدور الباطل، وهو ظاهر"[٤١]، ويقول في موضع آخر: "والمحصل أنّ النهي عنه إنّما هو الاستقلال في تفسير القرآن واعتماد المفسر على نفسه، من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، وهذا الغير لا محالة: إما هو الكتاب والسنة، وكونه هي السنة ينافي القرآن ونفس السنة -الآمرة بالرجوع إليه وعرض الأخبار عليه-؛ فلا يبقى للرجوع إليه والاستمداد منه في

تفسير القرآن، إلا نفس القرآن"[٤٢].

ومن خلال كلمات العلامة هذه وغيرها نستنتج أبعاد هذه النظرية عنده، وما وصل إليه من نتائج، والتي منها:

أولاً: أنّ السنة لا تنسخ القران الكريم فالكتاب لا ينسخ إلا بالكتاب.

ثاني : أنّ عموم الكتاب لا يخصص بالسنة[٤٣].

ثالث : أنّ دور السنة ليس تبيينا لمفاد ومرادات الآيات والسور وإن كانت تبيّن ذلك إلا أنّ دورها هو أن تبيّن المنهج في نظام دلالة الآيات والسور، فالمفسر في بداية أمره يحتاج إلى الروايات كي يتدرب ويتعلم منهج التفسير وبعد ذلك يقوم هو بالتفسير فإنّ القران هو يفسر نفسه وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

الجهة الثانية: نظرية تفسير القرآن بالقرآن عند الإمام الخوئي &

لقد عرّف الخوئي + تفسير القرآن بالقرآن بقوله: "تفسير القرآن بالقرآن حيث فهم الآية من خلال آيات أخرى"[٤٤]، وهو في هذا لا يختلف عن العلامة الطباطبائي وهو ما وردت به الروايات الكثيرة، ووظّفه الخوئي نفسه في موارد كثيرة من كتابه البيان وموسوعته وقد عبّر عنه بأنّه: "أحسن التفسير تفسير القرآن بالقرآن"[٤٥]، بل وصرّح في مقدمة البيان باعتماده له كأسلوب من أساليب فهم القرآن بقوله & : "وسيجد القارئ أيضا أنّي كثير ما أستعين بالآية على فهم أختها، واسترشد القرآن إلى إدراك معاني القرآن، ثم أجعل الأثر المروي مرشد إلى هذه الاستفادة"[٤٦].

إلا أنّ مباني هذه النظرية عند الخوئي تختلف عن الطباطبائي، فإنّه لا يقبل الكبرى التي بنى عليها الطباطبائي نظريته، وهو بذلك لا يلتزم باللوازم والنتائج التي وصل إليها الطباطبائي وهو ما سنتعرّض له في العناوين لاحقة .

مباني نظرية تفسير القرآن بالقرآن عند الإمام الخوئي

تبتني هذه النظرية على أبعاد:

البعد الأولى: حقيقة العلاقة بين الآيات ببعضها:

يقول & : "وسيجد القارئ أيض أنّي كثير ما أستعين بالآية على فهم أختها، وأسترشد القرآن إلى إدراك معاني القرآن، ثم أجعل الأثر المروي مرشد الى هذه الاستفادة"(٤٧) فهو يرى أنّ العلاقة بين الآيات فيما بينها هي علاقة المصادقة والموافقة والتناغم والانسجام، فالآية طريق لفهم الآية الأخرى، وقنطرة لمعرفة مراد الباري من بقية الآيات، وقد جعل الله سبحانه في الآيات قابلية خاصة تكشف أسرار بعضها البعض، بل يرى أنّ القرآن سبب لإدراك ما يراد منه، والإدراك حالة متطورة جد للمعرفة.

كل ذلك منطلقه قاعدة مهمة أصّل لها الخوئي & في بحوثه الأصولية وهي الاتكاء على القرائن المتصلة والمنفصلة وقرينة السياق لفهم النص، وقد فرّق -في بحث حجية الظواهر- بين التفسير بالرأي المنهيّ عنه والتفسير بالظاهر، على أساس أنّ التفسير بالظاهر هو التفسير بما يفهمه العرب من اللّفظ، وهو ما تدلّ عليه القرائن المتّصلة والمنفصلة، فإنّ حمل اللّفظ على ظاهره لا يكون إلا بعد الفحص عن القرائن المتّصلة والمنفصلة من الكتاب والسّنة.

فهو يرفض التفسير بالرأي، ولكنّه يقبل التفسير بالظاهر لهذا الفرق بينهما، الذي يتلخّص في أنّ التفسير بالرأي هو العمل بالعمومات، أو المطلقات من غير فحص عن المخصّص أو المقيّد، بينما التفسير بالظاهر أخذ بظاهر اللّفظ ولكن بعد الفحص عن المخصّص أو المقيّد.

البعد الثاني: دور نصوص المعصومين ^ في فهم القرآن:

صرّح الخوئي & تحت عنوان >مدارك التفسير< في ما يعتبره مصدر لفهم القرآن الكريم وما لا يمكن للمفسّر أن يحيد عنه بقوله: >أو يتبع ما ثبت عن

المعصومين ^ فإنّهم المراجع في الدين، والّذين أوصى النبيﷺ بوجوب التمسك بهم فقال: "إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبد "[٤٨].

بل اشترط السيد الخوئي & عند بحثه لشروط المفسّر ضرورة: أن "يتّبع ما ثبت عن المعصومين ^ فإنّهم المراجع في الدين..."[٤٩] فهو يرى أنّ نصوصهم ^ مفسرة للآيات الشريفة وهو ما يختلف فيه عن الطباطبائي + الذي ذهب إلى أنّ نصوص المعصومين ^ لا تفسر القرآن بل هي معلّمة فقط. وقد عمل هو بنفسه بهذا الأمر في تفسيره لذا يقول: "وسيجد القارئ أنّي لا أحيد فى تفسيري هذا عن ... ما ثبت بالتواتر أو بالطرق الصحيحة من الآثار الواردة عن أهل بيت العصمة من ذرية الرسولﷺ ر وما استقل به العقل الفطري الصحيح الذي جعله الله حجة باطنة كما جعل نبيهﷺ وأهل بيته المعصومين ^ حجة ظاهرة<[٥٠].

بل جعل الرواية في أسلوبه في تفسيره مرشدة لفهم القرآن بالقرآن حين يقول: "وسيجد القارئ أيض أنّي كثير ما أستعين بالآية على فهم أختها، واسترشد القرآن إلى إدراك معاني القرآن، ثم أجعل الأثر المروي مرشد إلى هذه الاستفادة"[٥١]، وهو في هذا أيض يخالف الطباطبائي & .

كل ذلك يرجع إلى حقيقة مهمة في عقيدة الخوئي ألا وهي اختصاص فهم واقع القرآن عليهم يقول & : "فهُمُ المخصوصون بعلم القرآن على واقعه وحقيقته، وليس لغيرهم في ذلك نصيب"[٥٢] فكون العترة عدلاً لا ينفك عن القرآن يعني حصر فهم واقعه عليهم ^ .

وقد أوعز & ذلك إلى مقامات أهل البيت ^ مع القرآن الكريم، فذكر أنّهم ^ الشركاء والقرناء والأدلاء عليه؛ ولهذا يقول في بحث فضل القرآن: "من الخير أن يقف الإنسان دون ولوج هذا الباب، وأن يكل بيان فضل القرآن إلى نظراء القرآن، فإنّهم أعرف الناس بمنزلته، وأدلهم على سموّ قدره، وهم قرناؤه في الفضل،

وشركاؤه في الهداية، أما جدهم الأعظم فهو الصادع بالقرآن، والهادي إلى أحكامه، والناشر لتعاليمه، وقد قال صلى الله عليه وآله: ﴿**إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**﴾[٥٣]. فالعترة هم الأدلاء على القرآن، والعالمون بفضله. فمن الواجب أن نقتصر على أقوالهم، ونستضيء بإرشاداتهم"[٥٤].

ولذا يحتم اللجأ إليهم والرجوع إليهم حين يعجز الإنسان وتقصر إمكاناته عن بلوغ وإدراك مرامي الباري سبحانه في كتابه.

البعد الثالث: معنى قبول روايات التفسير وحدوده:

- إشكال ورد:

إنّ الروايات الواردة في تفسير القرآن لا حجية لها؛ لأنّ حجية خبر الواحد -كأحد الأدلة الظنية- منوطة بالجهل بالواقع وترتيب الآثار عليه، كما يحصل في موارد الجهل بالحكم الشرعي فيأتي خبر الواحد فتترتب عليه آثار ما لو قطع به، وهذا لا يتحقق في أخبار التفسير الواردة عن المعصومين ^ .

- الرد:

إنّ معنى الحجية في الأمارة الناظرة إلى الواقع هو جعلها علم تعبدي في حكم الشارع عند الخوئي & ، فيكون الطريق المعتبر فرد من أفراد العلم، ولكنّه فرد تعبدي لا وجداني فيترتب عليه كلما يترتب على القطع من الآثار، فيصح الإخبار على طبقه كما يصح أن يخبر على طبق العلم الوجداني، ولا يكون من القول بغير علم.

ويدلنا على ذلك سيرة العقلاء، فإنّهم يعاملون الطريق المعتبر معاملة العلم الوجداني من غير فرق بين الآثار، فإنّ اليد مثلاً أمارة عند العقلاء على مالكية صاحب اليد لما في يده، فهم يرتبون له آثار المالكية، وهم يخبرون عن كونه مالكا للشيء بلا نكير، ولم يثبت من الشارع ردع لهذه السيرة العقلائية

المستمرة[٥٥].

أما حدود ما يقبل من الروايات المفسرة: فقد حسم الخوئي ذلك في حدود المقطوع منها حيث يقول: "ولا شبهة في ثبوت قولهم ^ إذا دل عليه طريق قطعي لا شك فيه -إذ لا وجود للتحريف أو الكذب أو الدس فيها- كما أنه لا شبهة في عدم ثبوته إذا دل عليه خبر ضعيف غير جامع لشرائط الحجية، وهل يثبت بطريق ظني دل على اعتباره دليل قطعي؟ فيه كلام بين الأعلام"[٥٦]، فهو يرى بوضوح القبول للروايات الصحيحة المفسرة للقرآن الكريم.

البعد الرابع: هل يُخصص الكتاب بخبر الواحد؟

اتضح مما سبق العلاقة بين الكتاب الكريم والسنة المطهرة على مستوى التفسير والبيان، ولكن السؤال المطروح الآن هو: هل يمكن تخصيص عموم الآيات القرآنية بخبر الواحد من السنة الشريفة؟

يجيب الإمام الخوئي: "التحقيق هو ما ذهب إليه علماؤنا (قدّس الله أسرارهم) من جواز تخصيصه [الكتاب الكريم] بخبر الواحد مطلق "[٥٧]، وقال: "الظاهر أنّه لا خلاف بين الطائفة الإمامية في جواز تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد فيما نعلم، والمخالف في المسألة إنّما هو العامة"[٥٨].

أما ما هو الوجه في اعتبار تخصيص الكتاب بأخبار الآحاد مطلق ، فيقول الخوئي & : "والسبب في ذلك: هو أنّنا إذا أثبتنا حجية خبر الواحد شرع بدليل قطعي، فبطبيعة الحال لا يكون رفع اليد عن عموم الكتاب أو إطلاقه به إلا رفع اليد عنه بالقطع، لفرض أنّا نقطع بحجيته"[٥٩].

الجهة الثالثة: نتائج الفرق بين النظرية بين الخوئي والطباطبائي

اتضح أنّ الفرق يكمن في نظرة كل من العَلَمين إلى القرآن الكريم وعلاقة الأحاديث الشريفة به، وما هي العلاقة بينهما، خصوص في ما هو دور الحديث

في فهم القرآن عند الخوئي & ، ومن الفروق:

أولاً: إنّ الخوئي يرى تخصيص الكتاب بخبر الواحد، بخلاف الطباطبائي الذي يرى أنّ الكتاب لايُنسخ إلا بالكتاب ولا يخصص بالسّنّة.

ثاني : يعتقد الخوئي بأنّ السّنّة الصحيحة لها دور في بيان مفاد ومرادات الآيات والسور، وليس تبيينها لذلك تعليم فقط كما يذهب الطباطبائي، الذي يرى أنّ المفسر في بداية أمره يحتاج إلى الروايات كي يتدرب ويتعلم منهج التفسير وبعد ذلك يقوم هو بالتفسير فإنّ القرآن هو يفسر نفسه.

ثالث : إنّ توسيط الروايات في الاستعانة بالآية في فهم أختها عند الخوئي، أما الطباطبائي فيرى أنّ القرآن نور لا يحتاج إلى غيره.

* نماذج تطبيقية لنظرية تفسير القرآن بالقرآن عند السيد الخوئي:

النموذج الأول:

يستفيد السيد الخوئي لتحديد بعض المفاهيم التي تعد موضوعات لأحكام شرعية من خلال الاستعمالات القرآنية وذلك ليرتب عليها آثار فقهية ومنها مفهوم الزوجية حيث يقول: "الزوجية من المفاهيم المتضايفة المتشابهة الطرفين، بحيث يكون المضاف إلى كل منهما عين المضاف إلى الآخر نظير الأخوة المضافة إلى الطرفين على حد سواء، فكما أنّ هذا أخ لذاك فذاك أخ لهذا بلا اختلاف في النسبة، وليست هي كالأُبوة والبنّوة؛ ومن هنا فكما أنّ الرجل زوج للمرأة فهي زوج له، كما استعمل ذلك في جملة من الآيات الكريمة:

قال تعالى: {وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}(٦٠) وقال تعالى: {ولَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ}(٦١) وقال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلا}(٦٢)، وقال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ وبَناتِكَ ونِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}(٦٣)، وقال

تعالى: {وإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ}[٦٤]، وقال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ}[٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالزوجية مفهوم في مقابل الفردية، وهي عبارة عن انضمام أحدهما إلى الآخر مع وحدة علاقتها إليهما.

وعليه فلكل منهما إنشاؤها واعتبار الآخر زوجـ له أو لها، فإذا تحقّق ذلك من أحدهما وتحقّق القبول من الآخر صدق العقد والمعاهدة، ومن ثَم شملته أدلّة اللّزوم.

والحاصل أنّه لا موجب للقول بلزوم كون الإيجاب من الزوجة خاصة والقبول منه، فإنّه لا دليل عليه وإن كان هو الغالب خارجا<[٦٦].

- حقيقة النكاح شرع :

وهكذا نلاحظه يتتبع الآيات حين يتطرق إلى معنى النكاح الشرعي ليحدده موضوع لكثير من الأحكام والتطبيقات فيقول: "كلمة النكاح ومشتقاتها قد وردت في الكتاب العزيز فيما يزيد عن عشرين مورد ، وهي مستعملة في جميع تلك الموارد في التزويج.

كقوله تعالى {وأَنْكِحُوا الأَيامى مِنْكُمْ والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإِمائِكُمْ}[٦٧].

وقوله تعالى {فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ}[٦٨].

وقوله تعالى {ولا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ}[٦٩].

و قوله تعالى {ولا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[٧٠].

و قوله تعالى {ولا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا}[٧١] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

نعم، هي مستعملة في مورد واحد في الوطء هو قوله تعالى {الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}[٧٢] وذلك على ما اختاره في محلّه، وإلّا فقد ذهب المشهور إلى أنّها مستعملة في التزويج أيض .

ومن هنا فحمل النكاح في المقام على الوطء من غير قرينة خلاف الظاهر جدّ

بل الظاهر منه ولا سيما بملاحظة استعمالاته في سائر الموارد هو التزويج.

نعم، لا يبعد دعوى اشتراك هذه الكلمة لفظ بين التزويج والوطء، وعلى هذا فتحتاج معرفة المراد بها في كل مورد إلى القرينة وإن كان الغالب استعمالها في التزويج. وأما احتمال كونها مشتركة معنوية بينهما بمعنى كونها موضوعة للجامع بينهما فهو بعيد جدّ ، إذ لا جامع حقيقي بين الأمر الاعتباري والأمر الحقيقي، والجامع الانتزاعي وإن كان ممكنا في حدّ ذاته وثابتا في متعلقات الأوامر، إلّا أنّه لا دليل عليه في باب الوضع بل لم يعهد ذلك في شيء من موارده"[٧٣].

النموذج الثاني:

قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والْمَساكِينِ والْعامِلِينَ عَلَيْها والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفِي الرِّقابِ والْغارِمِينَ وفِي سَبِيلِ اللَّهِ وابْنِ السَّبِيلِ}[٧٤].

١. معنى المسكين: ذكر السيد الخوئي & معنى المسكين من خلال الاستفادة من المعنى اللغوي والقرآني لتطبيقه فقهيا يقول: "وأمّا المسكنة فهي مطلق الذّلة، قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ} [٧٥]، في قبال العزّة، فإنّ اليهود كانوا مطرودين أذّلاء وإن كانوا أغنياء، فالمسكين هو الذليل والضعيف، قال تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ} [٧٦] أي لضعفاء أذّلاء، ولم يعلم أنّهم كانوا فقراء<[٧٧]، ويقول في موضع آخر: "إنّ المذكور في الآية المباركة والنصوص وإن كان هو المسكين الذي قد يُطلق على من هو أشدّ حالًا من الفقير، إلّا أنّ المراد منه إذا استُعمِل منفردا هو الفقير كما ادّعاه غير واحد، ويناسبه المعنى اللغوي، فإنّ المسكنة في اللغة على معانٍ منها: الفقر والذلّ والضعف، فيُطلق المسكين على الفقير في مقابل الغني، وعلى الذليل في مقابل العزيز، وعلى الضعيف في مقابل القوي.

إذ ، فاعتبار شيء آخر زائد على الفقر بأن يكون أسوأ حالًا منه لا دليل عليه، ومقتضى الأصل العدم بل قد يدلّ عليه قوله عليه السلام في موثّقة إسحاق بن عمّار الواردة

في كفّارة الإطعام: ... قلت: فيعطيه الرجل قرابته إن كانوا محتاجين؟ قال: >نعم<[٧٨]، حيث يظهر منها أنّ مجرّد الحاجة التي هي مناط الفقر كافٍ في كونه مصرف الكفّارة، ولا يُعتَبر أزيد من ذلك، فيكون هذا بمثابة التفسير للفظ المسكين<[٧٩]، وقد ذكر صاحب الميزان & معنى واحد للذليل فقط بقوله: "أما المسكين فهو الذي حلّت به المسكنة والذلة مضافة إلى فقدان المال وذلك إنّما يكون بأن يصل فقره إلى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بدا من أن يبذل ماء وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر وكالأعمى والأعرج فالمسكين أسوأ حالا من الفقير"[٨٠]، وهذا بخلاف السيد الخوئي الذي ذكر له أكثر من معنى مستفيد من الآيات القرآنية والاستعمالات اللغوية بلحاظ المقابل لها.

- ما هو الفرق بين الفقير والمسكين؟

يقول السيد الخوئي: "الظاهر أنّهما صنفان والمفهومان متغايران وإن انطبقا على موضوع واحد واجتمعا في مورد واحد، فإنّ الفقر بمفهومه العامّ هو الاحتياج والفقير هو المحتاج، قال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الْغَنِيُ} [٨١]، فإنّ البشر بل كلّ ممكن فهو في جميع شؤونه من معاشه ومعاده وحركاته وسكناته بل حتّى في وجوده فقير، أي محتاج إلى الله تعالى.

ولكن كثير ما يستعمل في صنف خاصّ من الاحتياج، وهو الاحتياج من حيث المال، فيقال: زيد فقير، أي محتاج إلى المال، قال تعالى: {ومَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ}[٨٢]، وقال تعالى: {إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما}[٨٣].

ولا يعتبر في هذا الاستعمال عدم السؤال جزم ... وقد أُطلق الفقير على البائس الذي هو أسوأ حالًا من المسكين فضلًا عن الفقير في الذكر الحكيم، قال تعالى: {وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ}[٨٤].

نعم، يطلق المسكين على الفقير أيض باعتبار أنّ من لا مال له فهو ذليل حقير عند أبناء الدنيا، ومن ثمّ كان يشقّ على جبابرة قريش الخضوع والإيمان برسول الله ﷺ،

لكونه صلى الله عليه وآله ذليلًا في نظرهم، لمكان فقره صلى الله عليه وآله، كما حكاه سبحانه عنهم بقوله تعالى: {وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}(٨٥).

ولا يعتبر في هذا الاستعمال أيضا السؤال وإن اختصّ به في الصحيحتين الآتيتين، لصدق المسكين عرفا على مطلق الفقير وإن لم يكن سائلًا كما أُطلق عليه في الكتاب العزيز، كقوله تعالى {عَشَرَةِ مَساكِينَ، فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً} إلى غير ذلك ممّا هو كثير جدّ ، فإنّ إطعام المسكين في باب الكفّارات لا يختصّ بالسائل قطعا ، بل لعلّ غير السائل الذي يظهر مناعة الطبع أولى من غيره كما لا يخفى.

فتحصّل: أنّ الفقر هو الاحتياج إمّا مطلقا أو في خصوص المال، والمسكنة هي الذلّة، فالفقير والمسكين متغايران مفهوما وإن صدقا على موضوع واحد بالاعتبارين.

وأمّا بحسب الروايات فقد فرّق بينهما في صحيح ابن مسلم بالسؤال وعدمه عن أحدهما عليهما السلام: أنّه سأله عن الفقير والمسكين >فقال: الفقير: الذي لا يسأل، والمسكين: الذي هو أجهد منه، الذي يسأل<(٨٦).

لكن لا ينبغي التأمّل في عدم كونه عليه السلام بصدد بيان المفهوم من اللفظ لغةً أو عرفا ليكون منافيا مع ما قدّمناه، بل لم نعهد حتّى رواية واحدة تكون واردة لبيان شرح اللفظ وبيان مفهومه اللغوي أو العرفي، لخروج ذلك كلّه عن شأنه ومنصبه الساميين. فالصحيحة واردة لا محالة لبيان المراد من هاتين الكلمتين الواقعتين في الآية المباركة أعني قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والْمَساكِينِ} فهي تفسير للآية لا بيان لمفهوم اللفظ بما هو، ولا ضير في ذلك، فيلتزم بأنّ مصرف الزكاة هو مطلق من لا مال له سأل أم لم يسأل، فأُريد من المسكين الأوّل، ومن الفقير الثاني.

وأوضح حالًا صحيحة أبي بصير التي صرّح فيها بيان المراد من الآية، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ {إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والْمَساكِينِ} >قال: الفقير: الذي لا يسأل الناس، والمسكين: أجهد منه، والبائس: أجهدهم<(٨٧). وأمّا

سند هذه الرواية فالظاهر أنّها صحيحة كما وصفناها< [٨٨].

وقد ذكر صاحب الميزان & هذا المعنى بقوله: "والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعمّ وأخص فكل مسكين من جهة الحاجة المالية فقير ولا عكس غير أنّ العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايرة الوصفين في نفسهما فلا يرد أنّ ذكر الفقير على هذا المعنى مغنٍ عن ذكر المسكين لمكان أعمّيته وذلك أنّ المسكنة هي وصف الذلة كالزمانة والعرج والعمى وإن كان بعض مصاديقه نهاية الذلة من جهة فقد المال<[٨٩].

النموذج الثالث:

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}[٩٠].

١. معنى {الرِّجْسَ}:

أما لغة فقد نقل السيد الخوئي بعض ما ذكره علماء اللغة واستفاد منه: "رجس أي: خبيث، وفي مفردات الراغب:

الرجس الشيء القذر. يقال: رجل رجس ورجال أرجاس، والرجس على أربعة أوجه:

إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع، وإما من كل ذلك.

وفي القاموس: الرجس بالكسر القذر، والمأثم، وكل ما استقذر من العمل، والعمل المؤدي إلى العذاب. وفي المنجد: رجس رجاسة عمل عملًا قبيحًا<[٩١].

أما ما يستفيده السيد الخوئي من المعنى اللغوي ومن سياق الآيات القرآنية فقد قال: "الرجس ليس معناه هو النجس وإنّما معناه الخبيث والدني المعبّر عنه في الفارسية بـ>پليد< لصحة إطلاقه على الأفعال الدنيئة كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والْأَنْصابُ والْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ}. فإنّ الميسر من الأفعال ولا معنى لنجاسة الفعل"[٩٢]. وقال في موضع آخر: "إنّ الرجس في الآية لا يراد منه القذارة الظاهرية لكي ينازع في اختصاصه بالأعيان النجسة، أو شموله الأعيان المتنجسة أيض . بل المراد منه القذارة المعنوية: أى الحسية الموجودة في الأمور

المذكورة في الآية، سواء كانت قدرة بالقذارة الحسية أيض أم لم تكن، والذي يدل على ذلك من الآية إطلاق الرجس على الميسر والأنصاب والأزلام، فإنّ من البديهي أنّ قذارة هذه الأشياء ليست ظاهرية، ولا شبهة في صحة إطلاق الرجس في اللغة على ما يشمل القذارة الباطنية أيض ، وعليه فالآية إنّما تدل على وجوب الاجتناب عن كل قذر بالقذارة الباطنية التي يعبر عنها في لغة الفُرس بلفظ (پليد) فتكون المتنجسات خارجة عنها جزم ... إنّ الرجس قد يطلق على مطلق القبائح والمعاصي، وقد عرفت ذلك في الهامش من القاموس وغيره<(٩٣). وهذا ما ذكره مختصر صاحب الميزان & بقوله: "والرجس -بالكسر فالسكون- صفة من الرجاسة وهي القذارة، والقذارة هيئة في الشيء توجب التجنب والتنفر منها، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير، قال تعالى: {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ}(٩٤)، وبحسب باطنه -وهو الرجاسة والقذارة المعنوية- كالشرك والكفر وأثر العمل السيء، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}(٩٥)، وقال: {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}(٩٦).

٢. معنى {التطهير}:

ذكر السيد الخوئي + حين تعرض إلى معنى المطهرون في قوله عزّ من قائل {لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} ما نصه: "إنّ المطهر غير المتطهر حيث إنّ الثاني ظاهر في من تطهر من الحدث بالوضوء أو الغسل أو من الخبث بغسله، وأما المطهر فهو عبارة عمن طهره الله سبحانه من الزلل والخطأ وأذهب عنه كل رجس، والمذكور في الآية المباركة هو المطهر دون المتطهر ففيها إشارة إلى قوله سبحانه {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} فمعنى الآية على هذا أنّ مسّ الكتاب الذي هو كناية عن دركه بما له من البواطن لا يتيسّر لغير الأئمة المطهّرين فإنّ غير من طهّره الله سبحانه لا يصل من الكتاب إلّا إلى ظواهره"(٩٧) ويؤكد على هذا المعنى حين يبين الوجه في حرمة مس كتابة القرآن من غير طهارة فيقول:

"وهذا لا لقوله عزّ من قائل {لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} لأنّ معنى الآية المباركة أنّ الكتاب لعظمة معاني آياته ودقة مطالبه لا ينال فهمها ولا يدركها إلّا من طهّره الله سبحانه، وهم الأئمة ^ لقوله سبحانه: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} وليست لها أية دلالة على حصر جواز المس للمتطهر، لأنّ المطهر غير المتطهر وهما من بابين، ولم يرَ إطلاق المطهر على المتطهر كالمغتسل والمتوضي في شيء من الكتاب والأخبار. على أن الضمير في يَمَسُّه إنّما يرجع إلى الكتاب المكنون وهو اللّوح المحفوظ، ومعنى أنّ الكتاب المكنون لا يمسّه إلّا المطهّرون هو ما قدّمناه من أنّه لا يناله ولا يصل إلى دركه إلا الأئمة المعصومون ^ "[٩٨] ويكرر هذا الوجه مع إضافةٍ في بحث >ما يحرم على الجنب< ومنها مس كتابة القرآن فيقول تعلقيه على الاستدلال بقوله تعالى: {لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}: "الآية المباركة لا دلالة لها على المدعى فإنّ المطهر غير المتطهر، لوضوح أنّ الثاني ظاهر في التطهر من الحدث الأصغر أو الأكبر والمطهر من طهره الله من الزلل والخطأ، والمذكور في الآية المباركة هو الثاني دون الأوّل، ففيها إشارة إلى قوله سبحانه {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}. ومعنى أنّه لا يمسّه إلّا من طهره الله أنّه لا يدركه بما له من البواطن غير المعصومين ^ فالآية إخبار وليست بإنشاء، فإنّ غيرهم لا يدرك من الكتاب إلا ظاهره"[٩٩]، ويقول كذلك في المس للمستحاضة: "مقتضى الأدلّة التي دلت على اشتراط المسّ بالطهارة والعمدة فيه قوله تعالى {لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} بضميمة ما ورد في تفسيرها، لأنّها بنفسها لا تدلّ على ذلك، لأنّه من المحتمل بل الظاهر من {الْمُطَهَّرُونَ} هو مَن طهّرهم الله سبحانه كما في قوله تعالى {وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}، والمراد بالمس فهم الكتاب ودرك حقائقه دون المسّ الظاهري لكتابته، إلّا أنّ الرواية فسّرتها بالمس الظاهري"[١٠٠].

٣. التطهير في الآية بمعنى الدفع أو الرفع:

إطلاق المطهر بمعنى الدفع أمر لا بأس به وقد وقع نظيره في الآية المباركة {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} لأنّ التطهير فيها بمعنى المنع عن عروض ما يقابل الطهارة عليهم ^ لا الرفع، فإنّهم قد خلقوا طاهرين وأنّهم المطهرون من الابتداء[١٠١] ويصرّح بهذه الحقيقة في موضع آخر بقوله: "قوله تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} معناه: ليس هو تطهيرهم بعد صيرورتهم غير طاهرين"[١٠٢]، وهذا المعنى أوضح وأنسب لاعتقاد الإمامية في أئمتهم ^ مما ذكره السيد الطباطبائي في ذيل تفسيره للآية الشريفة حيث يقول: "فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة ويكون المراد بالتطهير في قوله: «وُيَطَهرَكُمْ تَطْهِير» -قد أكد بالمصدر- إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، ومن المعلوم أنّ ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضً غير الإرادة التشريعية لما عرفت أنّ الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكاليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلًا"[١٠٣].

* الوقوف مع قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[١٠٤].

قد تناول السيد الخوئي هذه الآية من جوانب متعددة في مواضع مختلفة:

١. ما تدل عليه الآية الكريمة: ذكر السيد الخوئي ما تدل عليه الآية بقوله: "الآية المباركة دلتنا على أن الطهارة محبوبة لله سبحانه، ولا معنى لحبه إلّا أمره وبعثه، فيستفاد منها أن الطهارة مأمور بها شرعاً"[١٠٥] وقد طبّق هذه الكبرى على غسل الجنابة بقوله: "لا إشكال ولا كلام في محبوبية غسل الجنابة شرعاً لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}"[١٠٦]، وذكر أيضً أنّها تدل على "استحباب البقاء على الوضوء في جميع الحالات والأزمنة كما يدل عليه قوله عزّ من

قائل {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}"[١٠٧].

٢. المراد من الطهارة في الآية: يقول السيد الخوئي: "المراد بالطهارة في الآية المباركة ما يعم النظافة العرفية، وذلك لما ورد فيما رواه جميل بن دّراج عن أبي عبد الله عليه السلام >في قول اللّه عزّ وجلّ {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} مِن أنّ الناس كانوا يستنجون بالكرسف والأحجار ثم أُحدث الوضوء وهو خلق كريم، فأمر به رسول اللّه وصنعه، فأنزل اللّه في كتابه {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} >وفي بعض الأخبار أنّ الناس كانوا يستنجون بالأحجار، فأكل رجل من الأنصار طعاماً فلان بطنه فاستنجى بالماء، فأنزل اللّه تبارك وتعالى فيه {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} ويقال إن هذا الرجل كان البراء بن معرور الأنصاري< >فإن الاستنجاء بكل من الماء والأحجار وإن كان نظافة شرعية، إلّا أنّ الاستنجاء بالماء يزيد في التنظيف لأنّه يذهب العين والأثر، والأحجار لا تزيل إلّا العين فحسب. فالآية المباركة دلّت على أنّ اللّه يحب التطهير بالماء، وحيث إنّ ورود الآية في مورد لا يوجب اختصاصها بذلك المورد، فيتعدى عنه إلى مطلق النظافات العرفية والشرعية. وعلى الجملة استفدنا من الآية المباركة أنّ النظافة بإطلاقها محبوبة للّه وأنّها مأمور بها في الشريعة المقدّسة. ويؤيده ما ورد من أنّ النظافة من الإيمان<[١٠٨].

خاتمة:

ظهر جلي بعد هذه الإطلال السريعة أنّ الموسوعات الفقهية لفقهاء الطائفة مليئة بالنكات التفسيرية والإبداعات التحقيقية في فهم وتفسير الآيات القرآنية، وهذا ما وجدناه في موسوعة الإمام الخوئي & ، فإنّها تضمنت تحقيقات رشيقة وأنيقة حول العديد من الآيات الشريفة، وبيان تفسيرها بأسلوب دقيق وجزل، وهو الملاحظ مؤخر فيما تم جمعه من أنظار الشيخ الأعظم الأنصاري &

مما امتلأت موسوعته الفقهية منه من تحقيقات تفسيرية في العديد من الآيات المباركة، وقد طبع أخير تحت عنوان >الأنظار التفسيرية<، وهكذا ما صدر مؤخر لمؤسسة نشر آثار الإمام الخميني + من جمع آرائه في التفسير بلغت خمسة أجزاء، وكذا ما صدر عن مؤسسة الشهيد الصدر من جمع للأنظار التفسيرية للسيد الشهيد محمد الصدر + .

وقد تميّز الإمام الخوئي عن غيره بلحاظ ما يتمتع به من قدرات وخصائص ذاتية ومميزات علمية وما يمتلكه من آليات علمية نادرة جعلته يتعامل مع النصّ القرآني بذهْنيّةٍ خاصةٍ ذات طابعٍ شمولي؛ وذلك لإحاطته بأكثر جوانب العلوم بل تضلّعه فيها، فأبدع نكاتٍ كثيرة لم يسبقه إليها أحد، وقد صرّح بذلك أ.د. صاحب محمد حسين راضي نصار[١٠٩] حين كتب حول الخوئي تحت عنوان: >في علوم القرآن والتفسير< ما يلي: "وقد برع السيد الخوئي أكثر من غيره من معاصريه وبدء في كتابه «نفحات الإعجاز» والذي كان خليطا من علوم القرآن وعلم الكلام، لأنّ السبب في تأليفه كان رد على كتاب «حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز» ... ورد الشبهات عنه بما معروف من أسلوب السيد الخوئي من قوة الحجة والبرهان... ثم انطلق ليشرح مقدمة لتفسير لم تسنح له الظروف في إكماله , لانشغاله بزعامة الحوزة العلمية , وتسلمه إمامة المرجعية"[١١٠].

ونحن بحاجة لاستخراج كنوز الفقهاء التفسيرية ببذل جهود علمية لتكون في متناول الباحثين، ومن هذه المجلة الكريمة أدعو العلماء والباحثين إلى تسليط الضوء على هذا الفكر العلمي الرصين لإثراء الساحة العلمية به.

***

الهوامش

(١) قبل بعض معاصريه كالعلامة الطباطبائي الذي بدأ في تفسيره الميزان عام ١٣٧٤هـ.ق كما في مقدمة التفسير، ومن بعده السيد السبزواري صاحب تفسير مواهب الرحمن.

(٢) مصري العاملي، مصطفى، رسائل أربعين سنة: ص٣٨، الرسالة (٢) المؤرخة: ١٨ جمادى

الثانية ١٣٦٩.

(٣) الشيخ سلمان بن عبدالمحسن الخاقاني، وهو أحد كبار علماء خُرّمَشْهر.

(٤) مصري العاملي، مصطفى، رسائل أربعين سنة، الرسالة (٣) المؤرخة ٢٤ ذي القعدة ١٣٦٩.

(٥) للأسف الشديد لم نعثر على هذا الكتاب، والذي لو صدر لكان نفعه كبير وفائدته عميمة جد .

(٦) مصري العاملي، مصطفى، رسائل أربعين سنة، ص١٣١، الرسالة (٤٠) المؤرخة: ٣ شوال المكرم ١٣٧٧.

(٧) سماحة السيد منير الخباز في الموقع الإلكتروني الخاص بآثاره >شبكة المنير<.

(٨) الطهراني، السيد محمد حسن، الروح المجرد: ١١٥.

(٩) مجلة الاجتهاد والتجديد، العدد: ٢٨-٢٩ مقالة: مساهمة الإمام الخوئي في التفسير القرآني، أ. د. عبد العزيز ساشادين.

(١٠) الخوئي، أبو القاسم، تفسير البيان ١٢.

(١١) يونس:٥٩.

(١٢) الإسراء:٣٦.

(١٣) الخوئي، أبو القاسم، تفسير البيان ٣٩٧.

(١٤) الخوئي، أبو القاسم، تفسير البيان ٣٩٧.

(١٥) الاجتهاد والتقليد بحث فقهي استدلالي مقارن من موقع الشيخ محمد العبيدان.

(١٦) الآخوند الخراساني، محمد كاظم، ج٢: ٣٢٩.

(١٧) البحراني، محمد صنقور، شؤون قرآنية ج١: ٣٨.

(١٨) انظر: دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى.

(١٩) الخوئي، السيد أبوالقاسم، محاضرات في أصول الفقه ج١: ٤.

(٢٠) الخوئي، السيد أبوالقاسم، محاضرات في أصول الفقه ج١: ص٢.

(٢١) النساء: ٨٢.

(٢٢) النساء: ٧٨.

(٢٣) الأنفال: ٢.

(٢٤) السيد أبو القاسم، الخوئي، البيان في نفسير القرآن: ٦٢.

(٢٥) لاحظ: تفسير تسنيم (المعرب) ج١ ص٢١٤.

(٢٦) البيان ص٣٩٧.

(٢٧) ن.م

(٢٨) البيان ص١٣.

(٢٩) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١ ص١١.

(٣٠) الدر المنثور ج٢ ص٨.
(٣١) نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣ المقطع٨.
(٣٢) النساء: ٨٢.
(٣٣) البقرة: ٨٥.
(٣٤) مسائل وردود ١/ ١٤٤.
(٣٥) كان الإمام الخوئي، وآية الله الطباطبائي مؤلف (الميزان في تفسير القرآن) زميلي دراسة في علوم القرآن عند آية الله البلاغي في النجف الأشرف، وهو إمام المفسرين في عصره، وقد وصفه الإمام الخوئي بـ (بطل العلم المجاهد).
(٣٦) النساء:١٧٤، المائدة:١٥، الشورى:٥٢.
(٣٧) الميزان في تفسير القرآن: ج١ ص٦.
(٣٨) النحل:٨٩.
(٣٩) النساء:٨٢.
(٤٠) الميزان: ج٣ ص٨٤.
(٤١) الميزان: ج١ ص٨٧.
(٤٢) تفسير الميزان: ج٣ ص٧٧.
(٤٣) الطباطبائي، محمد حسين، شرح كفاية الأصول.
(٤٤) مسائل وردود ١/ ١٤٤.
(٤٥) البيان: ٢٦٧.
(٤٦) البيان: ص١٣.
(٤٧) البيان: ص١٣.
(٤٨) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ٣٩٧.
(٤٩) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ٣٩٧.
(٥٠) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ص١٣.
(٥١) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ص١٣.
(٥٢) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ص٣٩٧.
(٥٣) مسند أحمد: كتاب مسند المكثرين، الحديث:١٠٦٨١. وسنن الترمذي: كتاب المناقب، الحديث:٣٧٢٠.
(٥٤) البيان: ١٨.
(٥٥) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ص٣٩٩.
(٥٦) الخوئي، السيد أبوالقاسم، تفسير البيان: ص٣٩٨.
(٥٧) الخوئي، أبوالقاسم، محاضرات في الأصول الفقه، ج٤، ص:٤٦٩.

(٥٨) محاضـرات فـي الأصول الفقـه ج٤، ص٤٦٩ تخصيـص الكتـاب بخبـر الواحـد ..... ص٤٦٩، عـن الإحـكام للآمـدي٢: ٥٢٥، المحصـول ١: ٤٣٢، المسـتصفى ٢: ١١٤.
(٥٩) محاضرات في الأصول الفقه،ج٤ ص٤٧٠.
(٦٠) البقرة: ٣٥.
(٦١) النساء: ١٢.
(٦٢) الأحزاب: ٢٨.
(٦٣) الأحزاب: ٥٩.
(٦٤) الأحزاب: ٣٧.
(٦٥) الأحزاب: ٥٠.
(٦٦) في شرح العروة الوثقى، ج٣٣، ص: ١٣٧.
(٦٧) النور: ٣٢.
(٦٨) النساء: ٣.
(٦٩) البقرة: ٢٢١.
(٧٠) الممتحنة: ١٠.
(٧١) البقرة: ٢٢١.
(٧٢) النور: ٣.
(٧٣) شرح العروة الوثقي، ج٣٢، ص: ٣١٩.
(٧٤) التوبة ٩: ٦٠.
(٧٥) البقرة ٢: ٦١.
(٧٦) الكهف ١٨: ٧٩.
(٧٧) الموسوعة السيد الخوئي، ج٢٤، ص: ٣.
(٧٨) الاستبصار ج ٤ ص ٥٣ الفقية ج ٣ ص ٢٣٧ بتفاوت.
(٧٩) الموسوعة السيد الخوئي، ج٢١، ص:٣٩٥.
(٨٠) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي ج١: ٣٠٩.
(٨١) فاطر٣٥: ١٥.
(٨٢) النساء٤: ٦.
(٨٣) النساء٤: ١٣٥.
(٨٤) الحج ٢٢: ٢٨.
(٨٥) الزخرف٤٣: ٣١.
(٨٦) الوسائل ٩: ٢١٠/ أبواب المستحقين للزكاة ب ١ ح ٢.
(٨٧) الوسائل ٩: ٢١٠ / أبواب المستحقين للزكاة ب١ ح ٣.

(٨٨) الموسوعة السيد الخوئي، ج٢٤ ص٤.
(٨٩) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي ج١: ٣١٠.
(٩٠) الأحزاب : ٣٣.
(٩١) مصباح الفقاهة، السيد الخوئي، ج ١، ص٢١٣.
(٩٢) في شرح العروة الوثقي، ج٣، ص: ٢.
(٩٣) مصباح الفقاهة من المعاملات، ج١، ص: ١٣٠.
(٩٤) الأنعام:١٥٤.
(٩٥) التوبة: ١٥٢.
(٩٦) الأنعام: ١٥٢.
(٩٧) في شرح العروة الوثقى، ج٣، ص: ٢٩٣.
(٩٨) في شرح العروة الوثقى، ج٤ ص٤٧٤.
(٩٩) في شرح العروة الوثقى، ج٦ ص٣٠٥.
(١٠٠) في شرح العروة الوثقى، ج٨، ص:١٤٠.
(١٠١) في شرح العروة الوثقى، ج٤، ص: ٢٣٧.
(١٠٢) الموسوعة السيد الخوئي ج٢ عدم مطهرية المضاف من الخبث ..... ص :٢٤.
(١٠٣) تفسير الميزان، ج ١٦ ص٣١٢-٣١٣
(١٠٤) البقرة: ٢٢٢.
(١٠٥) في شرح العروة الوثقى، ج٤ ص ٤٦٩.
(١٠٦) في شرح العروة الوثقى ج٦ ٣٤٨ فصل في كيفية الغسل وأحكامه ..... ص :٣٤٨.
(١٠٧) الموسوعة السيد الخوئي ج٤ ٤٧٨ مسألة ١: إذا نذر أن يتوضأ لكل صلاة وضوءا رافعا للحدث ..... ص :٤٧٨.
(١٠٨) في شرح العروة الوثقى، ج٤، ص: ٤٧٠.
(١٠٩) جامعة الكوفة / كلية الفقه.
(١١٠) مقالة بعنوان >الجهود العلمية للسيد أبو القاسم الخوئي<، الموقع الإلكتروني لمؤسسة الإمام الخوئي.

مسائل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الشيخ عليّ فاضل الصدديّ

في الخصال بإسناده عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ‹قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بني الإسلام على عشرة أسهم: على شهادة أن لا إله إلا الله وهي الملّة، والصلاة وهي الفريضة، والصوم وهو الجُنّة، والزكاة وهي الطهر، والحجّ وهي الشريعة، والجهاد وهو الغزو، والأمر بالمعروف وهو الوفاء، والنهي عن المنكر وهو الحجّة، والجماعة وهي الألفة، والعصمة وهي الطاعة›[1]، وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: ‹من أحدّ سنان الغضب لله قوي على قتل أشدّاء الباطل›[2].

وهنا أتناول مسائل خمس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(المسألة الأولى) في أنّ وجوبهما عقلي أو شرعيّ:

لا شبهة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن وقع الكلام في أنّ وجوبهما شرعي أو عقليّ، وقد سيقت لتصوير الوجوب العقلي جملة وجوه[3]، منها: أنّهما واجبان عقلاً لكونهما مقدّمة لحفظ النظام الحاكمِ بوجوبه العقل[4]. وقد يرشد لهذه المقدّميّة ما ورد من أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرفريضة

عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر..[٥].

ويرد عليه أوّلاً: أنّه لا صلة لكلّ فردٍ فرد من المعروف والمنكر بحفظ النظام بشهادة الوجدان؛ فإنّ كلّ أو جلّ الواجبات والمحرّمات الفرديّة لا يتوقّف حفظ النظام على امتثالها، والواجبات والمحرّمات التي يتوقّف على أمتثالها حفظ النظام لا تتوقّف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنحو الانحصار؛ إذ قد يحفظ النظام بامتثالها ولو بتوسّط البعد الإجرائي المتمثّل في الحدود والتعزيرات والقصاص والتغريمات ولو بغير المقرّر شرع ؛ بشهادة انحفاظ النظام في المجتمعات المحكومة بالنظم الوضعية؛ لتوفّرها على البعد الإجرائي وإن لم يكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حضور مشهود، ومنه تعرف لزوم التصرّف فيما ظاهره توقّف حفظ النظام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانٍ : أنّه إنّما يتمّ لو قلنا بوجوب حفظ النظام، أمّا لو بنينا على حرمة الإخلال به، وعلى حرمة مقدّمة الحرام فالحرام منها إنّما هو الجزء الأخير من العلّة التامّة للإخلال، ومن الواضح أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس هو الجزء الأخير لترك المعروف أو فعل المنكر، فلا يكون ترك الأمر أو النهي محرّم .

ومن وجوه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقلاً ما أفاده أحد الأعاظم + -في مسألة بيع شيء مباح ممن يصرفه في الحرام- من أنّ العقل يستقلّ بوجوب منع تحقّق معصية المولى ومبغوضه، وقبح التواني عنه... فكما تسالموا ظاهر على وجوب المنع من تحقّق ما هو مبغوض الوجود في الخارج سواءً صدر من مكلّف أم لا؛ لمناط مبغوضية وجوده، كذلك يجب المنع من تحقّق ما هو مبغوض صدوره من مكلّف، ويرى العبد صدوره منه؛

فإنّ المناط في كليهما واحد، وهو تحقّق المبغوض، وإن اختلفا في أنّ الأوّل نفس وجوده مبغوض، والثاني صدوره من مكلّف مبغوض، فإذا همّ حيوان بإراقة شيء يكون إراقته مبغوضة للمولى، ويرى العبد ذلك، وتقاعد عن منعه يكون ذلك قبيحاً منه، ويستحقّ للعقوبة، لا لأهمّيته بل لنفس مبغوضيته كذلك لو رأى مكلّفاً يأتي بما هو مبغوض مولاه؛ لاشتراكهما في المناط، والحاكم به العقل-إلى أن قال + - ثمّ إنّ العقل لا يفرّق بين الرفع والدفع، بل لا معنى لوجوب الرفع في نظر العقل؛ فإنّ ما وقع لا ينقلب عما هو عليه، فالواجب عقلاً هو المنع عن وقوع المبغوض سواءً اشتغل به الفاعل أو همّ بالاشتغال به، وعُلم بكونه بصدد [ذلك]، وكان في معرض التحقّق[٦].

ومحصّل كلامه + -كما أفاده أحد تلامذته & -: أنّ العقل -الذي هو المحكّم في باب روابط الموالي والعبيد- كما يحكم بوجوب المنع عن تحقّق ما هو مبغوض للمولى بنحو الإطلاق وإن صدر عن غير المكلّف، كما إذا أراد سبع افتراس ولد المولى مثلاً، كذلك يحكم بوجوب المنع عن تحقّق ما هو مبغوض الصدور عن المكلّفين؛ لاشتراكهما في الملاك، أعني المبغوضية للمولى، من غير فرق في ذلك بين الرفع والدفع[٧].

ويضيف آخر من تلامذته بأنّ النهي عن المنكر بلحاظ الأعمال الآتية دائماً أو غالباً ما يكون من قبيل الدفع، كما إذا تهيّأ جمعٌ لشرب الخمر، ولمّا يشربوا بعد، فنهوا عن ذلك، أو فتح فردٌ حانوتاً لبيع الخمر، ولم يبع بعد، فنهي عن البيع[٨].

ويتوجّه عليه أوّلاً: أنّ دفع المنكر وإن وجب في بعض الموارد عقلاً، وهي ما اهتمّ الشارع بمنعه، لكنّه ليس من النهي عن المنكر في شيء؛ لأنّ النهي عن المنكر بمراتبه عبارة عن زجر الغير ليترك المنكر باختياره، بينما دفع المنكر عبارة عن تعجيزه عنه[٩]، وليس الغرض من إيجاب الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر سلب الاختيار من الناس وإبطال ابتلائهم وامتحانهم بإلجائهم، بل الغرض منه إيجاد الداعي وتقويته في نفوس المكلّفين، فلا يفيد هذا الوجه وجوب النهي عن المنكر عقلاً، ولا أقلّ من احتمال أنّ الغرض هو ذلك.

وثاني : أنّ المبغوض صدوره من المكلّف لا يؤذن بضرورة المنع من تحقّقه ولو بالغير ما لم يكن من قبيل ما اهتمّ الشارع بمنعه وإن صدر من غير المكلّف.

ثمّ إنّ منع من اشتغل بالمعصية أو همّ بالاشتغال بها- كما في التهيؤ لشرب الخمر أو فتح حانوت الخمر ولو لم تُبع بعد- وإن كان من دفع المنكر بحسب الدقّة والتحليل إلا أن الأحكام الشرعية وموضوعاتها لم تبنَ على التدقيقات العقلية، ولا تردّد في صدق رفع المنكر في العرف على منع من اشتغل بالمعصية أو همّ بالاشتغال بها[١٠].

فالمختار وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرع ، هذا.

ولا ريب في أنّ مطلوبيّة الأمر والنهي في باب المستحبّات والمكروهات والآداب مطلوبيّة شرعيةٌ وبالاعتبار لا عقلية.

(المسألة الثانية) في تعبّدية أو توصّلية الفريضة:

في بعض كلمات الشهيد الثاني + تصريح بعبادية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث قال: "والظاهر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قسم العبادات"[١١]، وقد يلوح ذلك من الرسائل الفخرية؛ إذ قال: "نيته بالقلب: آمر بالمعروف أو أنهى عن المنكر بالقلب لوجوبه قربة إلى الله، وإذا تمكّن باللسان قال: آمر بالمعروف أو أنهى عن المنكر باللسان لوجوبه قربة إلى الله، وكذا باليد، وقد يجتمع الكلّ فينوي لكلّ واحد"[١٢].

إلا أنّه لا دليل على التعبّدية من ارتكاز أو غيره، وقد صرّح بعدمها في

جامع المقاصد وتحرير الوسيلة[١٣]، نعم ندبنا الله سبحانه بالخصوص إلى فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقرّبا إليه؛ إذ قال عزّ من قائل: {لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}[١٤].

نعم قد يقال: إنّ إدراج باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العبادات في الرسائل العملية مبني على أنّ ظاهر بعض أدلّة الأمر بالمعروف- بعد احتفافها بأوصاف الإيمان كقوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..}[١٥]، الذي يؤذن بوجود مناسبة بين الإيمان والقيام بهذه الوظيفة- هو مطلوبيّة الأمر بالمعروف؛ لكونه معروفا شرعا، بحيث لو أمر بالمعروف؛ لكون ترك المعروف منكرا عرفا، أو نهى عن المنكر؛ لكونه منكرا عرفا، أو لعدم رغبته فيه فهو عاصٍ للوظيفة الشرعية، وإن كان أمره أو نهيه موجبا لانعدام موضوع الأمر والنهي.

ويلاحظ عليه بأنّ أقصى ما يعطيه السياق رجحان الإتيان بوظيفة الأمر بالمعروف؛ لأنّه معروف شرعا، ورجحان الإتيان بوظيفة النهي عن المنكر؛ لأنّه منكر شرعا، فلو أمر بالمعروف لكونه معروفا عرفا، أو نهى عن المنكر لكونه منكرا عرفا أو لعدم رغبته فيه فلم يترك الوظيفة وإن ترك ما هو راجح.

(المسألة الثالثة): في عينيّة أو كفائية الفريضة:

اختلفوا في أنّ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عينيّ أو كفائي، واحتمل في الجواهر عينيّة الإنكار القلبي على كلّ مكلّف دون الإنكار باللسان واليد[١٦]، واختار هذا التفصيل أحد أعاظم العصر دامظله قائلاً: "يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كون المعروف واجبا والمنكر حراما، ووجوبه عندئذٍ كفائي يسقط بقيام البعض به، نعم وجوب إظهار الكراهة قولاً أو فعلاً من ترك الواجب

أو فعل الحرام عيني لا يسقط بفعل البعض، قال أمير المؤمنين × : أمرنا رسول الله ﷺ أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة"[١٧]. وقد يظهر من سوقه للرواية أنّها دليله على عينيّة الإنكار القلبي، بتقريب: أنّ مناسبة الحكم والموضوع في قوله: >أمرنا رسول الله ﷺ أن نلقى أهل المعاصي..< هو كون الكراهة من باب النهي عن المنكر، وأنّ ظاهر الرواية وجوب الإنكار بإظهار الكراهة بمثل الاكفهرار والعبوس والإعراض عينيّ ، ولا خصوصيّة للفعل عرفاً فيتعدّى منه إلى القول، فيلزم الإنكار عينيّ بإظهار الكراهة فعلاً أو قولاً. ثمّ لا يعيب سندها اشتماله على النوفلي؛ فإنّه وإن لم يرد فيه توثيق بالخصوص إلا أنّه من معاريف الطائفة الّذين لم يرد فيهم قدح، فيكشف ذلك عن حسن ظاهره، وحسن الظاهر كاشف عن الوثاقة عرفاً وشرعاً .

ولكن يرد على دلالة الرواية أوّلاً: إنّ من المحتمل ألا يكون لقاء العاصي بوجه مكفهرّ من باب النهي عن المنكر، بل هو نحو التعاطي الاجتماعي معه -خصوصاً إذا فهمنا عنوان (أهل المعاصي) بما سيأتي- وأنّه يحاط بجو ساخط على فعله[١٨]، على نسق ما ورد في منابذة شارب الخمر، فلا يسلّم عليه[١٩]، ولا يجالس، ولا يعاد إذا مرض، ولا يزوّج إذا خطب[٢٠]، وما ورد في عدم صحبة ومجالسة أهل البدع[٢١].

نعم نقل الشيخ + الرواية في التهذيب بهذا النحو: >عنه- يعني محمّد بن يعقوب- عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله × قال: قال أمير المؤمنين × : أدنى الإنكار أن يُلقى(تَلقى) أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة<[٢٢]، فهي بهذا النقل وإن كانت واضحة في الحديث عن باب النهي عن المنكر إلا أنّها ليست ظاهرة في الوجوب العيني.

ولما كان نقل الشيخ للرواية عبارة عن نفس رواية الشيخ الكليني + فيلحقها أحد الإشكالين -عدم ظهورها في باب النهي عن المنكر وعدم ظهورها في

الوجوب العينيّ- بنحو مانعة الخلو، فلا يتمّ الاستدلال بها.

وثاني : أنه لو سلّمنا أنّ ذلك من باب النهي عن المنكر إلا أنّ الموضوع أخصّ من المدّعى؛ إذ موضوع الإنكار في الرواية هو أهل المعاصي، وهو لا يصدق على مطلق من عصى؛ فإنّ ظاهر هذا العنوان ممن أدمن على المعصية.

والنتيجة أنّ إظهار الكراهة فعلاً أو قولاً من ترك المعروف أو فعل المنكر لا يجب عينا على كلّ مكلّف- كما هو حال الإنكار باللسان واليد- إلا إذا وجد عنوان أهل المعاصي، نعم يحتمل أنّ المنظور في أهل المعاصي الانحلال لا ممن أدمن على المعصية.

(المسألة الرابعة): في متعلّق الوجوب:

والكلام فيه في مطالب:

الأوّل: لم يقل أحد بأنّ المراد من الأمر والنهي اللذين هما متعلّق الوجوب خصوص هيئتي الأمر والنهي(افعل، ولا تفعل)، أو خصوص مادتيهما(آمرك، أنهاك)، أو ما يعمّ الهيئتين والمادّتين بالخصوص، بل يراد من الأمر والنهي مطلق ما يفيد البعث أو الزجر[٢٣].

الثاني: ليس من الأمر والنهي بيان الحكم الشرعي أو بيان مصالح فعل الواجب ومفاسد فعل الحرام أو الوعظ والنصح والترغيب والترهيب أو الإخبار بالوعد والوعيد الإلهيين؛ لعدم انطباق عنوان الأمر أو النهي على ذلك، إلا أن يُفهم من ذلك عرفا البعث أو الزجر ولو بالقرائن، نعم يسقط الوجوب بحصول المقصود منهما بذلك ولو لم ينطبق العنوان؛ لانتفاء الموضوع. ومنه يظهر النظر فيما أفاده الشيخ في النهاية: "والأمر بالمعروف يكون باليد واللسان، فأمّا باليد فهو أن يفعل المعروف ويجتنب المنكر على وجه يتأسّى به الناس.."[٢٤]، اللهم إلا أن يدّعى أنّ فعل المعروف واجتناب المنكر على هذا الوجه مما لا ينفكّ عن البعث أو

الزجر عرفا ، وكذا فيما أفاده في الجواهر: "نعم من أعظم أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعلاها وأتقنها وأشدّها تأثير -خصوصا بالنسبة إلى رؤساء الدين- أن يلبس رداء المعروف واجبه ومندوبه، وينزع رداء المنكر محرّمه ومكروهه، ويستكمل نفسه بالأخلاق الكريمة وينزّهها عن الأخلاق الذميمة؛ فإنّ ذلك منه سبب تامّ لفعل الناس المعروف، ونزعهم المنكر، وخصوصا إذا أكمل ذلك بالمواعظ الحسنة المرغّبة والمرهّبة، فإنّ لكلّ مقام مقالا، ولكلّ داء دواء، وطبّ النفوس والعقول أشدّ من طبّ الأبدان بمراتب كثيرة، وحينئذٍ يكون قد جاء بأعلى أفراد الأمر بالمعروف.."[٢٥].

الثالث: في بعض الكلمات دعوى تمحّض الأمر والنهي في مرتبة اللسان بدعوى عدم تناول عنواني الأمر والنهي لإظهار الانزعاج ونحوه[٢٦].

ويرد عليه -مضافا إلى عدم احتمال خصوصيّة للّفظ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنظر العرف- أنّ مفردتي الأمر والنهي قد تكثّر استعمالهما في الكتاب العزيز وغيره في البعث والزجر وإن كانا غير لفظيين، والاستعمال وإن كان أعمّ من الحقيقة، إلا أنّ تكثّره مبعّدٌ للتجوّز والعناية، فمن آيات الكتاب العزيز قوله سبحانه: {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}[٢٧]، وقوله عن الشيطان: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٢٨]، وقوله: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء}[٢٩]، وقوله: {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ..}[٣٠]، وقوله: {وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ..}[٣١]، وقوله: {..وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}[٣٢]وقوله: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا..}[٣٣]، وقوله: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}[٣٤]، وقوله: {..إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ}[٣٥]، وقوله: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[٣٦].

الرابع: المشهور أنّ من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإنكار باليد بالضرب المؤلم الرادع عن المعصية، ولكن توقّف في كونه منها بعض

الأعلام + [٣٧]، بدعوى انصراف أدلّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمّا يستلزم تصرّفه في شأن الغير بحيث يكون خلاف سلطنته على نفسه، وكأنّه + يرى أنّ عنوان الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر يتناول الإنكار باليد غاية الأمر يدّعي انصراف أدلّتهما عنه، فتأمّل.

(المسألة الخامسة) في انحلال الوجوب إلى وجوبات تستوعب موارد الأمر والنهي وتتناول أفراد المكلّفين وعدمه:

فقد طالعنا أحد المشتغلين بفكرة مفادها أنّ اللازم في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتّصف المكلّف بكونه آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، وأن توجد أمّةٌ آمرةٌ ناهية، لا أن اللازم أن يتصدّى للمنكر ولو بعد اتصافه بكونه آمر ناهٍ أو مع وجود أمّةٍ مهمّتها الأمر والنهي، وأضاف بأنّ أدلّة الباب قاصرة عن إفادة المعنى الثاني -الذي هو المعروف بين فقهاء المسلمين- قائلاً: "فإننا لو راجعنا الكتاب والسنّة لوجدنا أنّ أغلبيّة النصوص وردت في الأمر بالمعروف إمّا وصف للجماعة أو للفرد، أي: أمّة تأمر بالمعروف أو أنّ من يمكّن في الأرض يأمر بالمعروف أو أنّ الأمّة أو الفرد الذي يترك الأمر بالمعروف يصاب بكذا وكذا من العذاب وما شابه ذلك"، ثمّ استعرض ثمانية نصوص روائية، وتعلّلها أجمع سند وكذا دلالة ما عدا رواية السكوني المتقدّمة ، فإنّه رآها ظاهرة في الشموليّة والاستيعاب، وخلص أخير إلى "أنّه يجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بمقدار ما يحصل منه اتصافه بهذه الصفة وبقاء هذه الصفة عليه، وبما يحقّق اتصاف الجماعة بهذه الصفة مقابل صفة اللامبالاة والتقصير"[٣٨]، وينتهي ما ذكره إلى قصور الأدلّة عن إفادة ما هو المعروف بين فقهاء المسلمين.

ولكن يمكن دفع ما ذكره بوجوه:

الأوّل: إنّ دليل العقل بواحد من تصويراته من اللطف أو مقدّميته لحفظ

النظام أو غيرهما على ما تقدّم في (المسألة الأولى) -على تقدير تماميّته على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- لا يقف عند تحقّق الاتّصاف للمكلّف ووجود أمّةٍ آمرةٍ ناهية، وقد تمّم صاحب الفكرة تصوير مقدّمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحفظ النظام[٣٩].

الثاني: مقتضى إطلاق جملة وافرة من الروايات[٤٠] -تنتهي إلى حدّ الاستفاضة لا أقل- لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدد الموارد وبلا توقّف عند حدّ اتصاف جماعة بكونها آمرة ناهية.

كما أنّ المنساق عرفاً مما دلّ على مطلوبيّة كون المسلم آمر بالمعروف لحاظُ الاتصاف على نحو الطريقيّة لنفس الأمر لا الموضوعيّة؛ لمناسبة الحكم والموضوع، ولأنّ الغرض المصرّح به في النصوص هو (بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم..).

الثالث: إنّ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدد الموارد وبنحو يستوعب المكلّفين -مضافاً لكونه من المرتكزات عند المتشرّعة- من المسلّمات الفقهيّة؛ فإنّ فقهائنا قد أرسلوا ذلك إرسال المسلّمات[٤١] الكاشف عن ارتكازه لدى المتشرّعة. ثمّ إنّه لا يضير بدعوانا التسالم وجود الأدلّة اللفظية[٤٢]؛ فإنّه لا ملازمة بين وجودها وبين مدركيّة دعوى التسالم، فإنّ الفقيه قد يستكشف من كلمات الأعلام كون الحكم ضروريّاً ومن المرتكزات المتشرّعيّة بقطع النظر عن وجود روايات عليه بحيث لو لم يجد رواية مصرّحة بالحكم لكان يقول به؛ للضرورة والارتكاز.

إذن فما هو المعروف بين فقهائنا هو الصحيح.

مستطرفات:

* في الصحيح عن درست عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **<إنّ الله بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلباها على أهلها، فلمّا انتهيا إلى المدينة فوجدا فيها رجلا يدعو ويتضرع -إلى أن قال- فعاد أحدهما إلى الله، فقال: يا ربّ إني انتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرّع إليك فقال: امض لما أمرتك به، فانّ ذا رجل لم يتمعّر وجهه غيظاً لي قط>**[٤٣].

* وفي الخبر عن عبد الله بن ميمون القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن جدّه عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: قال موسى بن عمران عليه السلام: يا ربّ من أهلك الذين تظلّهم في ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك؟ فأوحى الله إليه: الطاهرة قلوبهم والبريئة أيديهم الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم -إلى أن قال- والذين يغضبون لمحارمي إذا استحلّت مثل النمر إذا جرح[٤٤].

* وفي المعتبر عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن محمد بن علي بن موسى بن جعفر عن أبيه عليهم السلام قال: دخل موسى بن جعفر على هارون الرشيد، وقد استخفّه الغضب على رجل، فأمر أن يضرب ثلاثة حدود، فقال : إنما تغضب لله، فلا تغضب له بأكثر مما غضب لنفسه[٤٥].

* وفي تحف العقول: في مواعظ المسيح عليه السلام قال: قال: بحقّ أقول لكم: إنّ الحريق ليقع في البيت الواحد، فلا يزال ينتقل من بيت إلى بيت حتى تحترق بيوت كثيرة، إلا أن يستدرك البيت الأول، فيهدم من قواعده فلا تجد فيه النار معملا، وكذلك الظالم الأول لو يؤخذ على يديه لم يوجد من بعده إمام ظالم فيأتمّون به، كما لو لم تجد النار في البيت الأول خشب وألواح لم تحرق شيئا. بحقّ أقول لكم: من نظر إلى الحيّة تؤم أخاه لتلدغه ولم يحذّره حتى قتلته، فلا يأمن أن يكون قد شرك في دمه، وكذلك من نظر إلى أخيه يعمل الخطيئة ولم يحذّره عاقبتها حتى أحاطت به، فلا يأمن أن يكون قد شرك في إثمه..[٤٦].

* وفي مجمع البيان: وروي عن علي وابن عباس: أنّ المراد بالآية{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاة} الرجل الذي يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٤٧).

* وفي المجمع: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} من المشقّة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن عليّ عليه السلام(٤٨).

***

الهوامش

(١) الخصال للصدوق & : ٤٤٧ باب العشرة ح٤٧، بحار الأنوار٦٥: ٣٧٧ ب٢٦ ح٢٥.

(٢) نهج البلاغة٣: ١٩٤/ ١٧٤، وسائل الشيعة١٦: ١٣٣ ب٣ من أبواب الأمر والنهي ح٧.

(٣) انظر: شرح تبصرة المتعلّمين للمحقّق العراقي٤: ٤٤٤، ٤٤٥.

(٤) انظر: شرح تبصرة المتعلّمين للمحقّق العراقي٤: ٤٤٥.

(٥) وسائل الشيعة١٦: ١١٩ ب١ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما ح٦.

(٦) المكاسب المحرّمة للإمام الخميني١: ١٣٦.

(٧) دراسات في المكاسب المحرّمة للشيخ منتظري٢: ٣٤٩.

(٨) انظر: أنوار الفقاهة للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ك التجارة (المكاسب المحرّمة): ١٣٤.

(٩) انظر: محاضرات في الفقه الجعفري١: ١٨٦، مصباح الفقاهة (المكاسب المحرّمة)= موسوعة الإمام الخوئي + ٣٥: ٢٨٥.

(١٠) انظر: مصباح الفقاهة (المكاسب المحرّمة)= موسوعة الإمام الخوئي + ٣٥: ٢٨٥.

(١١) حقائق الإيمان: ١٩٢.

(١٢) الرسائل الفخرية: ٢١٦.

(١٣) جامع المقاصد٦: ٢٥٩، تحرير الوسيلة١: ٤٦٥ (القول في أقسامهما- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- وكيفية وجوبهما م١٣).

(١٤) سورة النساء: ١١٤.

(١٥) سورة التوبة: ٧١.

(١٦) انظر: جواهر الكلام٢١: ٣٦٢.

(١٧) منهاج الصالحين للسيّد السيستاني١: ٣٨٥، م ١٢٧٠ (الطبعة المصحّحة والمنقّحة ١٤٣١هـ)، وكانت عبارة المسألة في الطبعات السابقة عليها كالتالي: >مسألة ١٢٧٠: يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كون المعروف واجبـ والمنكر حرامـ ، وفي كون وجوبه عينيّـ أو كفائيّـ وجهان، ولا يبعد الأول في اظهار الكراهة قولاً أو فعلاً، والثاني فيما يتوقّف على إعمال القدرة كالضرب والحبس مما كان من وظائف المحتسب في بعض الأزمنة السالفة<.

(١٨) ومقتضى إطلاق الرواية لزوم التنفّر من أهل المعاصي وإظهار السخط عليهم ولو لم يحتمل التأثير، وقد احتاط السيّد السيستاني لزومـ بذلك، قال في المنهاج- بعد ذكره لشرطية احتمال الائتمار والانتهاء-: >فإذا لم يحتمل ذلك، وعلم أنّه لا يبالي بالأمر أو النهي، ولا يكترث بهما فالمشهور بين الفقهاء رضي الله عنهم أنّه لا يجب شيء تجاهه، ولكن لا يترك الاحتياط بإظهار الكراهة فعلاً أو قولاً لتركه المعروف أو ارتكابه المنكر ولو مع عدم احتمال الارتداع به<.

(١٩) وسائل الشيعة١٢: ٤٩ (ك الحجّ) ب٢٨ من أبواب أحكام العشرة ح٦، ٧.

(٢٠) وسائل الشيعة٢٥: ٣٠٩ ب١١ من أبواب الأشربة المحرّمة.

(٢١) وسائل الشيعة١٢: ٤٨ ب٢٧ من أبواب أحكام العشرة ح١.

(٢٢) تهذيب الأحكام٦: ١٧٦ ب٥٠ ح٥ (٣٥٦)، وسائل الشيعة١٦: ١٤٣ ب٦ من أبواب الأمر والنهي ح١.

(٢٣) انظر للمزيد: تحرير الوسيلة للإمام الخميني + ١: ٤٦٤، ٤٦٥، (القول في أقسامهما وكيفية وجوبهما) م١١، ١٢.

(٢٤) النهاية: ٢٩٩، ومثله في المهذّب لابن البرّاج١: ٣٤١.

(٢٥) جواهر الكلام٢١: ٣٨٢، ٣٨٣.

(٢٦) انظر: مباني منهاج الصالحين٧: ١٥٦، ١٥٧، حدود الشريعة (الواجبات): ٧٩.

(٢٧) سورة البقرة: ٩٣.
(٢٨) سورة البقرة: ١٦٩.
(٢٩) سورة البقرة: ٢٦٨.
(٣٠) سورة النساء: ١١٩.
(٣١) سورة يوسف: ٥٣.
(٣٢) سورة النور: ٢١.
(٣٣) سورة هود: ٨٧.
(٣٤) سورة الطور: ٣٢.
(٣٥) سورة العنكبوت: ٤٥.
(٣٦) سورة النازعات: ٤٠.
(٣٧) انظر: منهاج الصالحين للميرزا التبريزي + ١: ٣٦٢، ذيل المسألة ١٢٧٢، ومثله في منهاج الصالحين للسيّد الهاشمي الشاهرودي دام ظله ١: ٣٨٢، ذيل المسألة ١٢٧٢.
(٣٨) انظر: فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للشيخ حيدر حبّ الله: ٢٢٦-٢٣١.
(٣٩) انظر: فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٥٤ (الهامش)، ١٥٨.
(٤٠) لاحظ: وسائل الشيعة ١٦: ١١٩، ١٢٥ ، ١٢٨، ١٢٩ ب١ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما ح٢، ١١، ١٢، ٢٠، ٢٥، : ١٣٤ ب٣ ح١٢، مستدرك الوسائل١٢: ١٧٧، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥ ب١ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما ح٢، ١١، ١٢، ٢٠، ٢٥، :١٨٩ ب٢ ح٩، :١٩٠ ب٣ ح٤.
(٤١) لاحظ: الهداية للصدوق: ٥٦، المقنعة: ٨٠٩، المراسم للديلمي: ٢٦٣، النهاية: ٢٩٩، الاقتصاد: ١٤٦، ١٤٨، مصباح المتهجّد: ٨٥٥، الرسائل العشر: ٢٤٥، الوسيلة لابن حمزة: ٢٠٧.
(٤٢) تعريض بما ذكره في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٤١.
(٤٣) وسائل الشيعة١٦: ١٤٣ ب٦ من أبواب الأمر والنهي ح٢.
(٤٤) وسائل الشيعة١٦: ١٤٧ ب٨ من أبواب الأمر والنهي ح٣.
(٤٥) وسائل الشيعة١٦: ١٤٧ ب٨ من أبواب الأمر والنهي ح٤.

(٤٦) تحف العقول لابن شعبة: ٥٠٤، مستدرك الوسائل١٢: ١٨٤ ب١ من أبواب الأمر والنهي ح٢٤.

(٤٧) مجمع البيان٢: ٥٧.

(٤٨) مجمع البيان٨: ٨٧.